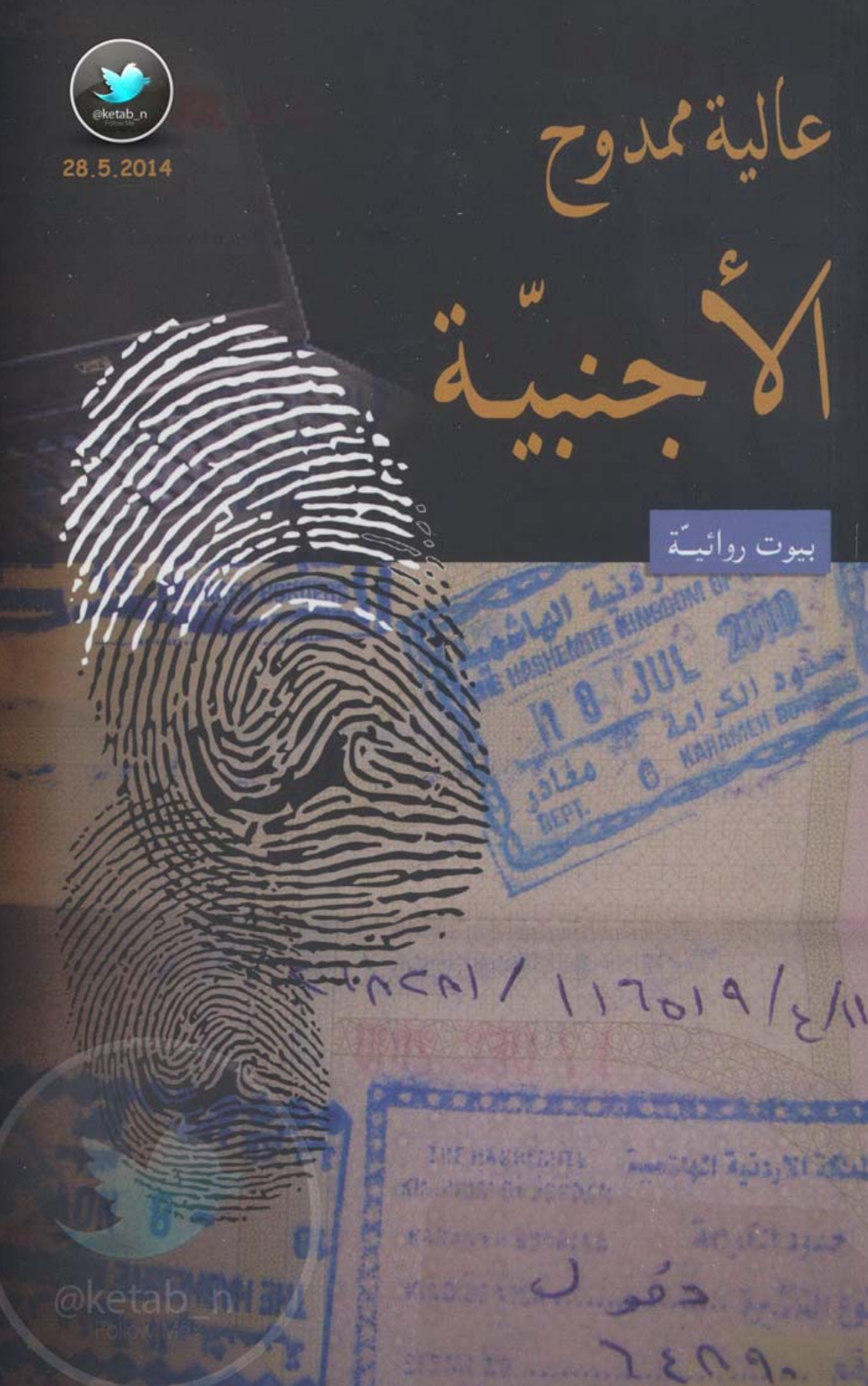

@ketab_n
28.5.2014
عالية ممدوح
الأجنبيّة
بيوت روائيّة
JUL
@ketab_n

عالية ممدوح



رواية

دار الآداب ـ بيروت

الأجنبيّة

الأجنبيّة

عالية ممدوح / روائيّة عراقيّة

الطبعة الأولى عام 2013

ISBN 978-9953-89-261-0

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana.adab@hotmail.com

Website: www.daraladab.com

Facebook: Dar Al Adab

إلى أصدقائي

بيت الطاعة

أتابع أعمال مؤرّخي ومؤرّخات ما بعد الخطاب الكولونيالي فتستوقفني بعض المقولات التي يؤكّدون من خلالها أنّ الخصائص المميّزة للتاريخ الشفويّ هي أنّه: «لا يتناول ما قد حدث بقدر تركيزه على المعنى من وراء ما حدث».

في منتصف التسعينيّات من القرن المنقضي، اتّصلت بي القنصليّة العراقيّة بباريس تدعوني لزيارتها في مقرّ السفارة الكائن... لأمر عاجل. أثق كثيرًا بالأمور العاجلة فهي تملك حبكة ألغازها، وبالتالي فإنّ أذيّتها لا تنتهي عاجلاً. فبفضل تلك الغريزة الفريدة من نوعها، الخوف الذي كان يحثّ الخطى في اتّجاهين إمّا السفارة العراقيّة وإمّا دائرة البوليس الفرنسي على سبيل المزاح. كنت أحرس جلالة الخوف بكذا وكيت من التفاصيل المثيرة للقلق، ومنذ الهاتف الذي وصلني فأختار الميتة أو الوضعيّة التي ستكون الأقلّ وجاهة والأكثر مرحًا. ماذا لو قُبض عليّ؟ عال، فلنقل، محاولة ذلك. كنت أرتّب الوقائع وأحاول سردها أمام حالي حتى أتمّم كمال هذا الفعل الدراماتيكي، وأنا أصعد

المترو وأبدّل الخطّ إلى اتّجاه دوفين. العراق يمتلك جميع الألقاب وسلّم الوظائف، ضبط الأسماء والنعوت، لكنّني كنت أفضّل كما في بعض الروايات التي لم أجدْ في تدوينها: المطاردات ما بين قطار الأنفاق وشوارع الأحياء الراقية في باريس حيث تقع السفارة في الحيّ السادس عشر. المطاردة في السينما أو المسلسلات أو تلك الموجودة في الأعمال البوليسيّة، تجعلك مقطوع الأنفاس وأنت تحثّ الخطى إلى السفارة. ماذا لو تمّ حبسي وتخديري وتقييدي ثم شحني إلى هناك كطرد تالف. أقتات فعليًّا منذ الصباح الباكر إلى ساعة ملاقاتي القنصل العراقي على نظام الجندي الخوّاف الذي يأكل من جوفه وثرواته المعدنيّة المطمورة فيه. إنّ بعض الأحداث التي تصادف المرء من غير توقّعها يكون لها بعض القيمة الاجتماعيّة والسياسيّة والوجوديّة إذا كانت قابلة للإرجاع، ليست كواقعة هامشيّة، وإنّما كوقائع نموذجيّة آثارها لم تنضب حتى هذه اللحظة: ٢٠١٢. وقفت أمام الباب الحديدي الثقيل جدًّا، مررت وسط أجهزة كاشفة تقدر على كشف أيّ شيء إلّا ذبذبة الخوف، خوفي. لم أتعثّر بالدرجات التي واجهتني وأنا أجتازها. كان الرجل في الاستعلامات مؤدّبًا وهو يبتسم في وجهي. لم أر أيّ أثر لأيّ إجراء قهري أو تعسّفي، ولم يدعني للجلوس أصلاً. قام حالاً وسار أمامي وهو يلتفت قائلاً:

ـ تفضلي القنصل بانتظارك.

كانت المرّة الأولى التي ألتقي فيها قنصلاً أو مسؤولاً في السفارة العراقيّة بباريس. خرج القنصل من وراء مكتبه وتقدّم لمصافحتي. الاستقبال اللطيف في ذاته ضاعف هلعي. القنصل

شابّ شديد الدماثة متابع لما تكتبه الكاتبات العراقيّات. لاحظ استعجالي لمعرفة سبب الاستدعاء فسحب ملفًّا لا أتذكّر لونه، فتحه وأخرج ظرفًا أسمر مستطيل الشكل. هذه المظاريف كانت تسمّى «كاغد» يبعث بها الحاكم والوالي، الخليفة أو الوزير أوامره للرعيّة أو لشخص واحد. هي جزء من منظومة الصناعات المحلِّيّة، حكمت وتحكم بقطع رأس فلان أو رقبة علّانة، أو تحدّد إقامة، أو من الجائز تكافئ، لمَ لا؟ الكاغد الأسمر بيد القنصل العراقي. كاغد كوني قطع الزمان والمكان، وها هو يثير لديّ، لدينا جميعًا، نحن أبناء البشر، ارتدادات كابوسيّة وعصابيّة لسنا بقادرين على حمل أوزارها:

ـ مدام، معذرة ونحن نسلّم إليك هذا الخطاب.

اعتذار صريح بلا تورية كما لو أنّه يسلّم إليّ أمر فصلي من نقابة الصحفيّين فيقوم بدفع التعويضات اللازمة.

أخذت الظرف، أظنّ الآن أنّني أستطيع القول كنوع من الفكاهة، إنّ كفّي وأصابعي وذراعي وساعدي وصولاً إلى الكتف، كانت تتمتّع بقوّة طبيعيّة فائقة. لم تهتزّ أو ترتجف وأنا أرى الظرف مفتوحًا:

ـ كان علينا قراءة الخطاب فهو موجّه إليك وبواسطتنا كقنصليّة.

آه، هو نفسه ذاك الرجل، رجلي الفادح الجمال الذي كنت أخبّئه للشدائد، والذي كان مثابرًا على الوجود في وجودي، أطلقت ضحكة عصبيّة:

ـ طلبي لبيت الطاعة؟ أما زال هذا الأمر ساري المفعول عندنا؟

ـ الأمر الوحيد الذي بمقدوري تأكيده لك، أن ليس بين فرنسا والعراق تسليم الأشخاص المطلوبين لوزارة العدل العراقيّة في مثل هذا النوع من القضايا القانونيّة والشرعيّة. أنا مُحامٍ وأعرف القانون.

أضاف القنصل مبتسمًا:

ـ ما نستطيع عمله معك تسليم الخطاب المسجّل لصاحبة الشأن والتوقيع على الاستلام بالطلب المدوّن في الخطاب. الاستدعاء للعراق ومثولك أمام القاضي... ونأسف أن تصل الأوضاع بينكما... إلخ.

كان شكل الخطاب باعثًا على الإزعاج الشديد بسبب صعوبة قراءته. حبر أسود كثيف وسميك وقد فاضت نهاياته فبدت له ظلال على الكلمات المجاورة وما بين السطور. الخطّ ناعم جدًّا جدًّا كغائط الفئران. الكلام في الداخل ينطوي على جميع المعاني التراجيديّة الطريفة. قمت واقفة وأنا أمدّ يدي للمصافحة:

ـ عال، هذه بطاقة تعريف جديدة أستطيع إضافتها كظاهرة معرفيّة ووجوديّة جديدة وأقدر على استعمالها إضافةً لهويّاتي وهواياتي:

ـ تستطيعين الإفادة منها في يوم من الأيّام. من يدري؟

أجاب القنصل وهو يوصلني للباب.

«اقتلوهم جميعًا»

حضر أندي وارهول وهو يصوّر ويرسم مارلين مورنو بعدد لا يحصى من الصور. فلا ندري كيف ومتى ننزع الخطّ الفاصل ما بين «الصورة وصنع الصورة». رجلي ذاك هو أيضًا انخدع بالذوات المتعدّدة والروتينيّة التي كنت أريد حيازتها، فقال قولته عن طريق خمسة محامين أوكلهم للدفاع عن تبذير مكوّنات خصوبتي وأنوثتي. يومذاك شعرت أنّ إنسانيّتي تحتاج إلى إعادة تعريف، وجميع عواطفي كان يُعاد اختراعها من جديد، وأنّ ذلك الرجل لم أقدر على رميه بالجمرة الخبيثة، ولا فكّرت في أحد الأيّام بتسميمه لأنّه رفض كلّ الأشياء وفي عدادها وأهمّها إعادة جميع أوراقي الثبوتيّة الأصليّة؛ شهادة الجنسيّة العراقيّة وهويّة الأحوال المدنيّة ووثيقة الزواج. لم أعد أعرف، ربّما لأيّام وسنين من أكون. من أنتِ آه، بالتأكيد لائحة أغلاطي لا تحتمل، كنت سيّدة الأخطاء بدون مُنازع، وأمتلك حرِّيّة التجريب في اقترافها كنوع من ردّها عنّي، وهي في الأخير درجة من الإصرار للتحرّر من طقسيّة أدوار الضحيّة والبطلة والشهيدة. كنت أستميت في طلب الانفصال وكان يتفنّن في

توزيع أيديولوجيّة الطاعة ـ . . . ما بين العواصم والقارّات كنت أردّد: إنّ هذا الأمر لن يدوم طويلاً. بلى، بضعة أعوام وسينسى غنجي ومشاكستي، اختلاط دمي وشكلي المجازي، فلا نعود ولا أعود ولا أستميل الرجل ثانيةً. ذاك الذي كان كالبدر التمام في ليالي وصالنا الغرامي.

كنت أردّد:

بمن أستعين عليه؟ وكيف كنت أتصوّر أنّ بمقدوره اقتناء نفّاثة حربيّة لكي يصلني حيث أكون. متفوّقًا كان بالمراقبة والرصد، متطوّرًا في فنون وتقنيّات المطاردة لما قد يدور في جمجمتي من خطط ومشاريع عبر بعض الأصحاب والصديقات. وكلّما تضاعفت المواجهة تعقيدًا ظهرت ذئبيّتنا معًا، فيبطل عنّي لقب العشيقة المعتبرة التي تتبادل ورَجُلها بعض المهمّات الطارئة قبل أن يتحوّل لحمي القديم إلى طبق بارد من الانتقام.

هو لا يعود إلى السرير بمفرده، يتضايق ويتململ ويُحبط، فكان عليه أن يؤدّي أدواره كاملة ويلقى على عاتق الجماعة بجميع مرجعيّاتها الذكوريّة والشرعيّة والقانونيّة، الباقي من الخصومات الجنسيّة والعاطفيّة والاجتماعيّة ، وتلك هي ذاتها نقاط ضعف وشقاءات معظم العلاقات الزوجيّة وما تبعثه من ضنى وأسى لنا نحن البشر.

إرادته فولاذيّة ومغامراته لا تحصى وشبقه لا ينفد، فتزوّج أربعًا ما عدا الفراطة. هذه سطور غير مخترعة أو متخيّلة، ولا أودّ أن يكون السرد هو الذي يتغلّب على الحكاية وهي غير قابلة للاندغام في رواية أو سيرة. فأنا لا أفضّل أن أكون في صفوف

الشخصيّات الفريدة لا في النوع ولا في الإدانة أو الوصاية. فلا الرجل ذاك هو مركز الثقل ولا هذه الذات بمقدورها ملاحقته كما يجب. وبالتالي لا أستطيع ضبط هذه الصفحات والفصول على مقاس أحدنا أو على مقاسنا نحن الاثنين، وهذا في الأصل ليس غرض تأليف الكتاب.

هي إحدى المحاولات في الذهاب إلى الأقصى من حياة لم تكتمل، ولم تكن لي وحدي، ولا هي كتابة عن اختبارات الهجر الذي عليك أن تحتمله وتندمج فيه بشكل غير سلبي، ولا يكون حكمك عليه نهائيًّا. إنّني لست واحدة في هذا الكتاب أو ذاك، ولا أنا هي التي يعرفها فلان أو علان. إنّني شخص آخر، أنا شخصيًّا لا أعرفه وأشعر بمتعة فريدة بالتعرّف إليها في أثناء جميع ما يحصل لي. هي كما أزعم إلقاء النفس في كائن آخر، ليس خاصًّا ولا أعرف ما ينتظرني من كتابة هذه التجربة وبهذه الطريقة التي تسعى لتبريد وإدارة المخاوف لكي أعجّل في وعيه واستيعابه وبالتالي غفرانه حتى لا أحشر أمام طبيعة بشريّتي وحيوانيّتي، وكلّها هشّة ومهزوزة. ولكن باستطاعتي، على الأقلّ، الإقرار بها لكي أدبّرها ذات اليمين وذات الشمال.

فلا الولع، ذاك المنهك الفتّاك الذي بيننا أصلح عيوبنا، ولا الفرار المدوّي منه جعلنا أكثر نفعيّة وربّما عدالةً لاختيار خاتمة أقلّ فجاجة ممّا توصّلنا إليه. وها أنّ حنقي كان ظاهرًا للعيان وصوتي الطافح بالحزن كان هو كلّ ما أملك، حين فتح لي الباب عبد الأمير الركابي فدخلت دارة نهلة الشهّال وبيدي رسالة القنصليّة العراقيّة.

بيت نهلة

لدى نهلة الشهّال قدرة استثنائيّة على معاينة وفحص الأشياء والمعضلات من جميع الجوانب. فتقيم حوارًا بينها وبين أيّة وثيقة أضعها بين يديها. كانت ثقتي بها وبطريقة تفكيرها ونزاهتها نهائيّة. ثلاث نساء في حياتي امتلكن هذه الثقة: بلقيس الراوي وهيلين سيكسو والشهّال. كان الحكم قد صدر من هناك لكنّني أنتظر من لسانها الفصيح مراجعة أو استثناء. كانت تشعرني ودون إرباك لرفقة الصداقة بأحاسيس أموميّة ورفاقيّة للفصل ما بين الصديق الذي أمامها، المأزوم المتورّط بخوفه وبين المحيطين به من أجل الشروع في ما ينبغي فعله. من الجائز أنّها تدرّبت على كلّ هذا عبر النشاط النضالي والحزبي والاجتماعي. ولعلّي هنا أدوّن ما ينبغي قوله بفصيح العبارة؛ في حضرة نهلة لا تنقب على جرح أو خطأ أو عيب عندي. أمامها أقدر على إعلان فشلي واحباطي وأمراضي أمامها. فلا تنشد التوبيخ ولا اللوم ولا إصدار الأحكام، وهذه مزيّة بعض الناس الجميلين الذين يرونك خارج جميع الذرائع. ساعة صار الخطاب بين يديها وهي تقرأ بإمعان وصعوبة ودائمًا حين كانت تهبّ لنجدتي وطوال إقامتي هنا، بقيت متابعتها أيّ موضوع إداري

لا تجعل منه تراجيديا كما كنت أفعل. لا تضع أيّة هالات حوله ولا مبالغات ولا تطَيب خاطري كوني متطيّرة ومتضرّرة في هذا الشأن أو غيره. بغتة تطلق ضحكة رحمانيّة شديدة اللطافة وهي تعلن:

ـ أنتم العراقيّون تغرمون بهذه الطريقة الفاجعة. نعم، الرجل يحبّك بالعنف العراقي المعهود نفسه منذ أيّام السبي، فلا يريد بعثرة وقته سدًى.

تصوّرت قولها نوعًا من التخفيف عنّي، لكن عبد الأمير، زوجها العراقي، يتدخّل أيضًا وهو يفكّك الخطاب بالمعنى الـ Parody للكلمة. يفصّص ويفليَ كلّ كلمة كأيّ أيديولوجي مدرّب تدريبًا عاليًا مستشهدًا بتداخل الأجناس، ليست الأدبيّة فقط:

ـ عال، هو استعان بأربعة محامين ومحاميّة. هذا يدع المضمون أشدّ غموضًا والحبكة أكثر حداثيّة، ها ما رأيك؟

كان يضحك بطريقة استفزازيّة لكي يفكّك كربي وحنقي وهو يضيف:

ـ يريد الرجل عودتك ولو على نقّالة. لم يشدّد على بيت الطاعة، هذا المعنى هو مجرّد عنوان لشيء آخر لم يدوّن في الخطاب؛ أنتِ...

عبد الأمير لم يستخدم أيّة رموز أو شيفرات أو تراكيب سياسيّة. نهلة وهو كانا يشدّدان على قابليّة قراءة طبقات وتأمّلات ومرجعيّات الرسالة بذات التراتبيّة لدرجات الغرام ما بين اثنين من العراقيّين، ربّما، لا يعرفان إلّا هذا النوع من الاشتباك الغرامي والهوان العراقي المميت.

تفاصيل الأسى

صرت في الشارع العام، أمشي ببطء في طريقي إلى شقّتي. كنت أبدو خاوية وخارج جنسي، مخدوعة وغير منقطعة عمّا تبثّه مخيّلتي وذاكرتي عن قوى عنف الحبّ، عن الجلدْ الذي نشتغل عليه كعشّاق ونحن نتلاطم أحدنا في كيان الآخر ووجوده. للتوّ بدا لي ذلك الرجل الفاتن الوسامة الذي سحرني بأريحيّته وتعدّديّته، وبسخاء فتتنه ولجمالي بجواره. هو عراقيّ الأب لبنانيّ الأمّ وأنا سوريّة الأمّ وعراقيّة الأب. خلطة وراثيّة وتاريخيّة وجغرافيّة من الجائز غير صالحة مطلقًا للاندماج والعمل، لكنّها عملت، ربّما، بقيت بدافع السأم أو النقمة. مثقّف موهوب مناضل وذكي بطريقة تربك وأحيانًا تعطب المقابل. فجأة، نتلاشى وتنقطع أنفاسنا على نحو كاريكاتوري. وصوت نهلة وهي تودّعني:

ـ لن يقدر على اللحاق بك وأنت هنا في بلد كفرنسا ولديك كارت الإقامة الرسمي...

لكنّه يقدر على الإقامة فيَ من دون أن يدرك إلى أين وصل في الحيّز والفضاء اللذين يحيطان بي، في انكفاء المخيّلة وازدواج

الأساليب، في انشطار القلب بين آليّات الأسى وهامش اليأس.

حسنًا، نقول في سرّنا عن الذي كنّا نغرم به، إلى هنا يكفي، إلى هذا القدر، أنا إلى اليوم لا أعلم ما قياس هذا القدر، بالصمت والسكوت والنسيان. بالانتقام أو الاعتذار؟ بالشائعات أو الأكاذيب، بالشطط وإيقاع الغير في الفخاخ الطويلة الأمد، بالأجيال أو بالأزمان الخياليّة. إلى هنا يكفي ماذا تعني، في العطل الرسميّة أو الدينيّة، في الأوضاع الصحّيّة أو في أثناء المرض. لا شيء يكفي البتّة، لا هذا القدر ولا ذاك. هو ادّعاء ماسخ بقيت خارجه حتى هذه اللحظة، أجل، ربّما لم ينته الأمر حتى لو عقدنا العزم على ترداد ذلك ليلِ نهار. لا نريد هذا الكسل في التعريف ولا التبسيط والاختزال في كتابة التدمير، وأنا لا أعرف لليوم ماذا كان يريد أحدنا من الآخر؟

يجب أن نعتاد كلّ الذي يتعلّق بالشروع في الترك؛ تغيير عادات النوم، الانتقال إلى حجرة ثانية، ثم إلى دولة مجاورة، فإلى قارّة بعيدة. . .

السرير الواحد يقدّم نفسه عدوًّا والبشرة الوضّاءة تتراجع وتتجعّد ولونها يصبح رصاصيًّا. هنا أيضًا أدخل طوابير الخائفين من نوع مغاير تمامًا. كيف سأدع رجلاً آخر يحلّ مكانه، وهل بمقدوري إخفاء عشقي لهذا الرجل، وأن أكون أو أغدو صالحة لغرام رجل آخر. كان عليّ أن لا أتحاشى الحديث في كلّ هذا ولكن مع من؟ هنا لا تعود المرأة تدرك إلّا أنّها تريد التأليف والتدوين. كان ذاك الرجل يطلق النار عليّ وأنا أستضيفه في كتاب أو رواية. الأوّل والثاني والثالث. لا أقتله ولا أبحث له عن دور

يليق به. نعم، أضعه في مكانه الصحيح. من الجائز أن تبدأ من هنا مسيرة تبديد بعض المخاوف، فأستطيع بالتدريج أن ألوذ بالتدريب وبأكثر من صوت، أحد هذه الأصوات ذو البشاشة الغراميّة، والثاني وأنا أنال البركة أخيرًا عندما أضع كلمة ـ انتهى. ولكن كلّ هذا غير دقيق وأنا أرى ترسيمة إ، ن، ت، ه، ى. هي ليست كلمة؛ سوف أسقطك من حسابي. لا ينبغي أن ننهي بهذه العبارات جميعًا. فالرجل لم يغادر بعد، كان ما يزال حيًّا وهو يجرفني في المكان ذاته ويسحبني للزمان التقريبي الذي كان. جيئة وذهابًا، كنسخة تدعى طبق الأصل فأمسك نسختي أنا، هل أنا الزائفة إذًا وليست تلك الكاتبة. هل أنا الملفّقة التي انطوت على كلّ ما أقدر على إخفائه لكي يبقى هو حاضرًا وغير مجهول. أمّا أنا المتنكّرة باسم الفنّ وكلّ هذا الانكباب على التأليف ما هو إلّا ابتكار طرق غير بديهيّة للتخلّص من الخوف عال. ها أنا أجهر بكلّ هذا والرجل قد غادر قبل شهور. وهذا الأمر مضجر جدًّا وشديد الوطأة. فها هو يعود ثانية، يتجمّع بين أصابعي مردّدًا أنّني أسير حسب نهجك ووفق خططك. ألم تتعبي بعد من التأليف والروايات. . . ها؟

السَيرة وخداعها

دائمًا تصوّرت أنّ بمقدوره الوصول إليّ ولو بطوربيد حربيّ. قلت له هذا في إحدى السنوات فأطلق ضحكة مجلجلة كعادته:

ـ اللعنة، لديك العيوب والأخطاء كلّها لكنّك لا تعوّضين جميع النساء اللواتي في حوزتي.

كنت أهجس أنّ من حسنات المستبدّ أنّه يدعنا نبتدع حرِّيّة جوّانيّة لا أحد يستطيع الوصول إليها أو تشويهها، وأنّ ما ندوّنه في كثير من الأحيان يبدو غامضًا ولا ننتبه إليه، فهو يشير إلينا نحن أيضًا وما أدخلناه من تأنيبات. نحن موجودون كذلك داخل هذه المنظومة من نظام أيديولوجي وقع علينا كعدوان وبطريق خفي حينًا وظاهر في أكثر الأحيان. ما كان بوسعي إلّا الانتباه لذلك ولو بعد مرور وقت طويل جدًّا. كنت أريد أمرًا واحدًا في هذا السرد، العثور على خوفي الفردي الذي قاومته لكي لا يتمكّن منّي ولكي يدعني أفصل ما بين العشيق والزوج. فقد كنّا نحتفل معًا بالحميميّة القاتلة، وهي عدّتنا الوحيدة لكي نقلّص مساحة الزوجين الفاشلين ونعلي فوحان المغرمَيْن اللطيفَيْن، فلم نحصل لا على الحصان ولا

على العربة. كلمات وزارة العدل في تلك البلاد ما زالت تدوي في أذني. لم تر غيري يتسرّب من بين أيدي أولياء الأمور الذين يرتابون بتاريخ القضاء والعدالة، ليس في بلدي فحسب وإنّما في الكرة الأرضيّة.

رنا إدريس قالت بعد قراءة فصل من هذا الكتاب نشر في ايلول ٢٠١١ في الـ «لوموند دبلوماتيك»:

ـ دوّني كلّ ذلك الخوف على شكل سيرة روائيّة، يوميّات، نصوص...

لا أميل كثيرًا لأيّ عنوان تدخل فيه كلمة السيرة. فهذه كلمة ما إن أسمعها تنطق من فم فلان أو غيره حتى أصغي لنوع من صفير يتجمّع في قاعات مغلقة ومن هناك يبدأ التغامز. ليست مهمّتي مضيعة الوقت في قول حذار أو اِنتبه رجاءً. إنّني أعمل بعدّة طرق: أحاول أن أطوّع السيرة داخلها أو جعلها موازية لما يحصل داخل النصّ الذي أجهل تمامًا ماذا يوجد داخله إلّا بالذهاب إلى أقصاه. دائمًا أهجس أنّ حيوات الآخرين هي التي اخترقت حياتي فصرت من أهلهم وعوائلهم. إنّني أنتهك أصول السيرة ولا أحرس أيّة تلميحات يمليها مزاح القارئ الخفي الذي أنتظره في كلّ صفحة وغالبًا سيحضر لأنّني أفكّر فيه أيضًا. فأنا أظنّ أنّ الرواية تحتوي على روابط مضادّة للموضوعات الكثيرة التي تحاول أن تثبتها السيرة كإحدى ثيماتها وليست الأساسيّة فقط. هذا كتاب حاولت أن أجعله يرتدي أزياء مختلفة ما بين السموكينغ والجلباب، أو ثياب رياضيّة يتآكل صاحبته الحنق إذا ما تفكّك خيط السيرة كثيرًا وخان العهد، أو انعقدت حبكة السرد الروائي واستدعت الكتابة بضمير

المتكلّم وليس بمعزل عن الضمير المرتاح حتى لو ظهر أنّ الثأر يجمع السيرة والسرد، أو الذكر والأنثى أو ذلك الرجل وهذه المرأة، وهي تداوي هنا وتجرح هناك. إنّ الكتابة تتطلّب اختراقًا فائقًا بين جلود الشخصيّات وأنزيمات ألسنة الرجال والنساء المتلعثمة التي ما إن نصادفها في أثناء التدوين حتى نخاف عليها الفرار نهائيًّا من بين أصابعنا.

صفحات وفصول هذا الكتاب ليست على مقاس أحد ما بعينيه، لا الرجل ولا المرأة، لا البلد ولا الاغتراب والترحّل، لا الخوف وحده الذي كاد يحقّق هدفه ولا ضدّه. وها أنا شكّاكة في جميع ما حصل من أحداث حقيقيّة وليس في ما دوّنت من سرديّات مخترعة. أزعم أنّ التأليف هو الذي أصلح وما زال حالي وحال صحّتي وتقويم تأتأة لساني الشخصي أفضل من جميع تجارب الحياة والمعيش اليومي المدجّج بالكثير من السفاسف والترّهات.

بيت الجحيم

لو بقيت في مدينة بغداد لهلكت في سنّ مبكرة. كان لديّ استعداد للهلاك، فلنقل التخصّص به، ولما كنت / كنّا في العموم كيافعات طائشات محاطات بنساء جدّ واقعيّات، جلفات القلوب، سمينات يرفعن حواجبهنّ دائمًا إلى أعلى وهنّ يشاهدنني متلبّسة بأمر لا أدري كيف لاحظن ذلك بصورة حرفيّة؛ اللاطاعة الخفيّة، كيف؟ كنت أقول نعم لكلّ طلب يُطلب منّي لكنّي لا أنفّذه.

كالضرائر كنّا نتعايش في ذلك البيت وكانت ترهقني حشود الأسرار التي يطلب منّي الاحتفاظ بها دون أن أنبس بكلمة. وأنا أتصارع مع الكلمات. كنت وما زلت أشتغل معها ممرّضة أو خادمة، لصّة أو مدبّرة منزل لكي أعثر على تلك التي أعرف دويّها في رأسي لكنّي لا أعثر عليها بين لساني؛ المفردة، المفردات عبء، أعباء بالكاد أعثر وسط كومة موائد اللغات على كلمة فالتة كالبتول مستعدّة ألّا تحتضر وهي تطبق على لساني. جدّتي لغتها قرآنيّة ولم تتعلّم غيرها وهي تستعملها بالنفخ والصلوات علينا حتى بليت. عمّتي توقّفت عند المتوسّطة، لكنّها كانت تفكّر بتجديدها

أو طلائها بشيء من العداونيّة الشعبيّة وهي تذرع البيت والطارمة الخارجيّة، ثم تصعد مهرولة إلى غرفتي في الطابق العلوي بحثًا عمّا يمكن أن أرزق به من سفاح المفردات التي تحبل بها اللغة العربيّة في الفعل والفاعل والمفعول به والنعت. أتوقّع الخوف ولا أمنعه فأبتسم وأنا أتصوّر حالي أنّني أجلس فوقه لكي أفقس بيوضًا غير مشكوك في نسبها. كان الخوف يبدو رجالاً ونساء، ذكورًا وإناثًا، خناثًا وحيوانات ونباتات وكلّهم وجدوا لخدمتي فيما إذا صدرت الأوامر بذلك. ففي عائلتي لم يكن هناك قادة غيره، لا زعماء ولا مناضلون عندنا، ولا أبطال ولا سياسيّون أيضًا. كان رجال الأهل مجرّد رجال عموميّين نلتقيهم في الشوارع الفرعيّة والأزقّة الضيّقة. إنّهم موظّفون بسطاء يمضون حياتهم بين الأزقّة والمرض والسكر. لم يدخلوا السجون ولم يرثوا الفروق الطبقيّة الحادّة. إنّهم عاديّون حتى ليبدوا متنكّرين من عموميّتهم الشديدة. هي العائلة نفسها التي تستمدّ علانيّتها بالخوف السرّي المجرّد الذي يملأ غرف الطابق الأرضي، غرفة المعيشة التي تعيش فيها العمّة والجدّة، والعلوي الذي كنت أشغله أنا وأخي. خوف لم يُسقط أيّ شيء من حسابه. إقامته حدّدت بين الأمتار ورموش العين، لكن لم تحدّد إقامته بزمن أو تاريخ معيّن فيظهر بجميع التجلّيات الممكن تصوّرها، في المدرسة والشارع وإلى ما كانت تسمّيه جدّتي الكنيف، الذي كان من النوع العتيق الأرضي برافعة وعمود من الحديد ينتهي بخزّان للماء ويتدلّى منه الزنجيل الحديدي المقرنص. لو كان بمقدور تلك السيّدة المباركة أن تتغوّط كالحيوانات ثم تدفن غائطها لكي لا

يراه أو يشمّه أحد، لفعلت. كانت الحشمة من خصالها الأساسيّة تغطّيها من رأسها المشدود بنوعين من القماش، الأوّل من الحرير اللمّاع على شكل مربّع تشدّه على جبينها وتتحكّم في نهايته بدبّوس به رأس ملوّن وكان على الأغلب اللون البنفسجي المفضّل لها. هذه القطعة الحريريّة تضبط قطعة ثانية من الململ القطني الرقيق والناعم الذي يغطّي ضفيرتين رفيعتين غزاهما الشيب مبكرًا جدًّا.

حين تتأخّر في الكنيف بسبب الإمساك الذي لازمها طوال حياتها، كنّا نخاف عليها ونحن نصغي لصوت الزنجيل ومتى سيسحب؟ وبسبب حساسيّتها وحيائها كانت تخرج وتمشي على أطراف أصابعها مارّة بالمجاز الضيّق إلى المطبخ ثم تخرج إلى الحديقة. ذلك النوع من الخوف كان وقتنا يتّسع له وكان عزيزًا على قلوبنا جميعًا. فقد كنّا نحبّها بطريقة تؤذينا كلّنا، هي ونحن. إنّ يتمي الفعلي القديم والحديث والذي لم يتراجع قيراطًا واحدًا منذ وفاتها وإلى الساعة، بقي عارمًا: آه، هي لم تعد موجودة ولن ألتقيها بمحض المصادفة. لقد أنجز موتها على جميع ما ترتّب عليّ من تبعات. فبعد العام ٦٦ من القرن المنقضي، شعرت أنّ بيتي وبلدي ما هما إلّا فضلة منها، وهما في طريقهما للتلف التامّ، وهذا ما حصل بالضبط. لم يخفت شغفها بأخي الذي يصغرني عامين، ليس أكثر منّي، بل من روحها هي. كانت تسمّيه:

ـ الولد الذي لا يتذمّر ولا يتأفّف مثلك، مثلكم كلّكم.

أقوم بدغدغتها في الخاصرة النحيلة جدًّا لكي تضحك فيهتزّ طاقم أسنانها وتبدأ في لعنتي بلغتها المحبّبة:

ـ أيّ تمام هو أحلى منك، بس أنت الوحيدة التي تجعلني أضحك. . .

أنا على الطرف المعاكس من ذلك. بيدي الحجارة وحسب المهمّات التي تواجهني أو تلقى عليّ من الغضب الجافّ أو التعرّض لأيّ نوع من أنواع العدوان أو التحرّش فأركض وراء صبي أو امرأة أو رجل أو من يتوعّدني وأنا أصيح بصوت عالٍ:

ـ ابن الـ. . .

كنت أشمّ رائحة خوفي تتصاعد من فتحتَيْ أنفي ومن لعابي الناشف واهتزاز عمودي الفقري. خُيّل إليّ أنّني بفضل الحجارة تلك، كنت ألاحق الخوف الذي كان قائمًا في علامات الطريق بين النساء والرجال، المعلّمات والخالات والعمّات، الأعمام ورجال الحيّ المتقشّف الذي أحيا وسطه، وفي المقدّمة أبي، البوليسي الأوّل الذي واجهته في حياتي، عمله الرسمي ـ بقيت حتى وفاته وأنا على أعتاب السادسة عشرة عازمة أن أدعه يحار في أمري. فأنا وديعة في البيت وضارية في الشارع، بجانب هذا وذاك بقيت أتمايل من ملاحتي الشحيحة قياسًا على أخي الوسيم جدًّا.

تهافت الأبوّة

كما أظنّ لم يختلف نسق خوف أبي عن أنساق خوفي. فخصائص الخوف متشابهة إلى حدّ كبير. وللخوف أعراض واحدة لما نعيشه وعشناه ولليوم. فلست في صدد تدوين تاريخ الخوف للوالدين والأولاد، ولا أعرف أبدًا هل هناك شعوب تخاف أكثر من غيرها. العرب، الأرمن، اليهود، الألمان أو... أو. أيضًا لا أعرف هل تخاف المرأة أكثر من الرجل أو العكس صحيح؟ حسنًا، ما عليك إذا ما كنت مطلوبًا إلى صفّه إلّا القيام بدور الخائف على أكمل وجه. فهو لا يفضّل الوجه المحايد أو الزائف، الموضوعي البارد. ولا يوافق على أن تكون نصف خائف، فهو يرصد مؤشّراته على كلّ عضو يشتبك فيه؛ القلب، الغدد، الجلد إلخ. في كثير من الأحيان، أتصوّره كالآلهة يستطيع رصد مكان وجودنا حتى ونحن نشكّ في وجودها ولا نتورّع على خداعها. لكنّه يُمسك بالتلابيب كافّة. الطريف أنّ هناك كائنات ولغات ودولاً وأجناسًا في طريقها للانقراض إلّا هذا الخوف.

لا أودّ أيضًا أن أقوم بمسح اجتماعي لسلالات الخوف

العربي. فأنا لم أتعرّف على ما يسمّى مركز الأب المجيد البطل والمغوار أو العادي، ولا نقول الطيّب، وهو كذلك بالفعل، لكنّ الفشل كان حليفنا نحن الاثنين. بقي أمامي أرضًا محروثة تمامًا بآليّات وسماد عمره الآف السنين. وكان مطلوبًا منّي التهام جميع ما تجود به هذه الأرض حتى لو كانت سمومًا. فالأجهزة الهضميّة اعتادت بلع الحصى ثم تفتيته. تلك كانت وجبات الجور العظيم الذي نتقاسمه بصمت أو صراخ، أو بين بين حتى يتمّ الوعي به.

لم أحمل أبي على محمل الجدّ إلّا بعد وفاته بسنين طويلة جدًّا. ومن جهة ثانية لم يمتدّ به العمر لكي يأخذني، ربّما قريبًا أو بعيدًا، لا أدري، من الضغينة التي كان يحملها للأنثى والأنوثة معًا. أظنّ أنّ الخوف من الأنثى جعل أبي أو زوجي يقترن بأربع. لم أشعر بيتمي بوالدي فما زلت اتملّص من أخذ العزاء ولو من نفسي وبأثر رجعي. تيتّمت بأمّي وأنا في الثالثة وما زلت أشكّ في موتها وهي لم تتعدّ الثلاثين، ولا أستطيع أن أشحن موتها بتعداد حماقات والدي فقط. فالموت المبكر لأحدهما أو لكليهما، دائمًا يحجب على الصغار فضائل الوالدين أو رذائلهما. أخذتْ وفيقة، جدّتي، مكان الاثنين، وتركنا لها أن تجدّد لنا قطن اللحاف والوسائد والكنبات، وتحوّل البروتين الحيواني لدينا إلى عضلات. كانت تهيمن على أشبار البيت وعلى الصيّاد الأصلي، الوالد، وما قام به من قنص وتعداد زيجاته إلخ. وكلّما تضاعفت واجبات أبي الغراميّة أصبحت وفيقة أكثر ضروريّة لترتيب أعشاش الإناث وصغارهنّ، إطعامهنّ وحظوتهنّ ومن لها الصدر، صدرها، ومن عليها البقاء في القنْ.

ثمار الخوف كنّا نقطفها ونخشى إذا بقيت طويلاً فوق الشجرة أن تتعفّن. بقيت تلك الجدّة خطّ دفاعنا ضدّ أيّ شيء يخطر ببالنا، كنت أتصوّر أنّها قادرة على العثور على جميع الحلول لجميع ما يمكن أن يواجهنا أو يواجه العوائل والأقارب، الجيران ورجال العوائل، فقد كانت تجهّز مبادئها من الحكمة والورع، ومن قراءتها للناس الذين يمرّون بين عينيها وهم يتحرّكون ما بين الضعف والقوّة. لم يخطر ببالنا يومًا، أنّ الوحيد الذي يمكن أن يستعيدها إليه هو الموت.

صفحات ضالّة

أتوقّف أمام عمّتي وأنا أختضّ فزعًا حين أراها في غرفتي الكائنة في الطابق العلوي لدى عودتي من المدرسة المتوسّطة. كانت هناك صفحات من الكرّاسة الطويلة ذات السطور المنتظمة والتي كنت أسجّل فيها بأسماء مستعارة بعضًا من نميمتهم ونفاقهم، ولعموم أفراد العائلة الأقرب والأبعد، ومن الجنسين. وجدتُ تلك الصفحات قد سُحقت وتناثرت على الأرض. عمّتي، كانت تضيق ذرعًا بالشخصيّات الضالّة والهائمة على وجهها والتي كنت أتربّص بها يوميًّا وأنا في الشارع أو البيت أو المدرسة. إنّني أدين لهذه الشخصيّات لأنّها كانت الأولى التي شاركتني في لذّة اللاطاعة وبدء الفتك بالرقيب الجوّاني. لم تتصنّع القسوة، فأنا أظنّ أنّها كانت مثلي تحلم بانتهاك المحرّمات، محرّماتي أنا وأوراقي الشخصيّة، كما انتهكت هي في يفاعتها الكثير من الممنوعات. كنت لا أحفظ الحدود الفاصلة بين المحرّم والخليع ولا أعرف قياسها. ترى أين تكمن حدود الغواية في اشتغال الجسد بعد فوضى الطفولة؟ وما هي الوسائل التي تجعلنا نحترم أجسادنا ونكتشفها دون الشعور بالتقزّز

أو الحرام؟ هل التعرّي هو مركز الإغراء مثلاً أم المنع هو محرّك الفجور؟ من يفتن أشدّ؟ الجسد المعروض بتحدٍّ، أم ذلك المحجوب وهو يحمل طاقة سلب اللبّ بوصفه قاهرًا لكنّه ممنوع؟ هل الخلاعة أشدّ نفعًا في تجلّيات مجتمع ما، لمضاعفة حيويّته في التقنيّات والعلوم؟ أي التقدّم؟ والمحرّم لا يحمل يافطة المثالي، الخَير، ولا النفعي، أي أنّه ضدّ التقدّم؟

ولماذا كلّ ما هو ممتع، إمّا ممنوع أو لا أخلاقي أي محرّم؟ والحال أنّ الأدب والثقافة الخلاعيّة كما تعلن عن نفسها في الوقت الراهن، مرتبطة بالحرمان الجنسي، وبفكرة الحظر والنهي المميّزة في حضارتنا، وبالطبع، ليس الأدب الخلاعي بظاهرة جديدة، وإنّما الجديد انتشاره، و«دمقرطته. وهذا نراه في أكثر المجتمعات طهرانيّة كالمجتمع الأميركي مثلاً، والذي تشكّل تجارة الجنس أعلى نسبة تبادل اقتصادي وتجاري قلّ نظيرها حتى تحوّل الفعل الجنسي إلى فعل تافه ومبرمج فتبدو الأجساد المعروضة رغم عريها متخلّفة ومهجورة». حسنًا، إنّ العري يخلّف النقصان نتيجة الحرمان، والتحريم لا محالة يوصل إلى رهاب العصاب في نهاية الشوط. والسؤال تُرى ماذا سيحصل لو رفضت النساء مرّة واحدة في أنحاء العالم تحويل أجسادهنّ للاستهلاك والتبادل والموضة والإشهار؟ ماذا سيحصل في اقتصاديّات السوق وبورصة المبادلات العملاقة والشركات المتعدّدة الرؤوس والجنسيّات؟

التلذّذ بالعنف

من الحماقة ردّ الظلم أو طلب الغوث من عمّتي. فمن الجائز أنّها تخاف أكثر منّي فهي متوالية من المخاوف... بغتة، وفي لحظة واحدة كان الجميع يتحوّل إلى شخص واحد لا يراه أحد لكنّه موجود كطاغية ـ هيرون ـ. فالغرف، غرفنا كلّها بدون مفاتيح، وأنا أشاهد كلماتي البسيطة تنال علانيّة بعض العاطفة. هناك من قرأها من بعدي، فليكن دون استئذان، لكنّه لم يحرمني أن أراه وهو لا يكتم خوفه منها.

منذ تلك الساعات ودون أيّ وعي مبرمج، أزعم أنّي كنت أدير ظهري لها، لهم، جميعهم، فأخذت كرّاستي بين ذراعي وأنا أعول. لم أصدّق أنّنا نمتلك كلّ هذا العنف والتلذّذ بأن يراه الآخر وبصورة تامّة، وهي تشاهدني أتمخّط وأمسح أنفي ودموعي بكمّ قميصي المدرسيّ. كانت مواردنا من الخوف كافية أن نوزّعها على رجال الدولة العراقيّة، وشبّان العوائل، ونسوان الجيران والأحواش المجاورة. لا أحد من جميع من أعرفهم كان يشعر بأيّ نوع من الاقتصاد في بذل هذا الخوف أو التقتير فيه. ربّما، هذا الخوف

يحوّلنا إلى طغاة، مهرّجين، قتلة، بهلوانيّين، أدعياء وقساة. . . و. . نعوت كثيرة تناسب الخائف. . . وله لغة باطنيّة وآليّات صاعقة أين منها أنظمة مخابرات الشرق والغرب. فنحن لا نعرف متى يصيبنا ولماذا كما يتوقّع رجل الاقتصاد بإفلاس هذا المصرف أو تلك الشركة.

لكن تلك الوضعيّات المتنافرة والمرعبة للخواف قد تدع بعض المواهب تزدهر بطريقة ما فيما إذا كانت التيلة مزدحمة بالشوائب وفي حاجة إلى دربة تشقّ النفس. وإذا ما تتبّعت خطوات سير دماء شخصيّات أعمالي واللواتي مررن في وجودي من الرجال والنساء، وهنّ يخلعن الثياب الخشنة والمحتشمة للخوّافين، ويقفن وجهًا لوجه أمام أنفسهنّ في حمّام السوق مثلاً الكائن في حيّ السفينة في منطقة الأعظميّة حيث كنّا نعيش. أظنّ من هناك بدأت رحلات صيدي الثمينة. فالحمّام على سبيل المثال ليس حيّزًا من الأشبار الحامية، إنّه قارّة نسويّة مليئة بالبلبلة واللاتوقّعات. فعبر الماء الساخن ورغوة الصابون كانت الأجساد تتّقد أمامي. فالجميع في ذلك الحيّز، كنّ يغرفن من ألاعيب سطوة الجسد، ودهشة الغرائز وحقوق إفشاء الأسرار. فالحمّام في الأخير مركز معلومات شديد الخصوصيّة. إنّه أخطر مديريّة للاستخبارات العامّة لعموم ما يجري في الشارع أو السجن، المستشفى أو الفراش الزوجي. فعبر الحمّام كانت تتمّ كتابة وثائق غير مدوّنة للتحكّم بمصائر الفتيات اللواتي كنّ على وشك البلوغ أو اللواتي يرعبهنّ لقب العانس. بالفعل، من هناك بدأ انقطاع نفَسي وبدأت تتشكّل فنون اللعب والتخييل والمكر، بين احتفالات الماء والأغذية والتبذّل. لم أكتب

عنهنّ عبر صبّ اللعنة لأنّ الحمّام يعكس نوعًا من الجحيم، لكن من ضرورة هندسة تلك الأجساد بطابع المرح واللطافة، فكلّما تبخّر عرق الأبدان كانت تشكّل مادّة حرِّيّة أمامي فأشاهد عن سابق تصميم وترصّد، أجسادًا تُبعث وأخرى على وشك الموت، فلا يبقى في الرأس إلّا الكلمات، ذلك هو العزاء الوحيد للكتابة. فاللواتي كنت أبصرهنّ وهنّ على وشك الرقص والطيران بين شقوق اللهب، كنّ غير حرّات تمامًا. فالحركات مصابة بالتشنّج والمفاصل تعاني من الروماتيزم، وتفوح من بعضهنّ رائحة الاسترجال الذي يمكن تسميته نوعًا من التمرّد أو كنّ خجلات أو هكذا يمثّلن دورًا للحصول على رضا الأمّهات والجدّات اللواتي كن يفرزن الجميع عبر الحسب والنسب، الثراء والاحتشام، وإمّا أنّهنّ كنّ يندفعن في «العلاقات الجنسيّة المثليّة» تعبيرًا عن رفض فظّ وميكانيكي للشهوة الجنسيّة لأزواجهنّ ومحاولة إيجاد حلّ بديل. فيصير الرجل هو المحرّم / التابو / الذي لا يقدرن على مخاطبته أو الاستجابة لغوايته أو ملامسته فيتحوّل إلى الجوهر الخصوصي، أي الحقيقة المستترة.

جسد الرجل

عندما أعود لذاك الحيّ وذاك الماضي، لعمّتي التي درّبتني على المشاكسة، فأخذتُ العزاء بها أفضل من أبي الذي كانت تناكده لأنّها يتيمة مثلي، حين أعود للنفتالين تبزغ رسميّة أمّ الأبر، ممرّضة الطرف والحيّ والملقّبة بالزانية. أدري أنّ الزنا أمر واقع بمعنى الماضي والحاضر والمستقبل، كون الله قد كتب على بني آدم حظّه من الزنا فهو محرّك ذلك لا محالة؛ «فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما السمع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطى والقلب يهوى ويتمنّى ويصدّق ذلك الفرج ويكذّبه، والسبب الأساسي لوقوع الزنا هو المرأة، ولولا حوّاء لم تخن أنثى زوجها أبد الدهر» أو «ما تركت بعدها فتنة أضرّ على الرجال من النساء». هكذا دوّن مسلم البخاري، وأبو داود النسائي الأحاديث الصحيحة.

فجسد الرجل هو أيضًا يشكّل قراءة لا متناهية في التعدّد والامتداد والبلبلة؛ فهو كذلك يحمل العنف والخطر حتى لو احتمى بالثياب الرسميّة أو زيّن صدره بالنياشين العسكريّة أو الثياب البيضاء

ذات الموديلات الأفغانيّة أو تلك التي تحيل لمرجعيّات دينيّة معيّنة. إنّه يحمل أيضًا شيفرة مختلفة عن شيفرة المرأة / التابو / ؛ فجسده يتحوّل إلى حيّز للصراع لأنّه يحمل أشكالاً معقّدة من صنوف الرغبة والتوتّر الجنسي، في العلاقات المثليّة أو تخنّث الرجال، الذي يقاوم بشدّة تصل أحيانًا إلى العصاب من قسوة الاستنكاف الاجتماعي، فنستطيع مشاهدة نماذج مصاغة من التضخّم الفحولي والاستيهامات القهريّة وصولاً إلى تشكيل ذلك الرعب من الإخصاء الموقّت أو الدائم، في آليات العجز الجنسي كما في رواية ـ التشهي على سبيل المثال. ويتجلّى ذلك في أشدّ حالات التعويض وأخطرها: امتلاك السلطة وتحويلها إلى نوع من الطغيان والاستبداد.

من هناك كنت أشاهد النسوة وهنّ ضمن حيّزين خطرين: الشوارع والبيوت. كنت وما زلت أقتفي أثرهنّ في جميع ما كتبت، وما أهجس بكتابته لاحقًا. فمن داخل تلك البيوت والحمّامات والشوارع الخلفيّة والعالم السفلي الذي كنت أراه ولا أستطيع تفاديه قطّ، فأمشي وراءه. في العاشرة كان بمقدوري الشغف بجميع أولئك اللواتي يتفاخرن بأرواحهنّ وأجسادهنّ، ذنوبهنّ وأسرارهنّ التي كنت أراها أبعد من جميع أنواع الكتابة، والتي أحاطتني بهذيانات جنونيّة لم أتخلّص منها بعد. ففي داخل البيوت البغداديّة كانت تقام القبولات، أي اللقاءات الشهريّة للنساء فقط. وعبر تلك الولائم كانت النسوة يتذوّقن سلطة الإغراء بينهنّ، وخارج مساحة العري والتحريم، الحمّام مثلاً، وداخل مساحة السحر الذي يهدّد الآخر، ليس الرجل هنا، وإنّما المرأة الأخرى، وعبر الثياب ذات

الحفيف الرقيق، الشديد الغواية، في الصاية المفتوحة وتحتها «الإتك» المزخرف بالدانتيل، أو ارتداء الهاشمي ذي الخيوط الذهبيّة أو الفضِّيّة إلخ. جميع ما كان يمرّ ومرّ وفي كلّ حيّز وشبر، كانت النسوة يبحثن عن شيء خفي غامض لا يعرفن ما هو، لكنّهنّ شغوفات بالاقتراب منه حتى لو كنّ يقتربن من الموت. وما دمنا لم نتوقّف عن ذلك يومًا حتى لو زلزلت الأرض ومن يقف فوقها، فقد بقينا إلى الساعة نسعى، مثلما كنّا دومًا، وراءها: الحرِّيّة.

جسد عمومي

لم يتركن فرصة إلّا وقمن بانتهاك سلطة الرجل. فالشارع طريق مواصلاته الذي يتفرّع إلى طرق أخرى شديدة الوعورة، والمرأة هناك مجرّد جسد عمومي. فإذا لم توافق على المباشرة معه فهي على الأقلّ قادرة على تشكيل أطر الاستيهامات بها فيفتن ويرتعب الرجل من الإغواء والخوف من اهتزاز إيمانه. فالمرأة تحمل تهديدًا دائمًا بابتعاد المؤمن عن العبادة والصلاة والشكر والحمد... هكذا نلاحظ في «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي.

من هناك كانت فراديسي الصغيرة الهشّة والضعيفة تنهب أمام عينيّ، فتحوّلت أنا بشخصي الفيزيائي إلى نصّي المعزول والممنوع. أنا المخطوطة التي اندحرت وقامت فحضرت من تلك المدينة المجنونة، بغداد، ومن الأعظميّة وأنا أدور في الطرقات باحثةً عن آنساتها الجميلات المقتولات كما في رواية «الغلامة». أمّا بيتنا الكائن في الصليخ فقد كان كلّه ليل، حتى ظهيرته مغطّاة بالعتمة، في بيت بين حجارته رطوبة دموع نصف قرن وأبخرة طلعت من أبداننا. نحن الأفراد القلائل الذين سكنوه، كنّا كلّنا

الليل، الأخ والأخت والعمّة: أمّا الجدّة وفيقة البيضاء المليحة التي أستطيع أن أسحب من بياضها حليبًا ولبنًا وملحًا وأعبّئ القناني. وفيقة الصبورة تلك كانت شمس الصليخ وحدها وحتى مغادرتها بقيت تنتظر بركات الأنبياء الوفيرين في بيتنا وهي تتعوّذ من نهم الأبالسة الذين كانوا يصولون ويجولون بيننا، فتنفخ في وجوهنا لكي يخصّنا صاحب الزمان بخصال طيّبة فتردّد بصوت خفيض:

ـ اللّهمّ حوالينا لا علينا.

سحر القتل

لم أستدر إلى وراء إلّا للمّ شمل أولئك المخلوقات العزيزة. فلم نكن عائلة متّحدة ولا مفكّكة، كنّا أشقياء فحسب، كلّنا دون استثناء ولأسباب متناقضة. وكانت الرواسب التي تتجمّع وتتبقّى من الخصومات والمشاجرات، من المخاوف والتكاذب، من اللوم والهناء، من الآثام والغفران. . . ما زلت أراها في قعر الأشياء والأرواح والبشر، قد يتصوّرها بعضهم أنّها تمثّل الجبن، وتبدو للآخرين كالفضيحة. أنا كنت أراها برق الحرِّيّة وعلى مساحة من الأرض والورق، بين صخب الدنيا وخضّات الطريق الذي لا يأخذ إلى أيّة جهة معلومة. فجأة، وأنا أهزّ القدح أرى مشروع دمي وهو ينسكب أمامي إلى غدد الحكاية، والشخصيّات يتفوّق بعضها على المؤلّفة وتتحقّق استحالة ذلك بدونهم.

لقد قتلت جميع أفراد أسرتي واحدًا بعد الآخر ولم أكفّ عن الانتحاب، فقد تكيّفت حياتي مع الأسى الشديد وأنا أشاهد حطام بيتي وهو يتفكّك حجرًا بعد حجر وطابقًا بعد طابق وفردًا بعد فرد كما حصل ويحصل مع بلدي بالضبط.

الحزن الذي لا قياس له على جدّتي بالدرجة الأولى، ثم على أمّي وعمّتي هو الموت تباعًا، والترك العجيب الذي كان يجعلني أصيح وأنا وحدي؛ إنّ جميع تلك الميتات المشرّفة بمعنى من المعاني هي التي أنقذت حياتي، فكلّما كنت أزيد الضغط على أبي في أيّ مخطوطة دوّنتها أو. . . تركته ينفش صدره كالطاووس وأنا أتقن نتفه ريشة بعد ريشة حتى تتطاير الريشات أمامي، وأرى اللحم العاري الأسمر وهو ينطوي على نفسه وعلى التباهي قليلاً، فأسمع العظام تصيح بي:

ـ كفى. . كفى. .

ما العمل بالموتى إذًا؟ هل نعيش على نفقتهم وذكراهم الطيّبة؟ هل يصلحون أن يكونوا غاية الكلام والتدوين؟ أيّ خيبة أمل إذا ما اكتشفت أنّ والدتي سهيلة أحمد كانت غير رحيمة على سبيل المثال. لقد أفلتت من بين يدي بالموت ولا يحقّ لي الحقد عليها بالفعل. فالموت يدع الذنوب مغفورة فنعود ونتكيّف مع جرأة القاتل التي علينا امتلاكها والتمتّع بها لكي نستحقّ، نحن وهم، اللعنات.

بـيت بلقيس

ظلّ دستويفسكي يعتقد أنّ الجمال ممكن أن ينقذ العالم. جدّتي كانت تخاف على أخي من أخطار الجمال فتتصوّر أنّه وسيم طوال اليوم والعام أو بمقدار عقد أو نحوه. هو في سنّ المراهقة ووسامته تساوي حمولة خمسة صبيان من الفتنة الملعونة فبقيت تنخرط في حالات من الصوم والابتهالات وطقوس دينيّة لكي لا يفترس جماله أحدًا، وبالدرجة الأولى نفسه. بالطبع لم تسمع جدّتي بذلك الكاتب الروسي العظيم، لكنّها تدري عن طريق الإيمان الذي لا يتزعزع أنّ الجمال أيضًا حين يستفحل بالمرء، ينكّل به فيحيل للمس والرعب. ومن باب الفكاهة لتخفيف ذلك الوقع على أصحاب البيت والجيران وجميع من نستقبلهم من ضيوف وبدون استثناء، كان عليهم البقاء خارج ذلك الجمال. فتغمغم بكلمات غير مفهومة حتى من أخي وكأنّها تريد أن ترهنه فيها، هكذا، خشية وورعًا لكي تحميه من أمور، نحن لا نعرف ما هي، لكنّها هي تعرف. وفي الغالب الجمال يهزم ما حوله ويتقدّم إلى لا مكان محدّد، ولا يتوجّه إلى أيّ أحد بعينه وفي مقدوره

البقاء مخيفًا حين يكون نهائيًا. أخي لم يفهم تمامًا ما يحصل، وللأمانة لم يكن يهتمّ بذلك، لأنّه لا يعرف. فأقوم أنا في الذود عنه. أتفاخر بالحسنْ وباللقب، وبفضله كانت أعباء سحنتي تبدو في حالة من الانفصام، نصفها يشتدّ اقتناعًا بأنّني أستحقّ ولو لفحة أو فضلة من جماله، والنصف الثاني؛ الإصرار عليّ إعادة اختراعي للأنا. لم يكن بوسعي تخيّل ولو ثلاثة في المئة سواء شئت أم أبيت، أن يستدعي لغز اللاجمال تلك الأذيّة التي أصابتني في أحد الأيّام. فبقيت أحاول استدعاء ذلك الجمال في عموم ما دوّنت، فاكتشافه موهبة في جميع ما حولنا، وأوّلها ذواتنا. ولذلك قدّمت في العام ١٩٩٣ شهادة بعنوان «مخلوقات الخوف في معهد العالم العربي»، وذكرت عرضًا. . . «إنّني كنت أتمايل من قلّة ملاحتي قياسًا باخي الوسيم» أجل، والخوف من اللاجمال، قلت إنّ هذا النعت أخفّ وطأة من غيره. شخصيًا لم تعنني هذه الاستعارات، ولم أستعجل في تفنيد جمالي بمعنى من المعاني أيضًا. عال، إنّ جذور التشاؤم والشكّ ما زالت تستقرّ في داخلي بنوع من التراجيديّة الكاريكاتوريّة، مضافًا لها مسحة من الفكاهة والهزء: فقد كان الأمر مسلّيًا أيضًا؛ اللاجمال يدعك مجهولاً، ولن تحظى بأيّ انتباه من الآخرين، فتعاود التحليق وحدك. هذه الوحدة قد تقودك إلى نفسك أو إلى الموت. أجل، آنسة يافعة تريد من الجمال أن يحضر لكي لا تبقى وحيدة، فتضمر سوء الفهم الذي لا يزول بسرعة بينها وبين نفسها. هذا هو الإيذاء القهري الذي كان يتسارع ولا أحد يقدر على التكتّم عنه. هو الذي واجهني في أحد الأيّام، وبعد أن تزوّجت وأنجبت وكان الوقت أوائل السبعينيّات، وكنّا نصَدر مجلّة

«الفكر المعاصر» الفصليّة في بيروت، وأعدّ أطروحتي للدراسات العليا في الجامعة اللبنانيّة بإشراف الدكتور نزار الزين. بيروت، كيف يحمي المرء نفسه منها إلّا بالانغمار والتلاطم وسطها، فكانت تدفع بعضنا للتوحّش والعدوانيّة، وبعضنا الآخر للانتحار والمغادرة.

الآلهة الأرضيّون

رجلان شاعران وسيمان، ملهمان، ضابطان عذاب الشعر وطاعة الجمال: نزار قبّاني ومحمود درويش. دعتني بلقيس الراوي إلى الغداء في شقّتها القريبة من شقّتي الكائنة في مفرق الكولا. كانت تمسك القيادة وبدون تشاوف فيجد جمالها نفسه متّخذًا وضعيّة الهناءة المطلقة لها ولمن حولها. إنّها تتقدّم به بعلمها التامّ فلا تطلب شهادة منشأ عن كرم الجمال، جمالها. آه أخاف، خفت في ذلك اليوم وكنت أعرف أسبابه لكنّني أيضًا اقتربت جدًّا من تجلّياته. لم أكن أفهم ما هو الجمال بالضبط، لكنّني كنت أعرف أمرًا بسيطًا، هو أنّني حالما ألتقي من سأُغرم به فذاك هو الجمال. تمامًا، رجل، قصيدة، شجرة، قطعة موسيقيّة إلخ. اليوم كيف أروي تلك الحادثة التي حصلت في بيت بلقيس الراوي وأمام كلّ ذلك الجمال الذي كنت محاطة به. كانت أمامنا أطباق طهو لا نظير له، وأنا أستنشق ضوع جمال يتراكم ويتصادم ويفلت من التدوين ويغلق عليّ الدائرة. كنت أحبّ واحترم الثلاثة. وأنا بينهم كنت أتعكّز على شيء غير مرئي، ربّما هو

الوحشة والعصيان معًا كما كنت وأنا في الشارع البغدادي، بيدي الحجارة أرمي بها المارّة ـ شو همْ ـ، إذًا، هل الجمال ينقذ ويفتح بابًا وراءه باب وباب كما اعتقد الكاتب الروسي؟ كان الخوف يعذّبني، وربّما ينقذني وقبل القبض على ما تبقّى منّي بسبب الملاحة الشحيحة.

على تلك الوتيرة، كنت أبلع اللقمات وأصغي لحواراتهم. ومنذ ذلك العام ١٩٧٣ وإلى اليوم وتلك الحادثة تكبر وتصغر. فالقلب هو الذي يقود إلى الجمال وليس العيون فقط.

كانت مجلّة «بيروت المساء» قد نشرت في الأسبوع ذاته تحقيقًا صحافيًّا عن بعض الكاتبات المغمورات اللواتي أصدرن كتابهنّ الأوّل. كنت بينهنّ حين صدرت مجموعتي القصصيّة الأولى «افتتاحيّة للضحك» عن دار العودة. كانت صورتي الفوتوغرافيّة تملأ رأس وفم نزار قبّاني فقال بصوت ساخر جدًّا:

ـ ما هذه الصورة المرعبة المختارة بجوار كلامك في مجلّة «بيروت المساء»، لقد ظهرتِ أشدّ قبحًا من بدر شاكر السيّاب.

أزعم، يومذاك، صرت داكنة صموتة لا أريد أحدًا أن يكون معي حتى الجمال. حينذاك، في غفلة عنهم كانت ملاحتي تتأسّس من نفسها ونوعها ولا تكون محلًّا للتداول. أعرف تلك الصورة المنشورة بالأسود والأبيض. هي حاضرة، ما زالت في أرشيفي الأدبي. ذكّرتني اليوم وأنا أدوّن هذه الأوراق بما كتبه جان جينيه قائلاً: «فإنّني أن أشيدِ بالمشبوهين والممسوخين فهم أنبل المجرمين الذين يعبدهم ضعفي».

حسنًا، على الجمال أن لا ينتظر طويلاً وأنا أنحني انحناءة خفيفة أمام الصحن. هادئة لكنّي أتأرجح ما بين النهوض والبقاء في مكاني حين أصغيت بغتة لصوت محمود درويش حين قال:

ـ لكن بدر شاكر السيّاب واحد من أجمل شعراء الأرض..

كسر الرقبة

في العام ١٩٩٣ دُعيت للمشاركة في احتفاليّة خاصّة ليوم الثامن من آذار في معهد العالم العربي مع سلوى بكر وليانة بدر، وقامت بتقديمنا إنعام كجه جي.

كانت القاعة شبه فارغة. فالوقت رمضان، والندوة قامت قبل الإفطار. الوقت كان طاردًا وسلبيًّا منذ البداية. حسنًا، راودت بعضهم هذه الفكرة، ربّما، من أجل استحصال بضعة أشبار من بين قدمي الرجل وذراعيه لإراحة سيقاننا المتورّمة من المشي المتواصل وأذرعنا من العناقات الطويلة التي كان علينا التدريب عليها في كلّ عام. حين وصلتني الدعوة من السيّدة فوزيّة زروالي قلت لحالي: وما دخلي في هذه الاستحقاقات؟ لكنّي وافقت وتضاحكنا أنا وهدى بركات عندما كنت أتلو شهادتي التي دوّنتها كنوع من البروفة. علق ببالي وأنا خارجة من شقّتها: من الجائز أنّ هذه الأيّام الاعتباريّة المقامة للنساء، وهي ثبتت منذ سنوات قليلة، ربّما، تعني اكتشاف بعض الأجزاء الحميميّة المنسيّة لدينا والتي لم يحملها الشريك على محمل الجدّ، في حواسّنا المضطربة التي لم

تشتغل لحسابنا الخاصّ فأخفقنا في استعمالها بصورة ناجزة أو ربّما، لم نُحسن تقدير مؤشّرات معيّنة في الشفاه أو الأرداف، أو تورّد الخدين اللذين لم نقم بوقفْهما على واحد فقط. رجل وحيد من بين ذلك الرهط الذي لا ينتهي من رجالات القرابة والنسابة أو أولئك الذين يشاركوننا في السرير. لامبالاة كانت تتنازعني وأنا أنتظر متفرّجًا معيّنًا، كنت على ثقة من الالتقاء به، فهو الهدف الوحيد من وجود هذا اليوم.

كان تقديمنا لطيفًا جدًّا. فكلّ واحدة منّا كانت في أحد الأيّام زوجة لاجئ سياسي. اليوم، وأنا أدوّن هذه الصفحات أبتسم بمشقّة وألاحظ أنّ هذه الصفة ـ لاجئ ـ، وسياسي تعادل إعلانًا مدفوع الأجر وغير جدير بالحماسة، على الأقلّ ما يخصّني. كانت شهادتي تحمل عنوانًا أليفًا إليّ: مخلوقات الخوف، وكنت الأخيرة. هكذا أخبرت إنعام. هي المرّة الثانية على ما أذكر التي ألقي فيها أمام الجمهور. الأولى في المغرب وفي مهرجان أدبي. ليانة وسلوى كانتا طلقتين فصيحتين وغير هيّابتين. فسّرت ذلك فيما بعد بنشاطهما السياسي والاجتماعي على العكس منّي تمامًا. صوتي في البدء جاء مهزوزًا كوشيعة من الخيوط المتشابكة، فكنت أحاول اللحاق بالأجزاء التي فككتها، متلعثمة حتى استقام قليلاً، وبدأت أصغي إليه. بغتة، شعرت أنّه فضلة من صوت عمّتي المبحوح ذي الطبقة المرتفعة والذبذبة النافرة. ذكّرني صوتي بحرب أهليّة بين شطري نفسي وعائلتي وبلدي، نصفه غير مشبعْ والنصف الثاني عليه المجابهة. وهناك من ذلك المسرح كنت أريد أن أظفر ولو بشبر واحد من بلدي على الأرجح وقبل أن يسدل الستار. فأنا

أوصيت نفسي قبل الصعود إلى المسرح: اهدئي يا فلانة لن تلاحقك الضواري إلى هنا، وما هؤلاء الجالسون في القاعة إلّا بعض الأصحاب وكثير من الوجوه لا أعرفها، ومن الجائز أنّهم سوف يصدّقونك، من يدري؟ فأنا واحدة من مخلوقات ذلك الخوف الذي ما زلت أقفز الحواجز حاجزًا بعد آخر وبلذّة طاغية لتفكيك آليّاته. لا أحد منّا لاحظ كسرًا ما، خلعًا في الحوض أو الكتف، أمّا تلك الرقبة الطويلة والرفيعة، رقبتي، فكنت ألففها في جميع الأحوال والمناخات بشالات، بعقود ثخينة لكي أزيدها غلظة. تصوّرتها بشعة وقد تجرح عيون المارّة فلم أصغ يومًا لجميع أبيات الشعر العربي في مديح الرقاب الطويلة للإناث اللطيفات العاديّات والنحيلات. يجوز، تبادر إلى ذهني أنّ الرقبة النحيفة والرفيعة جدًّا قد يتمّ كسرها بمنتهى السهولة وأنّ هذا النوع من الكسر المجازي كان يلائمني ويدعني أخترع حبكات ومشاهد للعمليّة. كان فعل كسر يزداد اتّساعًا وغورًا على الخصوص في الشأن الغرامي أو ما يخصّ مدوّنة الأحوال المدنيّة، وبالتالي فراش الزوجيّة والعمل الحزبي، السياسي والنضالي حتى. كنت أسمع في أيّام اليفاعة أنّ أحدهم قد كُسرت رقبته، أو: ها، قدرتْ على كسر رقبتها وارتحت.

حوارات كالذخائر غير آيلة للاندثار تتردّد بين رجلين أو مجموعة رجال. كلّ كلمة بها كسر ما، تليه رقبة أو رقاب كان يقرّبني ويضعني أمام قنْ الدجاج والديوك. هذا ليس وصفًا فكاهيًّا، فبقدر ما كنت أرفض الاستعانة بمنظار يقرّبني للقنْ ذاك، كنت أحاول تعديل هندسته لكي أسمح لهبوط طائرة، أو بناء حوض

سباحة على سبيل الظرف. فالنزلاء سوف يتوافدون، وعلينا أن نحسب حساب راحتهم. كانت الثقافة الشفاهيّة تمتلك مرجعيّاتها في الترميز ولديها أدواتها في الغمز واللمز في شبكات مخيفة تلتفّ علينا كلّنا دون استثناء، وتقوم بمصّ الدماء وإضاءة المكبوت والتابو، إن لم يكن كله، فأكثره صميميّة وضنى. كنّا معًا: الخوّافين من ـ والخائفين على ـ في مواجهة يوميّة. لم نذق الحرمان من الخوف في أيّة عمليّة كانت تقام وتجري فيما بيننا، ولم يساورنا الظنّ أنّنا سنفوز أو هم يتوقّفون عنّا. كانت الأمور والأحوال تستحقّ حقًّا القيام بالتدريب كما الجندي في الثكنات. ففي أثناء المعارك والتحصينات كنّا نشعر أنّ الحياة تستأهل أن تُكسر لنا ضلع أو يرضّ لنا قلب أو تُخلع لنا كتف. بالتأكيد تستأهل. الخوف هو ذاك الذي كان يخصّنا بالحظوة. نتناوله أكثر من الوجبات المقرّرة وتقريبًا نتحلّى به أيضًا. الخوف شيء حقيقي، مثير، بديهي، متحوّل، متنوّع وملتبس، لا يهجرنا في أثناء التحصيل العلمي أو الوصال الجسدي ولا يمتلئ أبدًا، والجميع كان يريد أن يؤسّس لنفسه مرجعيّته في تجربة العيش في الخوف. فالخائف جدًّا لديه طبقة أدنى منه تخاف أكثر منه. وكان الجميع يمتلك أدوات أرصاديّة غالبًا لا تخطئ. عندما نضع الخائف على الخصوص في ميزان التجربة / القرار / الواجب والقيم.. إلخ يبدو الأمر مثيرًا للفزع. إذ يفصح الخائف ويقول: أجل، أنا هكذا، تمامًا، خوفي متعدّد المصادر، لكنّي لا أقدرْ، لا أقوى على الخروج منه.

بشقّ الأنفس أحاول رصده واعتراض سيره عن طريق الكتابة

وكنت أدري أنّ هذا التأليف ما هو إلّا رمشة عين في ليل الخائف الطويل. فلا أحد يخرج من الخوف إلّا بالمرور به إلى آخر خصلة في شعرك. هكذا، تُغمس في حوض الأسيد فلا يعود أحد بقادر على تدبير الدسائس لك. فقد سددت جميع التكاليف ودخلت الكثير من المخاطر ولم يعد يعنيك إن كنت في الخارج أو داخل تلك المؤسّسة. فقد أدرت عمليّات وأسهم خوفي باستقلاليّة أمين المصرف فصرت أمتلك إرثًا أستشار حوله، ولم أصل لليوم إلى شيء آخر. أعني ليس هو اللاخوف أيضًا. هو أمر آخر يرتبط بالرفض، بالمفاهيم والإكراهات الاجتماعيّة والسياسيّة بمرجعيّات: العائلة، الأحزاب الحاكمة، الدين، الغرب والشرق.. إلخ.

كنت أحاول أن أكون مقاتلة بالمعنى الحرفي وليس المجازي للخوف، خوفي، أو على الأقلّ أن أدعه مجرّد أقلّيّة لن تصل إلى سدّة الحكم. سمعت تصفيقًا لطيفًا، بلى، شُبّه لي أنّه يقوى. كانت ڤكتوريا نعمان وابنتها نهلة الشهّال تجلسان في الصفّ الأمامي. في مكان قصي كانت هدى بركات وجوزف سماحة وفاروق مردم بك وصبحي الحديدي... ما زالت كلمة سماحة ترن في أذني قالها لمن حوله ... وبعد أيام تعرفت إليه في بيت نهلة الشهال ونالت «النفتالين» رضا فاروق مردم بك فتمت ترجمتها وصدرت بعد عامين.

بيت القانون الفرنسي

نهلةِ الشهّال لا تحبّ أيّ نوع من أنواع المديح. يتورّد خدّاها وتغيّر الموضوع فتردّد بلهجة عراقيّة مطعّمة باللبنانيّة:

ـ يا معوّذة... خلّينا نشتغل على إكمال الملفّ...

بدون جلبة أو منّة كرّست جزءًا مهمًّا من وقتها الثمين وروحها الرحمانيّة للبدء برحلة، رحلات إلى جهتين أساسيّتين وخطرتين لأيّ وافد عربي جديد لديه إقامة أصوليّة ولو لفترة عام: الأوضاع الاجتماعيّة التي تشمل شؤون الصحّة كافّة والضرائب. كنت أنتبه انتباهًا من نوع آخر ونحن ندخل إدارة فرنسيّة ونخرج من أخرى كمن يشاهد فيلمًا سينمائيًّا. كان الأمر يرتبط بمفاهيم الجمهوريّة الفرنسيّة، هل تقبل أو ترفض أن تمنحني العون لأنّني بلا عمل في الوقت الحاضر، والحجّة وبلا تأويل:

ـ آه، بالطبع ستبحث عن عمل ملائم فهي كاتبة وصحافيّة وهذا يتطلّب بعض الوقت، وسوف تحاول تعلّم اللغة الفرنسيّة بالطبع.

كانت نهلة تتوصّل إلى اللسان الفرنسي الأصلي ليس بلغتها

الفرنسيّة ذات الطلاقة التامّة والتهذيب الأصوليّين، إنّما بطريقة تفكيرها التي تحاول ومن جانبها أيضًا كعالمة اجتماع وكاتبة، مناضلة وصحافيّة تفكيك تلك الآليات التي صُنعت لنا كأجانب، خطًّا وهميًّا أو حقيقيًّا ما بين المواجهة والفرار في أكثر الأحيان. لا قوانين رحيمة طيّبة أو شرّيرة، بل هناك قانون وهذه هي القاعدة أوّلاً، وإذا ما واجهنا ظلمًا ما فما علينا إلّا أن نحمله بأذرعنا ونواجهه بصدورنا، فنعبر به من ضفّة الموظّفة المسؤولة إلى غرفة المسؤولة الأعلى.

لقد جهّزنا الملفّ ثلاث مرّات لكنّ الموظّفة كان تردّ:

ـ آسفة مدام.. لقد فُقِد...

نهلة لم تنسحب قطّ. أتصوّر أنّ المواجهة بالقانون هو جزء من الفضائل التي تتمتّع بها، وكنت أتعلّم في حضرتها؛ كيف تلطّف المناخ في تلك الإدارات الرطبة، المعتمة التي تجعلني أبدو شخصًا غير مشكوك في وجوده بسبب جميع هذه الوثائق التي تتضاعف يومًا بعد آخر.

خصوبة الأوراق

يومذاك علمت أنّ هناك شعوبًا تستمتع بلذّة تكديس الأوراق. لديها عواطف مشبوبة علانيّة وفصيحة بالإصغاء إلى ما يقول المتن والهامش. تواريخ الميلاد المضبوطة باليوم والشهر والعام، ونحن هناك لا نجيد هذا بصورة مضبوطة، ومن الجائز أن تكون الأسباب الكسل في التدوين ولكن أهمّها الجهل في تحمّل هذه المسؤوليّة التي تترتّب عليها مخاطر شتّى. أنا واحدة من جيل تمّ التلاعب في عدم ضبط اليوم والشهر والعام الميلادي وما هو مدوّن حصل نتيجة لما ذكرت. أسماء وتواريخ الوالدين ووالديهم وأسماء أجداد أجدادهم وتواريخهم. ما هذا؟ إنّني لم أر جدّي لوالدي أو والدتي إلّا عبر التصاوير المعلّقة في الصالون. هو عالم يبدّد الأعوام والحقب بسماجة، وهنا يتمهّلون أمام الثواني. يشغفون بكنوز العائلة الواحدة، وماذا حلّ بالزوج المعذّب والزوجة الفارّة. الأوراق مسألة حياة أو موت وهي منبع فكر وحضارة التدوين وتسجيل التأريخ، وإخضاع الموتى لصيرورة الأحياء. ردّت نهلة على بعض أسئلة الموظّفة قائلة:

ـ تمامًا، والدها ووالدتها غادرا هذه الدنيا قبل سنوات طويلة.

جدًّا. الوالد دفن في بغداد، والوالدة في حلب، وهي لا تتذكّر اسم جدّتها لأمّها، نسيت، النسيان. لماذا لا تصدّقين أنّنا قد لا نرى أو نتعرّف على أجدادنا ولا على أسمائهم وألقابهم ووظائفهم، إلى متى عاشوا، ومتى غادروا الدنيا... و.

ـ عال، فلتكتب تعهّدًا على نفسها يتضمّن جميع هذه المعلومات. لا تقفز على هذه أو تلك. تعهّد أنّها غير مطلّقة بعد، وأنّها لا تعرف أسماء أجدادها وأجداد من خلّفها، وأسلافها جميعًا. تعهّد أنّها تعيش بمفردها بلا عائلة، بلا زوج، بلا ابن، بلا عشيق... بلا وبلا... وأنّها ستظهر أمامنا وتنال ما يمنحها القانون الفرنسي من... ومن... هذا إذا وافقت الإدارة...

حياة المرء بالضبط هي رزمة من الأوراق، المعلومات، الخانات التي علينا تعبئتها، الجداول التي سنضرب بها رؤوسنا بالجدار إذا كان أحدها خطأ، أرقام طمغات، أختام، طوابع ثم التواقيع. هذه الأخيرة هي التي ستخرجنا من كفن الخوف إلى فسحة من فسح هذه الدنيا الجديدة.

ملفّ الضمانات لا يجوز خلطه بملفّ آخر. بمعنى أنّ هذا الملفّ يتطلّب أوراق الكهرباء والهاتف، الضريبة، البنك، حجّة البيت أو وثيقة الإيجار إلخ. لكن هذا ليس هو ذاته في تحضير ملفّ الضريبة مثلاً. كلّ ملف يحتاج إلى تحضير طويل، وهنا تعلّمت الحسنة الثانية من وجودي كأجنبيّة، هو الاستنساخ. كان عليّ تصوير كلّ ورقة مهما كانت ضئيلة الأهمّيّة في نظري، فربّما، ستظهر ضرورتها المزدوجة في يوم ما، ولا ندري متى وكيف، ربّما في حالات الضياع، فهي ستبقى حجّة ضدّ من يدّعي من الطرف الفرنسي فيما إذا أحدهم تورّط بالكذب.

مصابيح كافكا

كان كافكا هو الذي يتجوّل بين لسانينا، وأنا ونهلة، ونحن جالستان على مصاطب خشبيّة في انتظار أن يأتي دورنا. بقيت لليوم أفكار وحياة ذلك الكاتب أراها كمصباح وعلامة عن حشود تلك العقبات ممّا يطلق عليه: سوء التفاهم، أو في أفضل الأحوال الفهم الذي لم أقدر على تذليله، والذي يُطرح على عيش الأجانب حين تطأ قدما الأجنبي أرضًا غير أرض بلده، وإلى أن يقضي بعيدًا عن تلك البلاد. تفاصيل قلّ نظيرها، لكنْ بالمقابل هناك بلدان أكثر قساوة وتعنّتًا من هذه أو تلك. أمور وأحداث هائلة بعضها لم أبرأ منه لليوم، ولا يسعني نسيانه بالتمام، ولا أدري هل أغفلت بعضها، تلك الأكثر فجاجة، فهذه وتلك تحلّ وتعود للظهور فأرتمي في رهاب الليل الباريسي، وأنا أعرف أنّ الخوف يحضر في موعده، مضبوطًا كقطارات اليابان. البعض من هؤلاء الموظّفين والموظّفات يرتاح لهذا النوع من اللاتفاهم، فنراه ينتقل إلى الخطوة التالية في الكلام، في حركة الفم بالذات، ولغة الجسد التي لا تغشّ قطّ، فيقفون طويلاً في مرحلة العجرفة والغطرسة والنظر بنوع من الدونيّة. لا يجوز أن يتآكلني الغيظ فيما إذا ما وُضعت ما بين

الصالح والطالح فقط. فكلّ واحد منّا لديه مرجعيّاته ودرجة ما من العنصريّة. ونحن كعرب عنصريّون نستخدم الأدوات نفسها حتى لو كانت في غير محلّها، لكنّها توصلنا لأغراض أخرى. هذه وغيرها من الأفكار لم تغادرني لكنّها ليست ضدّ أحد ما بعينه، فلم أقض وقتي في ترتيب أوليّاتها. لقد حضرت من الطرف الآخر من العالم، مكان آخر، كنت فيه سيّدة نفسي ومصيري وقراراتي. ولكن بأثمان ما زلت أدفع تبعاتها لليوم فهجرته، فلماذا لا أتمتّع بالصبر والأريحيّة والنيّة الحسنة، وأنا أشاهد ملفي الشخصي وهو يتنقل من يد إلى يد، من مكان إلى آخر. ندفع بابًا ويصدّنا باب، فنضع الأوراق بعضها فوق بعض حتى يتراءى لي أنّها على وشك أن تكون كملفّات فيلم «المحاكمة». ولكنّ الويل لي إذا وصلني خطاب مكتوب بخطّ اليد وفيه بعض الشروحات. فقد كان عليّ الوقوف بباب العمارة وانتظار دانييل، جارتي، مضيفة الطائرة التي حفظت مواعيد أسفارها وعودتها. كلّ رسالة من هذا النوع كانت عذابًا شاقًّا لي. بعض الحروف مدغمة بما يجاورها، بعضها طائرة في حاجة لأرض سهلة لكي تنزل بسلام حتى أتلقّفها، أمّا المضامين للرسائل المطبوعة على الآلة الكاتبة أو بخطّ اليد فلا علاقة لها بمعرفة اللغة الفرنسيّة فقط، وإنّما بطريقة التفكير للكائن الغربي. ففي أحد الأيّام تورّطنا، وقلنا نعم في إحدى الخانات وكان يجب القول لا فتمّ عقابي بحجب راتبي المقرّر لفترة شهرين لحين شرح الأحوال بعيدًا عن التأويل. إنّنا نفكّر، ربّما أنّ هناك بعض الأسرار المتعذّر فهمها تمامًا، فيزداد الأمر تعقيدًا «منذ اكتشاف الدالّ. فعوض أن نقوم بتأويل اللغة، فإنّ اللغة هي التي راحت تؤوّلنا، وتؤوّل ذاتها».

بشاشة الخوف

ولكن لا يجوز أن يعلو صوتك، أو تصيبك المضايقة. تمامًا، إنّني أجهل القوانين وليست الوصفة سهلة بالنسبة لي؛ هؤلاء القوم يوطّدون نظام الجمهوريّة وما عليّ إلّا احترامهم من أجل ذلك وها أنا كمواطنة أجنبيّة أبذل جهدًا خارقًا لكي لا يبدو خوفي في الأوج على قسمات وجهي، وجفاف فمي بل في موضع آخر، في ركبتيّ أو ساقيّ، في اختضاض صدري أو بشاشتي الكاذبة. ونهلة بصوت متمهّل ورزين:

ـ مدام للمرّة الثالثة يُفقد الملفّ. فنحضّر ملفًّا جديدًا، هذه هي المرّة الأخيرة. . . و.

هنا احتدّ صوتها قليلاً. كانت عيناها الزرقاوان في أنصع بريقهما. لونها الأبيض المشوب باللون الزهري تضاعف توهّجه. أجل، لن أخاف وهي معي. تفكّر فيما تعمل، وسوف تنال وأنا معها ما حضرنا من أجله. صحيح أنّني لست في بلدي ولا هي أيضًا رغم جنسيّتها الفرنسيّة لكنّها أضافت، وهذه المرّة وجّهت صوتها الخفيض إليّ:

ـ أظنّ أنّهم هذه المرّة سيعثرون على الملفّ والحلّ. . .

كانت تواجه تلك الموظّفة التي كانت تتغيّر خلال الشهور الطويلة ونحن نقوم بتحضير الملفّ الجديد فيختفي، بالطبع، ليس بسبب البيروقراطيّة في المؤسّسة الفرنسيّة التي هيمنت على شعوب المنطقة وقامت بالانتداب والرعاية لها أو استعمارها وإنّما لأسباب اقتصاديّة ووجيهة أيضًا. كنت أحاول فهم عموم ما يدور حولي بدون أن تنسلّ اللغة الفرنسيّة من طرف لساني. فنهلة كانت موضع تقدير ورضى، على العكس منّي؛ إنّني متطفّلة وسوف أكلّف الدولة والنظام؛ الملح والخبز والدواء. لا يكفي أن تفهم هذه الموظّفة فئة دمي وما أهوى وأحبّ. كانت نظراتها تقشّرني كالبصلة كما تلك الصيدلانيّة والخبّازة، والجارة التي تعيش في العمارة التي أسكن فيها. كلّ فرد في العمارة ألتقيه كان يصوّب نظرات ما بين اللاراحة من شيء ما، لا أعرف عنوانه حتى الساعة، وهذه الموظّفة، تبصرني هكذا، بين واجبها المهني، وتلك المرتبة الأقلّ التي تجعلني أدرك إدراكًا شبه تامّ أنّها تتمنّنْ عليّ. هي تريد أن أقوم بواجب التصفيق لما قامت به وهذا في رأيي حقّ، حقّها. إنّها بمعنى خفي تشرح هويّتي، ومن الجائز، هكذا شعرت في أوقات كثيرة، أنّني اقتطعت أجزاء من مدّخراتها أو مؤونتها وستمنح لي. . . لنا كأجانب. ربّما، هذا ما كنت أقوله لنفسي كأجنبيّة عابرة سبيل وقارّات، وبيوت، وحكايات، وإذا حدث أيّ خطأ، أخطاء قد أقع فيها، فلن أعثر على التسامح. هنا، وكما يبدو، طمأنني الخوف على مستقبلي في هذه الجمهوريّة. هو خوف لا يستعار من الكتب والأفلام، من اللوحات والمسارح. في باريس، إزاء جميع

تلك الملفّات الضخمة التي انتهت خيرًا وأخيرًا، جعلت من رخصة الخوف تسرف في قدرتها على الاستحقاق في العالم الجديد، وكان كلّ هذا الذي يجري لي بدءًا بهذين الملفّين وهو واحد من مراسيم الفرص التي كانت بانتظاري، وللتدريب على ذكاء الخوف في الغرب. أجل، صرت شخصًا آخر بفضل خوفي من الأوراق وبالتالي اللغة، خوف كنت أحمله تحت إبطي، وحين أستحي من ثقله أدفعه لجيوب سروالي أو لكسوة الشتاء والصيف، وأظنّ هو الذي قرّر أخيرًا قائلاً بصوت صريح وناجز تمامًا: لقد أزفّ الوقت لتعليمي دروسًا عامّة، وخاصّة أن يكون الإصغاء لهؤلاء القوم مائة مرّة أكثر من التحدّث.

بيت اللغة

على نحو ما كنت أركّب الجملة الفرنسيّة، ذلك النحو الذي ينسجم في ذهني مع ذلك الذي كوّنته وأريد الإفصاح عنه، لكنّني أُحبط بعد عدّة خطوات في ذاك الطريق. فبعد كلّ حصّة في تعلّم اللغة الفرنسيّة، كنت أشعر أنّني أعود من مصحّ عصبي، وأنّ مرضي يتفاقم، والصحّة، صحّتي اللغويّة، حتى لو حضرت فتحضر وأنا في غرفة العناية المركّزة بالمستشفى الحكومي توضع على جبيني وعينَيْ الكمّادات المثلجة مع كلّ تصريف فعل من أفعال الماضي أو المضارع أو المستقبل، وكأنّ الأفعال قطع من الألماس مكوّمة في الفضاء، فما إن تمدّ تلك المعلّمة يدها ونحن في أحد الصفوف التي دخلتها، وما أكثرها، حتى تقبض عليها من دون موانع. لا شيء يعرقل المعلّمات الفرنسيّات من إعلان الانتصار على سائر الطلبة. معظم المعلّمات اللواتي قمن بتدريسي، بلغت براعتهنّ حدّ السحر، لكنّها كانت بالنسبة لي ذكرى، وذكريات موجعة في ليّ شفتَيّ واعوجاج لساني لكي يتمّ التلفّظ بالصورة المضبوطة. كنت أقابل كلّ نصيحة بالتقدير الشديد، ولكن بالنسيان الأشدّ. هنا من هذه البقعة اللغويّة كان الخوف قد استوطن طاقتي، ولّد وفقّس ولم

يكن عقيمًا قطّ. بدأ لي على شكل دبّوس حالما أبدأ بالتلفّظ حتى يشكّني في أوّل لمسة من الشفتين ثم يواصل نازلاً وقد تحوّل إلى كومة من الدبابيس تحت لساني ذاهبًا إلى لهاتي، فإلى الحبال الصوتيّة نازلاً إلى إبطيّ وذراعيّ، فتبدو المفردات التي أودّ ترتيبها في جمل بسيطة قابلة للألم بضربة واحدة، من رأس المعلّمة وفمها:

ـ أعيدي هنا، لا، هنا في تصريف فعل المستقبل القريب أو الماضي التامّ، أو...

كنت بارعة في التقاط المعاني وأنا أشاهد صيغ الأفعال وهي تتقافز أمامي، وأنا أدخل سريري ليلاً، فأسرد المشاهد وحدي، أعيد لفظ الفعل وأمدّ يدي لكي أسحبه إلى فمي وأنا أفتح له ذراعي في الاستقبال والوداع المهيبين. فهو فعل مستقبلي وما عليّ إلّا تبجيلة بما يستحقّ من حفاوة. في البداية، شأني شأن أيّ أجنبي، وهذا ما يوافق عليه أحد مديري شؤون اللاجئين السيّد غوتيريس. وأنا لست لاجئة: «إنّ عامل اللغة يسهّل ظروف اللجوء. يجب أن أقول أيضًا إنّي ألاحظ دائمًا في مجموعة اللاجئين إرادة قويّة للتكيّف والاستقرار من ضمنها التواصل حيث يقيمون. هم مصمّمون على اكتساب اللغة واكتشافها». صحيح هذا الكلام؛ التصميم لديّ كان فاعلاً وقد امتدّ فترة حتى تمّ هرسه مرّة واحدة عندما وصلني تهديد بصفة ـ ناشز ـ من وزارة العدل العراقيّة في منتصف التسعينيّات من القرن الماضي. كان وبقي هذا الأمر وحشًا ناريًّا يطاردني فانتقل ما بين مقاطعة ويلز ومدينة لندن وأعود لمامًا لفرنسا. تلك جذور أو أحد جذور ذلك الخوف من المواصلة أو الدوام الأصولي للتعلّم. لست مهاجرة ولا منفيّة لكنّ اللغة في هذا

الشأن لها جاذبيّة مهولة لكي تسمح للأجنبيّة مثلي أن ترى وتلمس وتشعر أنّ ما حوله حقيقي فعلاً. لكنّني، في تلك الأوقات، تصوّرت بما أنّني كائنة عراقيّة فقد أُحشر وأُزجّ بطريقة من الطرق ويُعاد بي إلى هناك، فأنا أعرف عموم روايات التعذيب وما يدور في الغرف السرِّيّة. كانت القصص تلك تزيح جانبًا كبيرًا من سلّم أولويّاتي الذاتيّة، تلك التي تخصّ تعلّم اللغة الفرنسيّة فعافتها روحي ووضعتها جانبًا. وكان عليّ في تلك الأوقات القاتمة أن أشرح بعضًا من هذا وأمام هيلين سيكسو، عندما كنت أزورها في أحد الأيّام. بادرتني قائلة وهي تضحك:

ـ أنت الكاتبة الأجنبيّة الوحيدة التي نشأت بيني وبينها صداقة ثمينة وهي لا تقرأ لي إلّا عبر التراجم، وأنا لا أفضّل ذلك أبدًا.

وأنا أيضًا لا أفضّله.

كانت حسرتي تتفاقم ونحن، أنا وهيلين، نتبادل الزيارات. ففي إحدى المرّات وبعد بضعة أعوام على تعارفنا خرجت عن طورها المزاجي الرزين والكيّس. احتدّ صوتها قليلاً وهي تجيبني عن سؤالي عن مسرحيّتها القادمة، ومتى ستعرض إلخ:

ـ ولماذا تسألينني عن مسرحيّتي الجديدة؟ لو تعرفين الفرنسيّة لقرأت أخبار المسرح وأخباري في الصحافة... و.

وقتذاك شعرت أنّ لساني العربي طلع من جوفي وصار أمامها، وضعته هيلين على تختة اللحم تقطع وترمي به خارج العالم واللغات. كنت لا أنظر إليها وأنا أردّد بصوت خفيض وكأنّني أتحدّث مع نفسي:

ـ وأنت أيضًا ماذا تعرفين عنّي وعن آليّات حياتي في فرنسا؟

ماذا تعرفين عن شيطان الأوراق والمعاملات والانتظارات والأمراض؟ ماذا تعرفين عن تهديد الزوج بطلبي لبيت الطاعة؟ هل لديكم في ديانتك اليهوديّة بيت للطاعة؟ وهم يحاولون إعادتي إلى الزوج، وإن تعذّر ذلك فليكسر أنفي وليُمرّغ بالحضيض. لماذا عليّ أن أتعلّم الفرنسيّة وهي ليست من أوّليّات وجودي هنا، فقد اختطف بطريقة ما تنفيذًا لقرار وزارة العدل. لم أخبرك بكلّ هذا لأنّ ذلك يخجل. من الجائز أنّ كلّ هذا لن يحصل قطّ لكنّني أعيش تحت ثقله النفسي العنيف.

واصلت وأنا أرفع رأسي أمامها:

ـ أشعر أنّ لغتي العربيّة هي حصني الأخير الذي أملك ضدًّا للزوج ومؤسّسة الزواج، ووزارة العدل، والدولة العراقيّة كلّها، ضدًّا لجميع لغات العالم. فهي التي تجعلني أرى عظمي مكسوًّا باللحم. هل تعلمين أنّني لا أملك نقودًا لعلاج أسناني فكيف تريدين تعلّم لغة جديدة بفكّ يزداد اعوجاجًا، وأسنان على وشك التساقط ولثّة تنزف باستمرار. ومع كلّ هذا، أحاول لكنّي أفشل بسبب عزلتي. فمع من أتحدّث الفرنسيّة يا ترى؟

فجأة، كانت اللغة الفرنسيّة تقتصّ منّي من خلال كلام هيلين، أغلى صديقة في حياتي التي واصلت إرسال كتبها الفرنسيّة الصادرة تباعًا إليّ بإهداءات خارقة للعادة وكلّها تحثّ على التعلّم لكي أقرأها. فتصوّرتها هي واللغة تتربّصان بي. فكل من حولي يحاول زجري وطلب طردي خارج فردوس باريس بسبب اللغة.

يتيمة اللغات

بدا لي التشبّث باللغة العربيّة هو الآخر نوعًا من المرض. فهي الثانية لم تقم بسدّ حاجتي وشهيّتي وتلذّذي بالمعرفة اللغويّة. كنت أجلب لغتي وأصرخ ببنائها وموجوداتها الراسخة الوطيدة الأركان وأحاول أن أفتح لها الشبابيك والأبواب، الآذان والأفواه، المتعة واللهو، اللعب والرطوبة، العمق والحنان. فقد خشيت أن تبدو لغتي العربيّة هزيلة بعدما مرّت عليها الفظاعات والأهوال، فحاولت أن أسجّل عبرها ما وصلنا إليه من انحطاط، على أمل ألّا تمرّ اللغة بهذا الانحطاط... إلخ. لكن مخاوفي بقيت في حالة من التلاطم والاستفزاز، وعلى جناح السرعة تدوّي في جمجمتي، ربّما لدى عموم الأجانب؛ حالة من الارتياب بتلك اللغة والشكّ بهذه. ومن الجائز المضي أبعد قليلاً؛ أن يدفع الخوف لاستخدام أسلوب القسوة الفاجرة في التدوين، فما إن يتمّ الضغط على المرء في بلاد الغرب، على قلبه أو جبينه، حتى تصير العربيّة أو غيرها من اللغات وحدها التي تكهرب الدماغ وتلسع اللسان وبها تقدر أن تدافع عن حقيقتك الأزليّة. بدا لي ما يلقّب بقانون الاندماج نوعًا من الأذى الجسدي والروحي لي شخصيًّا. بعضنا غير قادر على الاندماج مع

النفس تمامًا، ولا مع الرجل الذي نغرم به ولا مع الكثير من الفعاليّات الوجوديّة من حولنا فأراه لا يتحقّق ولا أعرف نسبة نجاحه للذين خضعوا له.

الدورات اللغويّة عادة، وفي مدارس البلديّة تستغرق، دورة كاملة ستّة أشهر ضمنها عطل الأعياد الوطنيّة والدينيّة. هي عادة ذات أجور زهيدة، زادت اليوم على الضعفَيْن، لكن حرفيّتها في مرحلة نهاية التسعينيّات كانت منخفضة جدًّا. اليوم، حين عدت إليها بدت لي جيّدة. أمّا المعاهد ذات الأسماء العريقة مثل الأليناس، المعهد الكاثوليكي، المعهد البروتستاني، ولو كانت هناك معاهد لطوائف دينيّة أخرى لمررت بها أيضًا، فأجورها مرتفعة، على الأقلّ بالنسبة لي. معهد الصحفيّين الأجانب جيّد ومجّاني، لكن صفوفه في الطابق الأرضي فيثير لديّ نوبات من السعال والعطاس بسبب الحساسيّة، ويشوّش على عينيّ بمرض الضغط المزمن. ولي مع كلّ معهد حكاية طريفة. فربّما، أدوّن كتابًا ثانيًا عن المعاهد، لمَ لا؟ اليوم حين أخوض في بعضها وأستخرج الكتب والكرّاسات، أقلام الرصاص، المماحي، البرّايات. الحقائب الخاصّة الصغيرة بجلدها الأسود الناشف لوضع عدّة الأقلام، والكبيرة لحمل الكتب، أفطن إلى أنّ جميع أستاذات هذا المعهد رفضن بطريقة أوجعتني استخدام قلم الرصاص والممحاة، وأنا كنت أتحصّن بهما حصانة لا مثيل لها بسبب الأخطاء المتوالية التي تصادفني. كنّ يلححن على استخدام قلم الحبر أو الماجك بطريقة تثير الحنق لديّ. فكنت أقوم بالاحتيال الكبير، على الخصوص في الامتحانات النهائيّة، وهي المشي بقلم الحبر فوق قلم الرصاص حين أتأكّد من الجمل ومادّة الإنشاء،

وبالتالي أمسح الزوائد ممّا ظهر هنا وهناك على أطراف الجمل والورق. فماذا يحصل وكيف تبدو تلك العمليّة وأنا أتصفح الأسئلة وأنظر إلى الساعة بيدي صفحات مسخمة وملطّمة ولن تستطيع الأستاذة قراءتها قطّ. ورقة الامتحان هذه هي ذاتها تصير على غرار رسالة وزارة العدل التي وصلتني قبل أعوام. ها أنا أعيد شحن عدّادها على خصومي كلّهم: الزوج ووزير العدل، وأقلام الحبر الزرقاء والسوداء والمعلّمات كلّهنّ. هذه صفحة امتحان ناشز باللغات أيضًا تشقّ رأسي ورئتيّ وتسحب منّي الهواء فأختنق وأسعل سعالاً شديدًا. وبهدوء خرافي أضع ورقة الامتحان في وسط الكرّاسة، أجمع حاجياتي وأتحرّك من مكاني في طريقي لباب الصفّ. أمشي للكافتيريا الخاصّة بالمعهد بالطابق الأرضي. خلال الصباح وبالذات مع بدء الامتحانات الفصليّة تكون شبه خالية، فاليوم جميع المعلّمات يكشّرن عن أقلامهنّ الحبر لأداء الفريضة ووضع العلامات السوداء والحمراء...

نزلت قهوتي بالحليب من الجهاز الآلي. جلست في مكان قريب من الباب. كان هناك طالب وحيد كوري أو صيني أمامه اللاب توب. فتحت حقيبتي وبدأت أشاهد: كتاب تصريف الأفعال ذو الجلد الأحمر السميك الذي يوحي بخطر الفعل، لا أستثني فعلاً قطّ. والكتاب المقرّر لهذه الدورة أو تلك، وللفقر اللغوي كان يتقرّر مستوى الكتاب. كنت أقتني كلّ شيء، وكانت شهوتي ترتّب كلّ هذا العتاد الحربي وتضعه في المرتبة الأولى. كنت أموت شغفًا للتعلّم فهو عمل سخي، حميمي وكان يتضاعف اعتزازي به كلّما رسبت في الصفّ الفلاني. حسنًا، إنّني أحاول الخروج من خلف الكواليس والظهور على المسرح بعد قليل أو بعد سنين. لديّ الوقت الطويل

لهذا ولغيره حتى لو قيل لي إنّي ما زلت من الكومبارس لكن دورك سيأتي أيضًا. كنت قد مشّطت وبالمعنى الحرفي للتمشيط العسكري، مدارس البلديّة في الحيّ الخامس عشر حيث أسكن. بقيت أختار دروس فترة ما بعد الظهر فأنا شغوفة بالنوم في الضحى. فيما بعد اكتشفت ألغاز ركاكة دروس ما بعد الظهر عمومًا؛ إنّ جميع مدارس اللغة، أيّة لغة في العالم، ربّما، تكون في أخصب حالاتها المزاجيّة والعقليّة والنفسيّة، ما بين التاسعة صباحًا حتى الواحدة بعد الظهر. فترة الصباح لديّ هي مركز الخطر والمزاج الراكد، والعتمة الروحيّة، والتهديد باللافهم أو الاستيعاب المناسب. فكنت في تمام الساعة الثانية بعد الظهر بكامل هندامي. بيدي الحقيبة كأيّة امرأة أعمال عصريّة، ترقب العرض والطلب، وتنتظر هبوب بعض الأرباح. ولكي لا أفسد زهو الأمبراطوريّة اللغويّة لفرنسا، أبدأ بترك المدرسة الأولى الخاصّة بالبلديّة بعد مرور الشهر الأوّل. فالمعلّمة سيّدة متقاعدة عبوسة السحنة، لكنّها طيّبة، وماذا أفعل بهذه الخصلة إذا كانت السيّدة غير حرفيّة في التعليم. كنت أتعلّم ببطء شديد وأنسى بسرعة البرق، وما بين البطء والسرعة كانت فتنة باريس قاتلة فأنا مشّاءة من طراز جيّد. أخترق شوارعها وحدائقها وبدون عدّة لغويّة مناسبة، فأحضر معارضها التشكيليّة وحفلاتها الموسيقيّة حين تدعوني كاترين لامب السويديّة. إذًا، فلا هذا المكان يخصّني تمامًا، ولا تلك البلاد أنتمي إليها أيضًا. كان هناك متّسع من الوقت بالبحث عن مكان ما داخل هذا المكان، لا يخلّف عندي كلّ هذه الأضرار، ولا أضطرّ لطلب كلّ هذه النجدة من الصديقات والأصدقاء، يبدو، ولو على مضض، أنّه مكاني وسقفي. شبر أو أقلّ ولكن أين؟

السمكة والحوض اليابس

كنت أبدو وأنا أترك هذا المعهد لغيره مثل مخطوطة في طور الكتابة. فكلّ من يشاهدني أو يعلّمني أو يشتبه في أمري أو في هويّتي، أو في سحنتي. . . فتتضاعف الإضافات والملاحق حتى لم تعد المخطوطة صالحة للنشر، ولا هي تشبهني بمعنى من المعاني. كان أدرنو يقول: «الأوطان موقّتة على الدوام». ربّما أكثر من هذا. لكنّ اللغة، أيّة لغة تفتح ثلمة في جدار وبناء الآخر، وأنا أودّ بإخلاص الاقتراب من هذا الآخر. فكنت أشعر بشيء من التشوّهات الحقيقيّة التي تتكفّل بها اللغة إن كانت كيت أو كذا وكأنّني أحيا بين إقصاء صوتي الأنثوي والإنساني، ضمن صمتي اللغوي؛ العجز عن التحدّث بطلاقة أو أو. . . كما لو كنت أعيش حيفًا أو قهرًا ما بين اللغتين. ففي بلدي كنت أوصم بالجانحة التي تستبيح اللغة، المرجعيّة، الجماعة، والحزب. . . وها أنا هنا أتصرّف وأدوّن بحرّيّة تسمح لي بإطلاق وتحريك ذلك القدح الأوّلي ورجّه لكي يؤشّر على الأحداث والدماء والمظالم الأولى والمتوالية. كنت أقف وجهًا لوجه ما بين الوعي التامّ، أنّ عليّ أن

أؤلّف (بصرف النظر عن المستوى الإبداعي). هذا هو الرهان، أو المقاومة الوحيدة التي في حوزتي. أمّا ذلك اللاوعي العيادي فكأنّني كنت أتوسّل كلّ وسيلة لفصم عرى اللغة الفرنسيّة وإزاحتها جانبًا كسلطة مركزيّة أعيش تحت سطوتها وآفة فتنتها. وعندما كنت أسأل بعض من حملة الدكتوراه أسئلة محدّدة، كتابة رسالة ما، أو أصغي جيّدًا إلى محادثاتهم، كان هذا البعض يبدو لي محتالاً بارعًا. فبعضهم لا يتقن كتابة رسالة إداريّة بسيطة أو شكوى طبّيّة مستعجلة لأحد المستشفيات كاد يسمّمني. إذًا ما هي شروط اللغة فيما بيننا نحن الذين يسمّوننا المغتربين أو المقتلعين أو... لسنا كتلة واحدة قطّ، هنالك أولئك القادمون من الشمال الأفريقي أو من سوريا ولبنان. أمّا الذين قدموا من آسيا فيقال إنّهم يحملون جذل الحضارة العظيم والحاجة إلى اللغة الجديدة ليس شديد البأس لديهم.

هل كان المطلوب منّي قتل اللغة، لغتي تمامًا، والقتل لدى بعض الشعوب ومن أجل سطوتها أو تعاليها هو غاية في ذاته. أنا المشرقيّة، الآسيويّة، والعراقيّة السوريّة الآتية من بين بين، البداوة والصحراء، المدينة المرتجلة الواقعة هي أيضًا ما بين الريف المزيّف والريف المتمدّن، فالتصدّعات التي عاشتها تلك المدن التي خلّفتها وتركتها ورائي كانت تشبه فضلات اللغات جميعًا. وعندما وصلت بيروت في السبعينيّات، كانت الصدمة الثقافيّة الأولى، وكان عليّ الانفلات من ذلك الانشداد المرضي للخروج من حدود الإقليم. ومدينة مثل بيروت بدت لي، قبل الحرب الأهليّة، على الأقلّ، أنّ عليّ تعلّم لغتها هي أيضًا. فهي تمتلك من

التهريج والخطر والقساوة ما يجعلني لا أعرف من أين أبدأ. ينبغي أن أكون في بقعة الدفاع أو رفض الأوامر. فهي لا تعرفني وأنا هشّة ورخوة. وهي لا تعرف إحلال السلام بينك وبينها. تعلّم لغتها أحقيقيّة كانت أم مفبركة. أخرج عن النصّ وكن هادئًا، أمّا التحضّر فقد يحتاج إلى سنين ضوئيّة. ياه، كم على المرء أن يتعلّم من لغات، وعلى المرأة العربيّة، القليلة الحيلة، القاصرة، السلبيّة، الماكرة والخبيثة، هكذا يحلو اليوم وصفها وأكثر من هذه الصفات، عليها تعلّم لغات الرجل الواحد، الشريك، الفحل، البطولي، الفذّ والذي لا يعوّض. فأين تلتفت يصيح البعض عليك:

ـ هيّا أدخل السيستم وإلّا فالويل لك.

تمامًا، كنت أشعر بطريقة جد خفيّة بأنّني مخلوقة من جنسين تامّين أعيش وأتنفّس بهما. أقرّر وأغضب، أتحمّل وأصبر. الرجل والمرأة يتحرّكان ويقتحمان عمقي الوجودي. فكنت ألاحظ أنّ أحد الجنسين كان يطفو فوق السطح أكثر من الجنس الثاني ويكون قابلاً للاقتحام وأخذ زمام المبادرات في بعض القرارات المصيريّة أو الإبداعيّة أو الغراميّة، فكنت لا أودّ التنازل التامّ أمام أيّ جنس يتلاطم في داخلي. وبسبب الهزء الذي أواجه به الأحداث، كنت أستسيغ وبمكر أن أضع على كاهل الرجل داخلي مسؤوليّة جميع قراراتي الفاشلة وأستدعي للأنثى أغلب النجاحات أو اللطافات التي تذوّقتها في حياتي. هذه هي شبكة من خرائط الطريق وسيولات التقلّب والتحوّل وازدواجيّة اللسان ما بين المغادرة من لغتك إلى المواظبة على تغيير مجرى لغتك بالدرجة الأولى. إنّ المشكلة هي في سطوة تحكم العربيّة في الاختراق والتلفّظ، في

التجريد والدوران حول ذاتها وحولي، وليس في اللغة الفرنسيّة أو اللغات الأجنبيّة.

حين أصل المدرسة الفلانيّة كنت أُمتحن بالطبع. وقبل أن يسألني المشرف على توزيع الطلبة كنت لا أحتفظ ببراءة اختراع أيّة كلمة جديدة أو عتيقة إلّا:

ـ صفر، إنّني صفر...

وما إن أكمل بيني وبين حالي حتى أبدأ بتعداد فضائل الصفر كما جاء في الكتب: «حين نعود إلى تأسيس مدينة بغداد الذي كان يوم ٢٣ يوليو عام ٧٦٢ في الساعة الواحدة و٥٧ دقيقة بعد الظهر. والمصادفة اليوم حسب التقويم الزرادشتي ألفيّة المرّيخ والتي تنذر بالثبور. عَمَد «ما شاء الله» رئيس الفلكين لدى المنصور، إلى «اعتبار الصفر يوم تأسيس بغداد، وبدءًا من الصفر تحسب أيّام الماضي والمستقبل».

قبل الاحتلال الأميركي للعراق، كنت أمزح مع نفسي وأقول: كم نحن بحاجة إلى سقراط عراقي يتمشّى في الأسواق والشوارع، يسير هائمًا حول دجلة ويهَدي الناس، ويتحدّث عن منافع السمّ حين لا يكون هناك إلّا هذا الخيار. بعد العام ٢٠٠٣ صار السمّ هو الترياق الوحيد. لا يوجد صفر طيّب، أو هناك صفر أفضل من صفر. كنت أشعر أنّ الصفر قد تلطّف معي والسمّ إن حصلت عليه في يوم من الأيّام فسيعطي حياتي لذّة مضاعفة. وهكذا كان صفر بغداد يتلاقى مع صفر رولان بارت: في كتابه الأثير «في الدرجة الصفر من الكتابة»، وهما يعلّمانني الرقص ومراسيم تناول السمّ في

أيّام قادمة. هكذا كنت مثقلة بالأصفار والسموم وأنا أتحرّك ما بين الجادّة والباص، المترو ورجل البوليس، المستشفى ودور السينما، ومعهد العالم العربي أو المصري أو معهد ثقافات العالم إلخ. وحسب رغبتي المطلقة كنت أعود ثانية إلى الصفّ الأوّل والثاني مردّدة دائمًا: الأوّل غير مزيّف، والتالي ربّه عالٍ، فأطلق الضحكات حين أعود للبيت. وإذا اقتضى الحال فكلّ ما موجود في جوهر اللغة موجود أو يفضي إلى حبكة اللغة ولغزها. فبرج بابل بقي يمتلك القدرة على تسريع المسيرة في مشاهدة برج إيڤل. وما بين البرجين، كنت أبدو محظيّة معتبرة تصدّعت تمامًا وتجسّدت هزيمة يفاعتها في بغداد وتضاعفت بهجة شيخوختها في باريس. صحيح أنّني أكتب بالعربيّة وأغرم بالعربيّة وأعاشر بها أيضًا. وأنا أحضر شخصيّات رواياتي وتصرّفاتها ولا أبدّدها سدى. باريس برحابتها وعالميّتها تدفعني للاشتغال على تدريب كائنات رواياتي على فعل الحرّيّة. فكلّ ما في هذه المدينة يأخذني للحرّيّة فأغرق بها رجالي ونسائي العصاميّات الكادحات اللواتي جرّبت فيهنّ الكثير من الخطوات والتجارب، وعلّمتهنّ كيف يخرجنّ ألسنتهن للعالم ويمشين في طريق الحرّيّة بدون تردّد حتى لو أخذ بعضهنّ للقتل أو الخسارة أو الجنون. أو أتركهنّ يتحدّثن اللغات الأجنبيّة وبطلاقة. فلم تفقد إحداهنّ رشدها كما حصل معي. فبعضهنّ أشدّ جسارة وأقلّ خوفًا من المؤلّفة، فواظبت على التعلّم منهنّ جميعًا ولو لتذوّق الحرّيّة مرّات، ولو عبر التدوين والتخييل؛ فهي تعدي، وتباغت المرء بالمزايا التي يمتلكها ربّما دون علمه. ففي باريس بالذات، دوّنت معظم رواياتي. كانت الفصول تبدأ من رأسي

فأشعر أنّ هناك حمولة من الديناميت سوف تفتك بي وبجسمي. أرى الشظايا أمامي وهي تحبّ الظهور والتملّك، كما أرى اللغة. الأسلوب يلسعني ويبرق في وجهي ومن حولي. في كثير من الأحيان، كنت أرى صفحات كاملة كتبت بطريقة ما، موجودة فجائيّة تتجوّل وتريد القبض عليها، وما أن أحاول ذلك في الكرّاسة التي أضعها بجوار رأسي وأبدأ بالتدوين. ألهث وأتعجّب وأنا أتابع الكلمات والسطور، وما أن أهمّ بقول شكرًا وكأنّني في حالة صلاة، أرى الصفحة فارغة تمامًا، لا تحضر، كأنّها تخلّصت منّي بطريقة من الطرق لكي لا نتخاصم أو نتقاتل. هكذا تغفر الكلمات لمؤلّفها وتعفو عنه في كثير من الأوقات الحاسمة، كما نحن نحاول تعلّم اللغات الجديدة حين تلوم المفردة تلك أو هذه، عندما لا نضعها في الموقع الصحيح من الجملة. هذه هي فتنة الكتابة، وسحر التعلّم، لا أجزم. في هذه المدينة التي تجعلني يوميًّا أشعر أنّ حمولتي من المعارف والاختيارات الحرّة تتضاعف، وصنع القرارات المصيريّة حتى لو كانت غير صائبة لم يتوقّف ولم ينفد. فهنا شعرت أنّ أنوثتي لذيذة، وأنّ الأنوثة رحلات طويلة من السعدْ. فهي سمحت لنضجي أن يمرّ بجميع المراحل والأطوار بهدوء وعمق وبلا تسرّع. كنت أستمهل في تفكيك اللحظات وأتلمّظها قطرة وراء قطرة وألاحق الثواني كالضواري لكي لا تفلت سدى فالعمر في الحرّيّة تتضاعف حمولته وربّما يكهرب كلّ من يمسّه بسوء.

«دائمًا نصل إلى حيث ينتظروننا»

كان نفير الفرنسيّة يصلني وهو يقهقه في أذني، فأريد أن أستوفي حقّه في السرد لكي أنتهي من هذه المهمّة ولكن لا أنتهي. فالعلاقة التعاقديّة مع اللغة تتراجع حتى مع لغتنا الأمّ، فهي لم تساعدني أيضًا وأنا أنقلها من الفكّ العلوي وأنزل بها إلى الدرك الأسفل. لم أقدر على الإمساك بها جيّدًا لدى وضعها بيني وبين الرجل الذي أغرم به على سبيل المثال. فقد كانت لا تعمل بوتيرة مناسبة. لم يحدث أن قلت أحبّك. وكانت هي المفردة الدقيقة أو الصحيحة. دائمًا كان هناك النقص، فلا يلتقطها الآخر إلّا ضمن النظام القائم المبني على نفوذ نظام المرجعيّات، ومراقبة اللسان طويلاً قبل النطق بالحماقات أو المبالغات. . .

كلّ شيء هادئ في اللغة. فهي لا تعيرنا انتباهًا ونحن نحتضر من أجلها، وما إن أبدأ بالنطق حتى أشعر أنّني محرومة من القدرة عليها.

في أحد الأيّام من العام ٢٠٠٨، قلت لأستاذتي الجميلة كلوديا فوين، وأنا بين ٢٢ طالبة وطالب في المعهد التابع لبلديّة

الحيّ الخامس عشر حيث أسكن، وبفرنسيّة مضعضعة كالعادة:

ـ لديكم صيغتان لفعل المستقبل، البسيط والقريب. وأنا أغار منهما فعلاً. ففي بلدي لا نملك إلّا حرفًا واحدًا هو حرف السين. ما إن نضعه في أوّل الفعل حتى ندخل مرتبة المستقبل. الغد عندكم وافر جدًّا، على العكس عندنا فهو أحيانًا لا وجود له.

أطلق الطلبة ضحكة مهذّبة. ربّما تصوّروا الأمر مجرّد فكاهة. كانت كلوديا ترقبني بحنان. عيناي تغرغرتا بدمع فوري بلعته حالاً وهي تقترب وتربت كتفي قائلة:

ـ أوه يا... لا تقلقي... أنت هنا بيننا... و.

منذ عقود والغد في بلدي ملاحق. تمامًا، هو مجرّد حرف ويجوز دائمًا سحقه وإيقاف العمل به. منذ الحظر الدولي على العراق وصولاً إلى الاحتلال الأميركي وإلى يومنا هذا قد عُزل هذا الفعل عن باقي الشعب ولم يعوّض عنه أيضًا حتى بفعل مضارع مشكوك في أمره. فتمّ التنكيل بالغد تمامًا وقبل الحلم به حدث وصار الترويع عيدًا وطنيًّا، فبقي الكثير منّا، يختلون ببلدهم سرًّا. نحبّه هكذا، كضمير الغائب، نحبّه بالخوف الذي يعطيه الانطباع عن الخائف؛ إنّه عصابي ويتمتّع بكامل ملكاته الذهنيّة. لا أقدر أن أحبّ وطني وأنا معصوبة العينين. فكانت هكتارات من الأرض الخراب نشاهدها يوميًّا يهينها ويديرها الرجال الجوف، فنقوم بشتم البلد سرًّا وعلانيّة. تتمّ الحسرة على بغداد بالذات من قبل ومن بعد. فدائمًا كانت هناك حقب دمويّة، ودائمًا كان الموت يتفاوت ما بين قطع الرؤوس، وفتح الرؤوس، وحرق الرؤوس. هي أطباق

جاهزة تفتح الشهيّة ويتمّ التهامها على الريقْ.

هذا ما كنت أحاول إخباره لكلوديا بعد انصراف الطلبة، لكي نتحادث عن الضغط اللغوي عليّ، والذي يبدو لي ولها أكبر ممّا بمقدوري تحمّله، بجانب الضغط الوطني الآخر الذي كان يجعلني في حالة من انقطاع الأنفاس. آه، فليكن الأمر كذلك وأنا أكابد من شبه احتضار ما بين قدس الأقداس بلدي وبركات اللغة الفرنسيّة المخبوءة خلف تأتأة لساني العربي. هل يقدر الآفلة مثلي امتلاك لغة فرنسيّة صحيحة؟ تصير لذيذة كقدح نبيذ معتبر، ولا يشكّ فيها خبراء مصانع النبيذ الفرنسي؟ تصاحبني وأشغف بها كعشيق كريم يسمح لي في أثناء الوصال معًا، أن أغلط في مناداة اسمه الفرنسي ربّما. تصوّرت أنّ الفرنسيّة كانت تقوم بخداعي فأبدأ أنا بخداع نفسي. فعمليًّا لم أملك أيّة خطّة حقيقيّة لفعل التعلّم، فكنت أقوم بالدوران حول المفردات والأفعال ووضعها في جمل عاديّة أو حمقاء أيضًا.

أغلاط الضمائر والأفعال

ولكن هل بمقدور هذه السيّدة العراقيّة امتلاك ذرة طائرة من هواء ممّا يسمّى البلد شاءت أم أبت؟ فأنا أحاول عمل أرشيف لاستنطاق تلك الحرب، والاحتلال، للمتعاونين الذين توفّروا وما زالوا في تنظيم أنساق من ضخّ السموم، تحت الجلد وفي خلايا الدم، وفي لثّات الأفواه التي كانت تطالب فقط: بالقليل من الكهرباء، وبالأقلّ من الماء، ونحن نرى اليافطات عبر شاشات العالم. . . كانوا يتآمرون على أنفسهم فيمرّرون السموم لمدارس البنات والبنين الابتدائيّة. هناك، كان يبدو الجيل والأجيال الآتية في إبداع مسقط رأس جديد للفاشّيّة. من جانبي، كنت وكأنّ بلدي يقوم بفعل التبنّي لي أو لبعضنا، فنحن لم نتدخّل في أطواره وتجاذباته، فكنت أصير أشدّ عدوانيّة من ذي قبل ولا ألتمس من هناك إلّا ما كنت أدفع بنا إلى أبّهة ووداد الطفولة التي أظنّ أنّ الكثيرين منّا لم يغادروها. حتى عثرات اللسان وأنا أتنقّل من المعهد الخاصّ للصحفييّن الأجانب للغرض ذاته، ثم للمعهد الكاثوليكي، إوى. . . وإلى. . . وأنا أدرس وأتعلّم، وأنسى فأعاود

وأشتغل على عمل روائي جديد، بجانب موقف لم يتزحزح ثانية مضادّ لسياسة الولايات المتّحدة. هذا وغيره كان يسحبني إلى ذلك النظام الكامن خلف الماضي التامّ ـ الفرنسي Passé composé والغد البسيط في تصريف الأفعال الفرنسيّة، فكنت أشعر أنّهما يشبهان لغتي الفرنسيّة المبتلية بالأخطاء، لكنّني بقيت أجاهر بصوت فصيح؛ إنّني أحاول بشتّى الطرق والوسائل محاولة التحدّث بدون أغلاط. أجل، ستكون بداية الجملة صحيحة وليكن منتصفها معوجًّا مضحكًا، أمّا الخاتمة فسوف أحاول باستماتة أن تكون منطقيّة. كان الأمر معقّدًا وبسيطًا أيضًا. فتعَلّم الفرنسيّة يستنزفني تمامًا، كما هو بلدي. يسحب الدم من عروقي، وما كنت أمتلك الأمان اللغوي وهذا ما صعّب عليّ الأمور كأجنبيّة.

عالم اللسانيّات نعوم تشومسكي يكتب عن هذا الشأن اللغوي:

«إنّ الناس يتحدّثون ويفهم بعضهم بعضًا، وهي حقيقة مثل أيّ حقيقة أخرى نعرفها عن العالم الطبيعي الذي نعيش فيه: «إنّ هناك فروقًا كما يبدو بين ما يعرفه الناس وما يفعلونه. أي أنّ: «ما نقوله فعلاً وخلال التحادث مع الآخرين ليس دائمًا انعكاسًا صادقًا لقدراتنا اللغويّة. نحن نرتكب أخطاء كعثرات اللسان مثلاً. وعثرات اللسان يقصد بها حالات الخطأ الناتج عن إبدال صوت بآخر أثناء الكلام مثل «شت قروش» بدلاً من ستّة قروش. إنّ هذا يعني أنّ هناك فرقًا بين الكناية والأداء، ولهذا فإنّ (المؤلّف) لا يركّز انتباهه على ما يخرج من فمه بل على النظام الكامن خلف ذلك وسوف نلاحظ حين ننتج كلامنا في الوقت الذي يستغرقه ذلك الإنتاج، نجد أنواعًا من العوامل تؤثّر في ذلك، مدى شعورك بالتعب، أو

مدى انتباهك إلى ما يقال إلخ. ونتيجة لذلك فإنّ الكلام الفعلي المليء بالأخطاء، مثل البدايات الخاطئة، والمرّات العديدة التي تبدأ بها الجملة ولا تعرف كيف تنهيها، وهذا ما ندعوه بالمشكلة المنطقيّة في اكتساب اللغة».

بيوت المعلّمات

بقيت أركض وأجري وراء شروحات المعلّمات كلّهنّ حتى انهدّ حيلي. في كلّ صفّ داومت كنت أحضر مبكرًا وأنا أتسلّق الدرجات. فالمعاهد معظمها بلا مصاعد. كنت أريد أن أكون في المقدّمة، في مركز استراتيجي حقيقي لكي لا يكون أيّ ظلّ من الضوء الاصطناعي المباشر أو الطبيعي على الصفحة في الكرّاسة أو يخادع على مشاهدتي لما تكتبه المعلّمة على السبّورة. فهو يضايق عينَيّ. في الحياة الثقافيّة والندوات التي أحضرها كانت تستهويني المقاعد الخلفيّة فداومت عليها طوال حياتي. فهي تدعني سريعة الحركة وأنا أنسلّ إلى الخارج. هنا، وفي أثناء إلقاء الدروس كنت أرتّب الحواسّ؛ النظر بالعوينات الحديثة النظيفة الزجاج، والإصغاء الجيّد بالسمع الذي بدأ يضعف ويشحّ لكي أرى وأسمع مخارج الحروف حين تتلفّظ بها المدرّسة. ويوم نجحت وانتقلت إلى صفّ جديد متقدّم كان عليّ أن أدفع الفواتير وأنا أشاهد وأصغي إلى معدّات جديدة، وذخائر شديدة الانفجار، فبدأ جهاز راداري غير قادر على رصد الأصدقاء والأعداء من الدروس

والكتب والصفوف على حدّ سواء. إنّني في ميدان حرب حقيقيّة. اللغة تبدأ حربها من الميل الثاني والثالث، وإذا ما بدأت واتّخذت لها المقرّ الجديد وحسن الانطلاق بدون شطحات الخيال، أو ارتكاب الأخطاء الفادحة، بالتأكيد سوف تتقدّم إلى الأمام. إجرائيًّا أنّني مضطرّة للوقوف في هذه الفقرة قليلاً. فجميع الصفوف التي داومت فيها، وفي جميع المعاهد التي كانت تتقاضى أجورًا شديدة الارتفاع بالنسبة لميزانيّتي المتقشّفة، كانت هي، هي ذاتها: الصفوف ممتلئة، شابّات يافعات وهنّ الأكثريّة قياسًا إلى الشبّان. كانت المنافسة بيننا هزيمة منكرة، وخسارتي تتجدّد كما العطل والأعياد الرسميّة. فالذي يثقل كاهلي تعذيب الشباب، كلّهم بدون استثناء. لديهم الانتباه اليقظ، الإشعاع الذهني، اليفاعة الحركيّة، خلايا الدماغ تضخّ الدماء النقيّة بصورة طبيعيّة والإدراك النهائي إنّهم في وسط أعراس الشباب والصحّة كانوا يكتشفون أسرار اللغة. أفواههم كطلقة الكلاشنكوف، تبدأ الصلية الأولى ذاهبة إلى الهدف الأوّل وما إن أبدأ أنا بمجرّد محاولة تضليل العدوّ، جهلي، حتى أراهم قد شطبوا على فناء المعركة ونالوا الدعم التامّ من قائدة الفيلق التي تكون في أبهى حالاتها المهنيّة، فيتمّ الاستيلاء التامّ على أرض المعركة والصفّ وهوى المدرّسة التي بقيت، والحقّ يقال، تبتسم في وجهي وأنا أحاول البدء بالجملة الأولى فلا ألحق لا بها ولا بهم... ما هذه الحروب المتوالية عليّ، هناك في بلدي وعلى بلدي، وهنا على، وعلى، فأين المفرّ؟ أبدو كقطّاع الطرق، فرد من المرتزقة لا يجيد أيّة لغة على الإطلاق، وبالتالي لا يعرف إلقاء صلوات الشكر لما ابتليت به من بلاء مبين. كلّ أستاذة في

اللغة الفرنسيّة جنرال حربي ما إن نبدأ بالتعارف الأوّلي وفي اليوم الأوّل حيث يتمّ الإعلان عن الهويّات الخربة والمغرّر بها أو تلك المغدورة فأردّد في نفسي: هذه أستاذة شبه مقفلة فلا أعرف من أين الدخول إلى سرّها اللغوي؟

هنا عليّ الإشارة، للأمانة اللغويّة والأخلاقيّة: جميعهنّ، كنّ، وكانوا صاحبات أمزجة لغويّة شديدة المرونة واللطافة. صبورات، حليمات، جلدات معنا، ومعي على الخصوص. آنايس في المعهد البروتستاني، ذات الإطلالة الجميلة والضحكة المجلجلة والعينين البرّاقتين الضاحكتين اقتننت «النفتالين» هي وفريق المدرّسات في المعهد. وفي أحد الأيّام أدارت شبه ندوة من أجلها. وحين صدرت رواية «الولع» قامت بذلك ثانية، ولكوننا بقينا نتراسل ونتحادث هاتفيًّا ونتبادل بطاقات أعياد الميلاد ورأس السنة، فقد قرأت عن «الغلامة» ـ حين صدرت بالفرنسيّة، وأرسلت لي قصاصة ما كتبته «اللموند» بالبريد مع كلمة جدّ لطيفة وكتبت لي أنّها اقتنتها أيضًا. المديرة الكيّسة والرزينة روزالين بقيت تردّد بنوع من التفاؤل:

ـ ستتعلّمين. لا تتعجّلي الأمور. فأنت عجولة.

ـ نعم أنا على عجلة ودائمًا.

جلست بجواري وهي تردّد بحنان لا ينسى:

ـ هيا اكتبي هنا على هذه الصفحة البيضاء من الكرّاسة سطرًا عربيًّا.

ـ عربيًّا...

ـ أجل.

كتبت.

ـ ألا ترين كم هو الاختلاف في كلّ شيء. لغتك من شجرة لغويّة لا علاقة لها بأشجارنا اللاتينيّة. هؤلاء، بعض الطلبة الأجانب في الصفّ، ربّما يتعلّمون بصورة أسرع، من هنا إذا ما تعلّمت وداومت وأنت في سنّك المتقدّمة، فهذه جسارة تحسب لك.

الأليناس

بعد الأسبوع الثالث، كنت أدير ظهري للمعهد وأعود مشيًا إلى شقّتي. هنا كان وحش الفرنسيّة قاتلاً بدون رحمة. قرأت قبل التسجيل فيه: أنّه يدع الطلبة يتوهّجون ويزهون فيهنئون بعضهم بعضًا، يتصايحون وينجحون فيعلو صوتهم بالصراخ والصخب. كانت جبهتي كمن لو كان في حالة تحضير لانقلاب عسكري مضادّ وأنا بين هؤلاء وأولئك. في الطريق كنت أرسل عشرة آلاف قطرة من دموعي فأراها نازلة على خدّي من تحت النظّارات الطبّيّة، سائلة على رقبتي وقبّة قميصي. لا أستطيع مواكبة كلّ هؤلاء الشبّان. لا أنا ولا أيّ أحد بقادر على إيقاف حركة سيرهم إلى الأمام. لا أقدر. لا أستطيع، أخاف، خفت من القصّة هذه وخفت أكثر من سردها. خفت من حيّز الخوف الذي كان يعادل هنا العماء؟ خفت من حمل جمرة الجهل والخطأ بيدي والسير بها قدمًا. هنا، كنت لاجئة عن حقّ، أنتظر لحظة تفهّم ورحمة على عادات وتقاليد وطبقة وشظف عائلتي البسيطة وهم يدخلوننا إلى المدارس العراقيّة الحكوميّة الركيكة في تعليمها للغات ونحن في

أعوامنا التأسيسيّة الأولى. فمدارس الراهبات النصرانيّة «والفرنك عيني» اليهوديّة كانت ربّما، تتلقّى أجورًا باهظة على الدراسة فيها ليس في قدرة عائلتي القيام بها. اليوم أقرأ جيّدًا ذلك التفاوت الطبقي من منظور اجتماعي وسياسي، يقوم بفعل الانتقام، ربّما، منّي ومن جيل كامل، كان عوزنا اللغوي هو عوزنا للحرّيّة وتخصيب المعارف في العمليّة التربويّة كلّها. فلم تترك لنا بريطانيا العظمى أيّ شيء من أسلابها اللغويّة إلّا الحقد والضغينة عليها، على العكس من الأمبراطوريّة الفرنسيّة التي كانت لغتها قد شدّت وثاقها بألسنة من رعتهم أو وقعوا تحت انتدابها. اليوم قد يقدر بعض الأحياء أن يضعوا هذا السؤال وغيره كنوع من الأسئلة العنيدة أمام أولئك الموتى، فلا نحن ولا هم بالطبع يملكون الإجابات المناسبة، وإن وُجدت فهي غير نافعة.

فأوّل ما تنتهي الحصّة كنت أرى وجلي يتفاقم ولكنّه غير مخادع. كان الطلبة آلهة في التقاط اللغة ومفرداتها والدفاع عمّا تعلّموه والقدرة على اليقين ممّا توصّلوا إليه. كآبتي تتفاقم والضغط العصبي عليّ يشتدّ، أخبر صديقاتي عن كلّ هذا الإرهاب اللغوي الخطير الذي وقعت تحت أسره، فلا يملكن إلّا التشجيع على المواصلة. في هذه الأيّام وأنا أدوّن هذا الكتاب دخلت على خطوط اللغة وملفّات حياتي ووجودي نادرة الديب التي حاولت وتحاول بشتّى الوسائل، بالجلد والمرح المصري المألوف أن تدع استقراري متينًا ما بيني وبين المؤسّسات الفرنسيّة واللغويّة في قادم الأيّام.

بقيت أطرح سؤالاً واحدًا لم يتغيّر منذ بدأت هذه المسيرة

الوعرة، والمميتة فقلت لنادرة في أحد الأيّام:

ـ لماذا تُدرّس اللغة، اللغات في صفوف واحدة؟ أعني، لماذا لا تكون هناك صفوف للكبار، للمسنّين، للذين جافاهم التعلّم في الصغر والصبا؟ لماذا تتخلّى الجمهوريّة الفرنسيّة عن هؤلاء بهذه الصورة القاسية. أعرف ما ستقولينه، أنّها:

ـ المساواة. هذه الثيمة في شعار الجمهوريّة الفرنسيّة. هل تودّين تغيير تراتبيّتها أو آليّاتها؟ قالت نادرة مجيبة عن تساؤلاتي. ثم أضافت:

ـ لم يتغيّر هذا القانون منذ وصولنا أنا وأولادي قبل ثلاثين عامًا. على الجميع، أيًّا تكن أعمارهم، أن يتعلّموا. لا يجوز أن توضع صفوف لفئة عمريّة كذا أو كيت، هنا ندخل في مفهوم اللامساواة وهذا ممنوع.

ـ لكن، علميًّا وصحّيًّا ونفسيًّا وعصبيًّا، هناك خطوط فرار أو قوّة شغف لتعلّم اللغات على جميع مستويات عمر الكائن البشري، يدخل فيه الاستعداد الروحي، قوّة الإدراك، الموهبة الدالّة في هذا الشأن. إنّ التقدّم بالسنّ هو أحد أسرار في تراجع وضعف التقدّم بالتعلّم.

لم أقدر على إكمال كلّ الدورات وبرنامج معهد الأليناس الغالية جدًّا. كان هوسي بالتعلّم فظيعًا، صار نوعًا من الوطنيّة، ورغبة شديدة في إمساك ذلك السلاح حتى لو كان مجرّد حجارة لغويّة فرنسيّة يكون بمقدوري قدحها بتلك الحجارة العراقيّة التي رفعتها في أحد الأيّام في وجوه المارّة وأنا صبيّة في التاسعة من

عمري. ينبغي بقاء اللغة وسيلة وليست هدفًا في ذاتها. كنت أنتبه للعشرات ممّن ألتقيهم من العرب والعراقيين الذين يتوفّرون على صيرورة حياتيّة ولغويّة في الكتابة، التأليف والترجمة من لغات أجنبيّة مختلفة، وفي العيش هنا أو المكوث الطويل الأمد، لكنّهم، يا للغرابة، لم يقفوا على أسرار ورموز ولغات الغرب السرّيّة والخفيّة جدًّا، ليس في الكلام ولا الكتابة ولا المناقشة ولا في الانسجامات الروحيّة أو التوافق الاجتماعي والسلوكي والعصبي. هناك نظام قائم وهو يتشكّل من الرموز والشيفرات والتأويلات ولا علاقة له بمعرفة أو إتقان اللغات، بعضنا يصيبه الدوار بسببه وبعضنا يبقى وحيدًا تمامًا ويتحوّل إلى شخص آخر. إنّ اللغة في تلك اللحظة، اللحظات لا تعود ما تتفوّه به وتنطقه أو تكتب به إلخ هو العيش بحياتين مختلفتين وربّما متناقضتين تمامًا. والأمثلة لا تحصى وهي مريرة جدًّا.

فشل معلن

وكما كنت أكابد هنا في أشياء وأمور كثيرة بينها اللغة ومكائدها وكيفيّة تعلّمها، بقي بلدي هو أيضًا يغذّي الهوس بارتكاب المعصيات في حقّه وحقّ أبنائه، فلم يتوقّف عن أسئلته، على الخصوص بعد الاحتلال وتوزيع الطوائف: من أنت؟ أصلك، فصلك، عشيرتك، مذهبك، فئة دمك، وسرّ طائفتك؟ وهل تجيدين التحدّث باللغة العراقيّة الحاليّة؟ هه.

هل يصحّ أن نسأل: والآن ما العمل بالوطن؟ بذاك الكافر والمؤمن، وما بين بين. عمّا جرى ويجري فكلّ شيء تمّ التلاعب به. الأوطان، اللغات، الجينات، العقائد، المرجعيّات. حتى الغرام، معجزة برق وجذل الفؤاد البشري صار يتم التلقين حوله بالشبكة الافتراضيّة. فلماذا لا تكون اللغة، أيّة لغة افتراضيّة كما هو الوطن افتراضي وليس موقّتًا هو أيضًا؟

ما العمل باللغة، باللغات جميعًا، ما دام العالم يتحدّث لغة واحدة هي لغة الفتك والتدمير والإبادات والمظالم المتوالية؟ كانت واحدة من أهمّ مواهبي هي الفشل وأنا أؤدّي الامتحانات الفصليّة.

أنجح بصعوبة، وفي الامتحانات النهائيّة أرسب بامتياز فأهاتف إقبال القزويني في برلين وإنعام كجه جي في باريس، وأنا في الشارع أنتحب وهما لا تعرفان الإجابة. . . هي قصص فشل يعلن عن نفسه؛ إنّني بالكاد أحمل أثقال لغة عمرها أكثر من ألوف السنين من الخيبات والتعالي، الزهو والدماء، الأكاذيب والجرائم. وها نحن نضع، كعادتنا، حمولة كلّ هزائمنا على الاستعماريين البريطاني والفرنسي، وهذا لا يمنع من غثياننا وقرفنا منهما ومن أنفسنا بالدرجة الأولى. أمّا ذلك الأميركي فلا يكفي إنشاد مرثيّة للموتى، والقتلى، ولأولئك الأحياء المشوّهين أن ننتظر عمرًا باكمله لكي نردّد: ها كم هذه الرواية أو تلك التراجيديا، فنحن لا نستطيع في كتاب أو كتب إحصاء المجازر التي قام بها لها ودفعة واحدة.

في الدرجة الصفر من الوطن

لنغيّر أوطاننا يا حبّي. وضعت هذه الجملة على لسان راوية شخصيّة رواية «غرام براغماتي» لكنّني حذفتها، وها إنّني أدوّنها بدون لعثمة. اِذهبْ وعشْ في مكان ما أنا شخصيًّا لا أعرف أين يقع؟ إنّني أدرك بوضوح أنّني سأموت دون أن أعود إلى هناك، فلن أمتلك شبرًا لقبر أو حرفًا من شاهدة فيه، لا أريد ذلك. لا أريد الانتساب إليه ولا الانتماء ولا الوفاء ولا الغناء ولا الفناء من أجله. لا أريد أن أقطع من نفسي وأعطيه نفسًا من أنفاسي ولا ملمترًا من دمي السائل القاني العتيق. لا أريد أن أنتظره بعد اليوم لكي أبدأ معه حياة عريضة أو ضيّقة. أريد أن أكشط وأبتر عضوًا بعد عضو لكي لا يبقى فيّ ما يسترجعه ذلك البلد منّي، ففتحت له شبابيك العالم والمدن، القارّات والولايات لكي يتطاير ويتفتّت، يتشظّى ويختفي بالطرق العلميّة، والشرعيّة، والرياضيّة والعاطفيّة. لم أعد أفهم أيّ شيء منه وما يجري فيه، لا والديّ الحقيقيين، ولا والديّ الرمزيين المزوّرين وحسب دراستي للعلوم النفسيّة. وحين أذكرهما تصيبني رغبة في الضحك المتواصل. وإذا ما رغبت في

موت أحد الوالدين يومًا كطفلة ويافعة، فاليوم أرغب في موت وطني، كأن يصيبه إعصار أكثر ممّا حصل له، فلا يبقى أيّ أحد من ذرّيّته وسلالته ليأخذ العزاء به.

الأوطان ليست أنظمة غذائيّة إذا نزعت الدسم عنها استقام القلب، قلبك، وإذا تقدّمت بك السنّ واستفحل بك الداء ـ داء الوطن ـ ضربت بجميع تعلميات الأطبّاء عرض الحائط لكي تستفحل أنت فيه، فتلقى اللوم عليك وأنت تفقده بالتدريج. لا يجوز أن تكون نصف وطني أو ربعه أو بضع درجات فوق مؤشّر وحشته ورهابه. لا أظنّ أنّ هناك حبًّا يجلب النحس والمرض والفوات والشؤم والغصّة مثل الحبّ من طرف واحد. إنّ الحبّ وحده أيضًا لا يصنع الأوطان. هناك أشياء خارج مفاهيم علوم الاجتماع والنفس والسياسة والتاريخ ما زالت تباغتني وألاحقها ونحن نتشاجر ونتلذّذ معًا، أنا وهو. إنّ التنظير للوطن أمر غبيّ، وتفكيك أسره عمل فوق طاقتي وإرادتي، وإذا ما أدخل الوطن في سلطة الكمال نزعنا عن أنفسنا نحن كبشر صفتنا الإنسانيّة. دائمًا هناك شيء أفشل في بلوغه، ربّما هو العدل، وهناك أمر يتقاسمني وإيّاه: الضجر. أجل، بالضبط. ضجر يباغتني فتشاطرني إيّاه بقيّة أعضائي وعناصري، بحّة صوتي، وانهيار جهاز مناعتي، أمراضي العراقيّة التي يكلّفني غاليًا الفرار من مواجهتها. كلّ مرض يبدأ وينمو وينبثق، يحضر من تربة العراق. كلّ مرض ينطّ علينا من غازاته وأبخرته وسمومه فيكافئنا مرضًا حديثًا جدًّا، ويحالفنا الحظّ بالإصابة به. كلّ مرض لا يشعر به غيرنا هو مرض عراقي. شيء يتكرّر كالندم، فتتصوّر ودائمًا ـ بالتقصير إزاءه فتزداد طاقتك للعنف

والتبدّد والبغض. وجوديًا، كلّ شيء فيه يعزي النفس لكنّه يورث الكرب. إنّنا لم نفلح لليوم أن تحبّنا بلداننا كما نريد ونشتهي. إجرائيًّا فشلت في التوقّف عن الجري وراءه، وفشلت أكثر في التعرّف عليه. الأجنبيّة كنت هناك وما زلت هنا في فرنسا. كنت أظنّ أنّ البلد يصلح أن يكون مادّة نصّيّة خارقة للعادة، ونعيش على نفقتها وتحت وطأة ثقلها. فدائمًا هناك وقت للانفصال عنه وبذرائع شتّى ودائمًا نمتلك الوقت التامّ لكي نفرّط فيه. فما زالت تلك اليافطة التي رفعناها في إحدى سنيّ الصبا، والتي تقول: «نموت، نموت ويحيا الوطن» ماثلة أمام عينيّ. آه، البلد مغرٍ بجميع ما يخطر على البال وفعل الغواية لم يبطل مفعوله من قبل الدول العظمى والكبرى والصغرى والأصغر بإنجاز الباقي من العمل وبجميع أنواع الأسلحة الفتّاكة التي تقضم في لحمه، أو تلك التي تأتي من قبل أبنائه في عمليّات التدمير الذاتي الطاحنة.

بيت القرد العاري

في كتابه المترجم «القرد العاري» لديزموند موريس، يذكّرنا عالم الحيوان الباحث البريطاني في بحوثه الفذّة ودراساته حول جلّ التطوّرات العضويّة والجنسيّة والاجتماعيّة للإنسان، ففي مثل هذه الكتب العلميّة لا نضطر للتأويل، فجميع أسرارنا الصغيرة والكبيرة يضعها أمامنا هذا السيّد الجليل. وكلّما ازدادت الأمور تعقيدًا عليّ عدت إلى الأصل، أصلي، القرد العاري، وإلى الطيّب الذكر داروين وإضاءات العلوم التي تأخذني وترميني إلى أبعد من خطّ الأفق. ما عليَّ من أيّ عراقي وجواز سفره الميمون، فأنا لا أتذكّر منذ البلوغ إلى اليوم، وأنا أيضًا أنطوي على سرّ بلوغي الحديث وعدم توقّفي عن الدوران في حلقات تتّسع وتضيق حولي وحول ابني، وحول أجدادي وأسلافي. الموتى يبتزّون الأحياء والأحياء يعتاشون من خلال الموتى. وفي العموم، جواز السفر صغير الحجم ذاك، بصغر كفّ اليد الرشيقة، لكنّني أستطيع الجلوس في حضنه ويقدر هو أن يمسكني من تلابيبي كما يقول العرب. حرتُ كيف ستتمّ رواية هذا الجواز، وبمن يتمّ الاستلهام والاستشهاد؟

كيف سنحدّد التواريخ وهي ذاتها تواريخ الدولة العراقيّة التي كانت بغمضة عين تسحب الجواز من البني آدم أو ترمي الجنسيّة العراقيّة إلى البالوعة. تلك الدولة، وهذه هي هي ذاتها إذا تباعدت أو توحّدت، إذا كانت ملكيّة أو عثمانيّة، فارسيّة أو عربيّة، حنبليّة أو اثني عشريّة، ثوريّة، انقلابيّة، أبويّة، عشائريّة طائفيّة أميركيّة. هل أقف في وسط الصفحة وأصيح: عاش العراق الفذّ العظيم، وعاش جواز سفري العراقي المحروس بالأئمّة كلّهم وبأهل البيت. عليّ أن أقطع صوتي هنا لكي لا يقطع لساني هو الآخر. الباسبورت العراقي يتجاوز قدرتي على التجريب في الأساليب وصياغة بيانات مستلّة من الحياة. فهو بحجمه الصغير يستطيع أن ينسف ماضي أحدنا كما حصل ويحصل في جميع الأوقات والعهود والحكّام. ويقدر أن يدع بعضنا الآخر يمتلك الدنيا والآخرة. هذا الكائن الصغير هو عمل إبداعي متفرّد بذاته، ينتج الفنّ والفتن والفتنة بخطّه المكتنز، بحروفه الواضحة والصالحة للقراءة من قبل جميع عيون البوليس الدولي والعربي ووكالات المخابرات العالميّة وأنت تمسكه بيديك كاللغم أو الكنز، لا فرق وبلغتيه العربيّة والكرديّة كما حصل اليوم. لا خلاف بين الجواز العراقي وقوّة ونشوة الوجود؛ إنّك عراقي من الصفحة الأولى إلى الأخيرة حتى تكاد تطلع وتقع من الغلاف وتنحدر للشارع العامّ أو الاقتلاع التامّ. أنت عراقي كغاية كبرى يتمّ التخلّي عنك بطيبة خاطر، أو تستحقّ التكريم ولا تدري ما سبب ذلك أيضًا. الباسبورت هو غاية العمل الإبداعي ولست أنت، هو الاستيهامات العراقيّة بالخلوة الشرعيّة أو الزنا الأصغر في تطوير أو نسف نظريّات ذلك القرد العاري، أو الابتعاد

عن محاكمات السيّد كافكا الروتينيّة جدًّا، والتي لم تنبّهنا لما سنلاقيه في العقود الأخيرة من عمرنا المنقوص. دائمًا سنتحدّث في هذا الشأن ومن داخل هذا الهوس والوسواس والهذيان والسوداويّة، الاكتئاب والهستريا للهدف من حمل هذا الجواز، وبالتالي من قوّته المعنويّة والميثولوجيّة حين يكون بمقدورك التخلّي عنه وأنت تتمتّع بكامل قواك العصبيّة والصحّيّة. لكنّني ضعيفة إلى الحدّ الذي لا أقوى على تحمّل هذا الجواز الخارق للعادة. فتتشكّل القصص والنوادر، الأهازيج والحكم الشعبيّة له وحوله، قصص مثل الإصابة بالذهان والعصابيّة وعقدة الاضطهاد وجنون العظمة، وهذه كلّها يتمتّع بها حامل هذا الختم الملوكي عابر القارّات والعواطف، الرجال والنساء والأحفاد، فأنتقل وإيّاه من التخييل إلى قراءة أفكار الغير، ذاك المسؤول في إحدى القنصليّات العراقيّة وأنت تنتظر سيولاً من الشقاء بسبب الحصول عليه أو تجديده أو. . . أو. . .

المرور بين التواريخ

«عندما يبدأ الطفل بالمشي دون مساعدة تقريبًا، يبدأ نطق أولى كلماته. وعندما يصل إلى سنّ الثانية يستطيع الطفل الوسطي أن يتكلّم ثلاثمائة كلمة تقريبًا. وعند بلوغه الثالثة من عمره يكون قد تكوّن لديه ثلاثة أضعاف مفرداته السابقة. وفي سنّ الرابعة تبلغ حصيلته ألف وستمائة كلمة. وفي سنّ الخامسة يكون لديه ألفان ومائة كلمة. إنّ هذه النسبة المذهلة في التعليم الشفوي ينفرد بها جنسنا البشري بين الرئيسيّات لا بل يعدّ ذلك أكبر الإنجازات «شخصيًّا كانت حصيلتي اللغويّة أدنى من طفل في الرابعة، فكنت أجمع ما تشترك فيه جميع الأمم: «الصراخ والضحك والأنين والبكاء المنتظم والنحيب بنقل الرسالة نفسها إلى كلّ امرئ، وفي كلّ مكان». تدرّجت هكذا في تلك الطبقات ومنذ جواز سفري الحامل حرف السّين فضقت ذرعًا بكلّ من له صلة قريبة أو بعيدة بهذا الحرف. القنصليّة العراقيّة في المملكة المغربيّة حيث أقمت عشر سنين، بقيت تمنحني التجديد أو الجواز الجديد بالتراتبيّة العاديّة بدون منغّصات فوق العادة. وهذا الأمر كان يتمّ حين أكون

بباريس أو المملكة المتّحدة يجري اللازم بدون توتّرات. بالتأكيد منح جواز السفر للمواطن الفلاني ـ أيًا كان ـ لونه ودينه، قوميّته أو طائفته أو جنسه ليس عملاً خيريًا ولا السفارة جمعيّة خيريّة تؤوي المحتاجين والمقعدين وأبناء السبيل فتفرط في إنسانيّتها من أجلنا.

حروف الأبجديّة بدءًا من الحرف (كاف) حين غادرت العراق في يوم الثامن من حزيران من العام ١٩٨٢، إلى اليوم، مررت وحدّقت، استدرت وخفت من الحروف التي صادفتها ما بين حروف الكاف وصولاً إلى حرف النون، هذا الحرف الأخير بقينا تحت حقبته حتى دخل المارينيز العراق وسلطة بريمير حيث فُضّت عذريّة المكان والزمان، فصرت أتمتّع بخفّة الكائن الذي يحتمل كلّ توصيف. والجواز، جوازي يناديني لكي يهدأ بين يدي وأنا أحوم حوله وحول القنصليّة بباريس. كيف نفوّت فرص وتفاصيل دخولنا هذه الحقبة؟ فنحن مكلّفون حراسة هذا الجليل. فرقم وحرف الجواز كانا حدثًا مجيدًا يؤرّخ به عمرنا وعطلنا الرسميّة، ودبغة سلالاتنا المحفوظة في اللوح الطيني. حرف النون هذا ينتهي العمل به في نوفمبر من العام ٢٠٠٣. هذه حكايات بدت لي وأنا أسترجعها اليوم وكأنّني أسعى لترتيب الأمراض التي غزتني، والفوضى التي اجتاحتني، واليقينيّات التي تخلّيت عنها، والأسماء التي سقطت من أجندتي. وها أنا ما زلت أتنفّس بعد الاحتلال، وأضع المكياج في المكان المناسب، ولم أمت من الكمد والتشويه والغضب، فالاحتلال الأميركي والترويع الذي صاحبه وخلّفه إلى اليوم ولسنين قادمة طويلة جدًّا، جعل البعض من المتعاونين يرى نفسه من منطلق النبالة الخارقة، واصفًا الفريق المضادّ بالتزييف

والتخوين الخارق للعادة. ليس للاحتلال أشكال رمزيّة. له شكل واحد لا غير، وهو شكل ليس مجهولاً وينبغي لمن علق فيه أو تورّط، أمن أو سعى، روّج أو استوطن إلخ أن يدفع الثمن. عندما وصلت السفارة وبعد الاحتلال لتمديد الجواز لسنتين فقط كحقّ أخير لمواطنيّتي، شعرت ولليوم، أنّني خصم صريح علني ولم ينفد صبري بعد. كانت وضعيّة كبريائي المجروحة تنضح بيدي وأمام عيني، وكان وجهي له عنوان وحيد: الانهيار التامّ والدخول في حالة لا أستطيع اختصارها أو تحديد ملامحها: أراوح ما بين ملاذَيْ اليأس والحزن، وأنا أرى قد تمّ تمديد الجواز بلطف حقيقي من قبل السيّدة سراب، الموظّفة المسؤولة وباقي الفريق كان على السويّة نفسها. بكيت وأنا أخرج من الباب الرئيسي للسفارة فشاهدت أنّ جوازي ينتهي في فبراير من العام ٢٠٠٧ كآخر حقّ لي في التمديد. زيّنت الصفحة الثامنة من الجواز دائرة كتب عليها: مكتب الارتباط، القسم القنصلي باريس. داخل الدائرة كتب سلطة الائتلاف الموقّتة وفي الوسط خارطة العراق، خاوية تمامًا من أيّ اسم لأيّ مدينة أو محافظة إلّا من نخلة قبيحة في انتظار الإعدام هي أيضًا. في العقد الماضي، رجوت من جانبي الاحتفاظ بمعظم جوازات سفري ووافقوا على ذلك، هكذا، كآخر مرحلة انتقاميّة من الذات، لديّ أربعة في الوقت الحاضر - ثلاثة يطلقون عليها بطّال بلغة الدبلوماسيّة وواحد شغّال على وزن بطّال ثم وصلنا إلى الحرف سين الذي يتمّ الانتهاء منه في نوفمبر من العام ٢٠٠٧. عندما أمسكت بالجواز الجديد بيدي لاحظت ما يلي: انكماش حجمه مقدار إصبعين وعزوت ذلك من باب الظرف، إلى أنّه يعيش

اضطهادًا ما في بنيته الوجوديّة أو خجلاً زائفًا من بعض الترميزات والتوريات حتى لو كانت مفبركة. هو كتيّب حسّاس جدًّا وفي قرارة نفسه يتلعثم ولا يجد جوابًا إلّا هذا الصغْر والضعف والشحّ، حتى في عدد الصفحات، فبعد ما كانت تقارب الـ ٤٥ صفحة، صارت ٣٥. وكلّما نويت اللقاء بهذا الحباب المحروس وفي إحدى الساعات من الصباح الباكر مثلاً وذلك لغرض إداري أو رسمي، أطللت عليه، لمحته من الأمام والخلف. يوقظني من غفوات ميمونة وأنا في قطار طائر أو طائرة نفّاثة فأحطّ يدي عليه وأحرسه في كيس كالحقيبة الصغيرة أعلّقها في رقبتي كالتميمة أو الدينْ الذي لا نعرف متى وقت سداده قطّ. اقتنيت هذا الكيس من سويقيّة الرباط العامرة بهذه الموديلات. ففي ساعات السفر أقول في سرّي: آه ما زال موجودًا بين ضلوعي وهو في حرز أمين. لم أكتف بذاك الكيس الكتّاني فقد تلف وكاد يتمزّق فأفقد نعمة حفظه من الزوال فاشتريت كيسًا من الجلد السميك الفاخر الذي اشتهرت به أسواق مراكش. كنت أحضّر لهذا المخلوق الحيّ أكثر منّي حيوات متعدّدة وإقامات مريحة وفي كثير من الأحيان كنّا نتبادل أطراف الأحاديث هو وأنا وفي بعض المرّات يتدخّل ابني أو صديقي أو صديقتي على هذا الخطّ. فأنا أرقبه وأرقيه من عيني الحسودة الماكرة وأريد حمايته أكثر من نظري وولدي الذي هجره وإلى الأبد ونال حظوة جنسيّتين مباركتين البريطانيّة والكنديّة. كانت إحدى منغّصات أسفاري وهي كثيرة هو، هو لا غير فهو جريء جدًّا، ومقدام، يستدعي جلّ الإجراءات المرّة التي يقال عنها ودائمًا ـ عاجلة واستثنائيّة.

في ملء الاستمارات من سفارات الدول العظمى والكبرى، وتلك الدول العربيّة التي ما زالت إلى اليوم لا تغضّ الطرف عنه، بل على العكس، تفلّيه وكأنّ داخل كلّ ورقة منه قنبلة موقوتة. في إحدى المرّات أخذه أحدهم وكان ذلك في أحد المطارات العربيّة، خرج إلى الساحة العامّة. وضعه تحت الشمس التي كانت شاحبة قليلاً وعاد بوجه أكثر وهنًا منّي لأنّه لم يعثر فيه على المراد.

متحف الحسرات

في أيّ يوم حملت هذا الجواز العراقي كان هو الأسوأ، كلّا، لم يكن سيّئًا فقط، وأنا لا أحبّذ أفعال التفضيل، ولكن بحدود علمي فأنا أستطيع أن أعلن أنّ هذه الوثيقة، بطلة شعبيّة فأكلّلها بالمجد من الغلاف إلى الغلاف. فمنذ منتصف ٢٠٠٦ إلى العام الماضي، وضعت كرّاسة ذات سطور منتظمة وحجم طويل وبدأت أدوّن الملاحظات بعدما رُفض تجديد الجواز بصورة قطعيّة إلّا باستحضار: هويّة الأحوال المدنيّة، الأصل، شهادة الجنسيّة العراقيّة؛ ـ الأصل، ـ وثيقة الزواج ـ الأصل ـ. أريحيّة هذا الأصل بدت لنا كلّنا مشفوعة بوصول قوّات الغزو والاحتلال إلى البلد ونهوض دولة الطوائف، وكلّ فرد في القنصليّة عندما أذهب إلى هناك لغرض إيجاد حلّ يردّد بكلمات دقيقة ومهذّبة:

ـ دبّري أمرك فنحن لا نستطيع عمل أيّ شيء لك ومن هنا، ليس من واجبنا استخراج تلك الشهادات ولا . . . إلخ.

كانت أمامي نزهات وقصاصات طويلة، فالزوج توفّي في حزيران من العام ٢٠٠٥ ولم تتكلّل لجاجاتي بعودة أبنائي الضالّين

الضائعين أو المختفين ـ الأوراق الأصليّة ما بين خزائن الزوجة الأخيرة أو العمّة المريضة بأيّ نجاح يذكر. لم أفهم هذا اللغز الذي يطالب، بعد ربع قرن من مواطنة لديها ثلاث جوازات كانت تتجدّد بصورة روتينيّة، استحضار جميع أوراقها الثبوتيّة بكونها كيت وكذا. بقيت الشكوك في جميع السياقات المتخيّلة والواقعيّة، تراودني لكي أكون كالعدوّ الذي يؤمن بخلود الخصومة بين الإناث والذكور، بين هذه الطائفة أو تلك، بين هذا النوع من الاستبداد وذاك إلخ. وكان الأمر المزعج فعلاً لأولي الأمر أنّ زوجي ليس من مذهبي، ووالدي من مدينة كيت وأمّي من مدينة كذا، وأنّني في قلب هجنة الحبكة الوحيدة التي كانت متقنة جدًّا ومحبوكة أكثر ممّا قمت بتدوينه من حبكات فاشلة وأنا أكتب رواياتي، وكلّ نبرة الارتياب في جميع ما أقدّمه للقنصليّة تتولّد من عدم تهرّبي قطّ بكوني عراقيّة مثل طفل القرد العاري الذي تعلّم بضعة آلاف من المفردات، لكنّ الكلمة التي بقيت تتوّج جبيني هي: الغضب الشاهق أو الساطع. يومذاك وبعد إلحاح مميت، تسلّمت كتابًا من القنصل العراقي الذي كان جدّ لطيف فعلاً ومفاده: «العدد ٢٦١، التاريخ السادس من حزيران من العام ٢٠٠٨. تؤيّد القنصليّة العراقيّة في باريس بأنّ السيّدة عالية ممدوح جميل (العراقيّة الجنسيّة) تقدّمت بطلب الحصول على جواز سفر جديد، وأنّ إصدار هذا الجواز يتطلّب تقديم شهادة الجنسيّة العراقيّة وهويّة الأحوال المدنيّة، وأنّ السيّدة عالية لا تملك... «القنصل عمّار محمّد داود».

اليوم عليّ أن أهدي هذا الكتاب بذات الكرم والأريحيّة إلى أصدقائي الذين علّموني ما أجهل عن بعض الحقوق، ووافقوا أن

يكونوا الأصدقاء النادرين والمستشارين في القانون والإدارات، في الوزارات والمؤسّسات الفرنسيّة، في التضامن والشجاعة، في الرعاية والتشجيع، وبفضلهم وحكمتهم، بجساراتهم وصبرهم معي وعليّ أعادوا الإيمان والثقة والبهجة لأيّامي الدكناء. كلّهم بدون استثناء، وفي مقدّمتهم اسم المحامي مسيو **Alain Dumesnil** فالأمر يلزم البدء به من الناحية الإجرائيّة والقانونيّة والأخلاقيّة؛ فهو الذي فتح لي أختام بعض القوانين بطريقة شديدة الصبر والحرفيّة. فهو قارئ ممتاز للأدب العربي، مثقّف ومتفهّم لشؤون العرب، فولده يعمل بالسلك الدبلوماسي في القاهرة. منذ منتصف التسعينيّات تعرّفت إليه عبر رولى النابلسي التي كانت تحضّر رسالة الدكتوراه في الأدب العربي في جامعة السوربون. لن أعمل قائمة وأضع في الخانات اسم عائشة أرناؤوط التي كانت تكتب وتناقش صيغ الخطابات مع عيسى مخلوف ومعي، تلك التي دفعنا بها إلى السادة الوزراء الفرنسيين: وزير العدل، وزير الداخليّة، وزيرة شؤون المهجّرين، وزير الثقافة، وإلى أمين معلوف، العربي الوحيد الذي لم يورّط أو يكلّف نفسه إلّا بالسكوت المبرم، على عكس المسؤولين جميعهم أجابوني بما يجب عليّ القيام به. كان صبر عائشة على لجاجتي فوق المعدّل لأيّة صداقة بين كائنين إنسانيّين، ونهلة الشهّال وهيلين سيكسو وفاروق مردم بك الذي كان وبقي دعمه لي بالرسائل الرسميّة عبر الدار المرموقة «أكت سود» لتعزيز موقفي ككاتبة تُرجم لها عدد من الروايات، وإقبال القزويني في برلين وإنعام كجه جي وهيمت محمّد علي ووفاء قاسم ونادرة الديب ورمزيّة نصر الله وسوسن سيف ومحمّد ممدوح ونادية

ممدوح... ستظهر الأسماء جميعًا كالروافع الفولاذيّة التي سحبتني من العتمة وشرّعت أمامي قوّة وسحر الصداقات التي ما إن أذكر اسم إحداهنّ أو أحدهم حتى أشعر أنّ رأسي يزداد رفعة لوجودهم في حياتي.

روايات تخصّصت بها وأنا أكتب مسودّة خطاب لوزيرة شؤون الهجرة الفرنسيّة، فيقوم الأصدقاء بالتخفيف من غلوائه الغاضب بالشفافيّة والحساسيّة الشعريّة من قبلهم. خطابات إلى من يهمّهم الأمر كانت تتولّاها نهلة الشهّال وهيلين سيكسو. كنت أوزّع أعبائي وإزعاجاتي على الجميع. وها أنا اليوم أقدّمهم لقلبي وبالدرجة الأولى، فربّما هنّ / هم لن يوافقوا على ذكر أسماء شخصيّاتهم التي وضعتها ويدون ألقابهم الاعتباريّة. فأنا أتحدّث عنهم بقانون واحد لا غير: الصداقة. أروي الحكايات تباعًا بكلام ما زلت أشعر أنّني بكماء إزاء اتّساع صدورهم ليأسي وارتعابي. كانوا طوق نجاة في زمهرير العلاقات البشريّة في الغرب والشرق. مع أهل البيت هناك في تلك البلاد، بيتي وأهالي بيوت الجيران والأبعد قليلاً. سترد القصّة والقصص بخطى واسعة وأستطيع ألّا أصل إلى النهايات، أو لا أسمح بالوصول إليها فبعضهم دفع باحتضاري النفسي بعيدًا بصمت مريب وتواطؤ غريب وهدوء خارق للعادة أيضًا.

بيت الغبار الناعم

كان الملفّ الذي خاطبت المحامي من أجله يتكوّن من ورقة واحدة يتيمة، هكذا تصوّرت في البداية بعدما أرسلت شهادة القنصل إليه عبر النت. لكنّي شعرت أنّ هذا الاستشهاد فتيله سريع الانطفاء، وما عليّ إلّا تزويده بعض الوثائق قبل أن يطلبها. فمنذ عقود وأنا أسير في جميع خطوات حياتي وحسب العقيدة الڤيتناميّة الحكيمة التي تقول: حوّلوا الأشياء المدمّرة إلى أمور نافعة. بالتأكيد هناك من تمّ تدميره بسقوف عالية أكثر وأشقى منّي، لكنّي في ذلك الوقت، قد بدأ تهشيم جهاز المناعة لديّ، وصار الضغط العصبي يتمدّد ويتوسّع كهربائيًّا على جميع تحكّمات ردود أفعالي، فشعرت أنّني أتغذّى من التدمير على مستويات عدّة. وضعت السلّم الحديديّ وبدأت بالصعود العجول كعادتي على درجاته، إلى حيث تقيم الملفّات والأكياس الثخينة فوق خزانة ثيابي. كان هناك تراث من الغبار الأملس الذي ما إن أبدأ بمسحه بفوطة نديّة حتى أراها كالفحم. تقع شقّتي في الطابق الأرضي. هي في قاع العمارة وهذا الأمر فكاهي وسوف أسرده فيما بعد. كنت آخذ دروسًا خصوصيّة

على أدوار الخروج من قاع الملفّات والأكياس التي كتبت فوقها بالحبر الصيني وبحروف أكبر من عيني الصغيرتين لكي لا أغلط في تمييزها.

أمرّ على الغبار بيدي فأرى طبعة أصابعي وأبدأ بالسعال الشديد حين تهبّ بوجهي سيول الحساسيّة التي أُصبت بها منذ هجرتي الأولى لبيروت في بداية السبعينيّات، فأدخل نوبات من السعال والعطاس الشديدين. ياه، كم لديّ من أكياس وملفّات من تلك البلاد، من المملكة المغربيّة والمملكة المتّحدة وكندا، من الكمبارس وأولئك الأكثر حميميّة من الصديقات والأصدقاء.

ارتفعت معنويّاتي قليلاً وأنا أمسك بحديد السلّم لكي لا أسقط وبيدي تلك الأكياس، أزيح وأدفع، ثم أرمي إلى أرض الغرفة الخشبي كيسًا بعد الآخر والغبار يتطاير في وجهي وأمامي. كنت أشكّ في كلّ شيء إلّا هذه الأكياس وحفنات الغبار المدهش في تهذيبه، على العكس من غبارنا العراقي الذي ندفن تحته، فهو مستبدّ مثل حكّامنا، لونه أحمر فصار جزءًا من التاريخ ورسم حدودنا مع الأقاليم الأخرى، وعلى العموم صار غبارهم ـ اليوم ـ يشبه عارنا بعد أن شغل كلّ حيّز في الواقع والمخيّلة؛ فهو يكتب تاريخ العراق بعد تمدّد الغازات والسموم المحظورة دوليًّا، وها أنا أحبّ الطواف ما بين الغبار الفرنسي المهذّب قليلاً لكي أتحرّر من سأم غباري العراقي الأوّل. فأفتح ثغرة ويظهر أمامي ملفّ المغرب وتلك البلدة المشرّعة أمام لسان المحيط الأطلسي. حنان الشيخ حين تكتب وتبعث لي برواياتها تردّد قائلة: اسم بلدة «الهرهورة» حيث تقيمين تذكّرني بألف ليلة وليلة وما إن أكتب اسمها على

الظّرف حتى أشعر أنّني أفتح أحد أبواب علي بابا . . . ملفّ أرض الأسلاف ورسائل ذلك المحبوب بخطّه الجميل الشديد البأس، الكثير الاعتداد بالنفس. وصولات نقابة الصحفيّين العراقيّين وأنا أشغل منصب رئيسة تحرير تلك المطبوعة المذمومة والملعونة من قبل الذي اشتغل فيها ليوم أو يومين، أو تمنّى المرور في قسم من أقسامها وكانوا من أقصى اليسار والوسط، ومن الجهات الأربع.
وها أنا أبدو كمن يقف أمام قاضي القضاة قائلة: أقسم بالله العظيم أقول الحقّ ولا غير الحقّ. لن أخلط التواريخ ولا أخترع ساعات جديدة. فلا ساعة تقيس أوقات العراقيّين وأمكنتهم. بين الرقّاص الذي دمّر في الـ ٦٧ وبدء النضال الفلسطيني في الغور والجنوب اللبناني والذي سيؤثّر على مجموعة حيوات من العراقيّين فيما بعد، ثم في بدء الانهيارات التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه اليوم. قائمة طويلة من شعراء وكتّاب ورسّامين وخطّاطين، صعاليك ومجانين، خصوم وغرباء، أحبّاء وأصدقاء ما زال بعضهم يغمس في حبرها خبزه الطيّب فيأكل ونأكل معه اللقمة غير الخبيثة. واليوم لا أستطيع امتلاك ذلك الماضي إلّا ومعي البعض من أولئك الأنارشيّين المصابين بتضخّم الشخصيّة، المتحرّرين من مجموع ما لا يملكون، الأنانيّين المشاغبين، الملحدين الكافرين بالعائلة، بالسلطة، بالوظائف، بالجاه والوجاهة وأحيانًا نادرة بالفلوس، الجشعين للتخدير والغيبوبة ومن أيّ مصدر جاءت بالفظاظة أو السوقيّة أو الابتذال، المترجرجين بين مدارس الحداثة وما بعدها، المدمّرين لجميع الواجبات والقوانين والأعراف، والذين كانوا وكأنّهم يتناوبون النوم مع امرأة واحدة من شدّة تماثل التجارب الفنّيّة

والإبداعيّة لديهم. أولئك الأعداء الصرحاء، والأصدقاء الخونة الذين لطالما اصطفّوا وراء ماو وغيفارا، ماركس، باكونين، تروتسكي بالطبع. قوائم دخلت وخرجت، كتبت ونشرت وشطب الكثير من مفرداتها. وقفوا تحت مشارف الأفكار الكبرى والتيّارات الفلسفيّة، المدارس الفكريّة والإيدلوجيّات المتطرّفة والمذاهب التي لم يسمع بها إلّا النخبة، فلم يشعروا لا بالرهبة ولا بالتنميط. يقون على لحوم بطونهم الساعات والأيّام والليالي بين دخان السجائر القويّة والسهاد الطويل الذي يقرّح جفونهم الغضّة، فيتقاتلون ويتشاجرون إلى ما لا نهاية، وإلى هذه الساعة. من الجائز أنّ العراقي هو أحد المخلوقات البشريّة التي علّموها أنّ الأيديولوجيا وحدها ولا غير هي الأهمّ، وهي التي تهمّ، وهي التي تعطي الجواب لكلّ شيء، حتى بعد فكّ السرّ عن ذلك النظام الفولاذي ـ الاتّحاد السوفياتي ـ أتعوّذ من الشيطان الرجيم لأنّني لم أكن على دراية دقيقة أنّني كنت مكروهة وتثير الشجار والتعارك فنوصم من قبل عبد القادر الجنابي، نحن، أنا وسعدي يوسف وشوقي عبد الأمير بـ «العار» في مجلّة «إيلاف» الإلكترونيّة. ما زلت أمتلك حقّ استضافته أمام القضاء الفرنسي بتهمة القذف والسبّ، أظنّ اليوم أنّه لم يحتمل منحنا أنا وزوجي صاحب امتياز تلك المطبوعة، إيّاه الشهادة للعمل خارج العراق وتزويدنا ومن الخارج التقارير الصحافيّة والتراجم. فلولا تلك الشهادة لما استطاع الخروج ممّا كان يسمّيه الجحيم وشتمي أيضًا. أمّا البعض الآخر فقد كان يستوفي شروط البغض والتخوين مرتجلاً معارك حقيقيّة دارت وما زالت بسبب المذهب والمنطقة والمدينة حابسًا نفسه في تلك

المفاهيم كأيّ عبد. جميع الأطراف والأحزاب. وها أنا أتذكّر كلام وإلحاح الصديقات والأصدقاء وإلحاحهم الكتابة عن تلك المطبوعة الأسبوعيّة: الراصد التي كانت تثير السخط والحنق وما زالت لليوم. فقد نشرت على سبيل المثال ونقلاً عن مجلّة «الآداب» اللبنانيّة أجمل خطبة دفاع عن حرّيّة الفنّ ألقاها فيدل كاسترو في مؤتمر المثقّفين في هاڤانا ١٩٦٣ يدين فيها الجدانوفيّة، ثم أثارت الراصد أيضًا دويًّا ما زال صداه إلى هذه الساعة لدى الحزب الشيوعي العراقي، وذلك لنشرها وقائع بداية الخصومة وإعلان الحرب عليه بعدما كان يشغل دور الحليف في الجبهة الوطنيّة والتقدّميّة. وها أنا أتذكّر بعض الأسماء، بعدما استعنت ببعض الأصدقاء الذين تقدّموا وثابروا فوصل بعضهم لرئاسة التحرير كغسّان شربل رئيس تحرير صحيفة «الحياة» الذائعة الصيت ومن تأهّل منهم أكاديميًّا وإعلاميًّا فنال لقب الدكتور والأستاذ في جامعة بغداد كفوزي الهنداوي. تكرّموا عليّ وتذكّروا قسمًا ممّن سيرد ذكرهم، وبعضهم تناسوا، وبعضهم لم يجيبوا أصلاً، فالحقيقة، الأسماء كثيرة ومتعدّدة ومتناقضة، ومعظمهم من الشيوعيّين واليساريّين والبعثيّين والمستقلّين كما نحن العراقيّين: ماجد عبد الرضا، عزيز السيّد جاسم، مؤيّد الراوي، شفيق الكمالي، جان دمو، حميد سعيد، إبراهيم زاير داوم وحرد، ثم غادر إلى بيروت وانضمّ إلى المقاومة الفلسطينيّة في الجنوب اللبناني ثم انتحر، وصباح اللامي الذي يشغل حاليًّا منصب رئيس تحرير إحدى الصحف البغداديّة وهو الذي قدّم لي عونًا كبيرًا بكرم جميل وتعليقات غاية في الذكاء والفطنة حول كلّ من مرّ واشتغل، فأنعش

ذاكرتي التي غارت من حيويّة ذاكرته وعبد الجيّار عبّاس، منير العكش، عادل عبد الجبّار، فاضل عبّاس هادي، مجيد ياسين، حميد ياسين، صادق الصايغ، عبد القادر الشاوي. سليم بصون (يهودي)، فوزي كريم، وارد بدر السالم، عارف علوان، حمزة مصطفى، جمعة اللامي، كاظم جياد، فخري كريم، زهير الدجيلي، جاسم المطير الذي زوّدني بعض الأسماء أيضًا، عبد القادر الجنابي، صبري الربيعي، حسين عجة، عمران القيسي، محمّد الجزائري، لؤي رشيد، ضياء عبد الرزّاق حسن، محسن خليل، عدنان العامري، عبد الرحمٰن البكري، فخري عبّاس، حسين الفلاحي، محمّد الرديني، إبراهيم الحريري، محمّد عبد المجيد، شريف الربيعي، موفّق خضر، غازي العبادي، خالد الحلّي، خالد الراوي، زيد الحلّي، جليل القيسي، عبد الأمير كاظم الشريفي، إبراهيم عبد الرحمٰن، إبراهيم أحمد وآخرين.

و. . . أسماء صالت وجالت، شتمت وامتدحت، نافقت وغدرت، مرّت ليوم واحد أو أسبوع أو عام. شغلت منصب مدير التحرير، أو قامت بالتصميم والخطّ، وختلت في قسم الأرشيف، أو وُضعت في بريد القرّاء، أو ظهرت في الكتابة الأسبوعيّة أو المسؤوليّة الإعلاميّة. هبّ كلّ ذلك الأسى الشفيف والمقيم بين ضلوعي وهذه الدراما التي ما زلت أدوّن فصولها لليوم. وكلّ هذا الحزن المهول لمن غاب وأقفلت أجفانه يد آثمة. كالمنوّمة مغناطيسيًّا أسحب ملفًّا وراء آخر. ها، وهذا ملفّ كاردف عاصمة مقاطعة ويلز حيث درس عبد اللطيف، ابني، رسائله وأوراقه وبعض نصوصه الشعريّة بالإنكليزيّة. ومسيو دومسيل سيحضر في الساعة

السادسة والنصف، قال لي مضيفًا في آخر مكالمة هاتفيّة:

ـ أريد جميع أوراقك، حسنًا، فلتكن غير الأصليّة.

سكت قليلاً ثم سأل:

ـ هل هي مترجمة لدى مترجم معتمد من قبل بلديّة الحيّ الذي تقيمين فيه؟

ـ نعم.

ـ إذًا جميع ما لديك من صور عن الوثائق زائد أوراق ملكيّة الشقّة، الكهرباء، صورة عن الضرائب للسنين الثلاث الأخيرة، جواز السفر وبطاقة الإقامة.. إلخ.

وضعت أسئلة شبه أدبيّة لكن إقبال القزويني في برلين، هيّأت لي أنواعًا من الأسئلة الحرفيّة ذات الصيغ القانونيّة وهي تضيف في الهاتف:

ـ شهادة القنصليّة العراقيّة ستكون بداية الانطلاق في رأيي. هي ستوضع في الاعتبار، وفي ضوئها سيتحرّك، لا تقلقي. إنّه يعرف ما يفعل.

كانت إطلالته جدّ مريحة تبعث على الثقة التامّة، هكذا بعض البشر يحملون هذه الكاريزما في فنون بثّ الطمأنينة، وهذا الرجل واحد منهم. لمّا قرأ الترجمة الفرنسيّة لرسالة القنصل العراقي قال حالاً:

ـ عال من هذه الورقة يكون البدء.

ـ البدء بماذا؟

ـ أريد ثلاثة شهود يشهدون بأنّك فلانة بنت فلان وأنّك ابنة فلان وفلانة وزوجة لفلان وأمّ لفلان. . وأنّ جواز سفرك العراقي السابق واللاحق هو هو لم تعبث به يد. . أو. .

كان يتحدّث بصوت رخيم وودود. بغتة، وعلى جناح السرعة حضرت وجوه وقامات وأهواء وأذواق وأمزجة جميع من أعرف من الأصدقاء الموتى. آه، جاءك الموت يا تارك جميع أنواع الصلاة. يبدو الأمر الآن في غاية التشويش والإثارة. هذه ليست رواية يشغل التخيّيل فيها الحيّز الأكبر. هذه حياتي تنبثق أمامي بدون توريات أو استعارات. الحكم على الغير وبهذا الحجم كلعبة البوكر أو الرهان على الخيل الأصيلة والأصليّة، ليس بوسع الجميع من يمتلك موهبة الوصول إلى هذا الرهان واللعب بكلّ رصيده الروحي. هي مسألة دقيقة وحسّاسة، لم أتوقّع في أيّ يوم من الأيّام أن أوضع في هذا الفحص والاتّهام أيضًا. فهل الذي سيتلكّأ وبالتالي سيرفض هو الذي لا يعرفني تمامًا والعكس صحيح؟ هناك من ينكر الماضي من الأصدقاء، وبعضهم من يتّهم الحاضر. بعض البشر يحضر ومعه رفعة ثقتنا به، هكذا، كيمياء بشريّة أو خلقة إلٰهيّة، لا أعلم أبدًا. والبعض، يسرع في تشويش ثقتك به لأيّ سبب من الأسباب حتى تحضر اللحظة الفارقة فتدرك أنّ الصداقة أصلاً غير متوفّرة بالقدر الملائم، وأنّها متصدّعة منذ البدء. لكنّها كانت تنتظر الوقت المناسب. دائمًا هناك وقت كافٍ لأفول الصداقة المريضة، الحاشدة بالسقم، ودائمًا، على الأقلّ من جانبي، كنت أحاول التماس الأعذار لهم كما أودّ فعل هذا معي.

سألت المحامي بصوت بعيد:

ـ هل يجوز أن يكون الشاهد من خارج فرنسا؟

ـ كلّا.

كنت فكّرت بإقبال القزويني وفاروق يوسف، الأولى في برلين والثاني في السويد، لكنّ الاثنين تعرّفت إليهما خارج البلد وأثق بهما. إذًا تنتظرني جولات. فأين أعثر على بلقيس الراوي اليوم؟ هيلين سيكسو فرنسيّة، نهلة الشهّال لبنانيّة. شعرت أنّ بعضًا من خصلات شعري صارت بيضاء. إنّ مثل هذه الشهادة في حقّ الغير مجابهة مع الوجدان ولن تمحوها أيّة ممحاة. لم أذكر أمام المحامي أيّ شيء، لكنّني كنت أنود برأسي مردّدة اللاشيء.

ـ أريد صور جوازات سفرهم العراقي أو الفرنسي أو.. ورسالة بخطّهم بالمعنى الذي سأبعث به لك عن طريق النت.

استحيت من سؤاله، كيف هي طريقة دفع أجوره. كان يعرف عيشي المتقشّف جيّدًا، من هنا كانت بعض أواصر الصداقات تدوم حتى لو لم يتمّ اللقاء، وأنّ بعض الأصدقاء والصديقات يملكون جميع مواهب العون البشري الذي لا نظير له.

ـ سنجمع هذه الشهادات ونذهب معًا ونقف ونشهد أمام كاتب العدل. هناك سيقسم الأصدقاء على وثوقيّة المعلومات التي ذكرتها...

ـ وبعد؟

ـ سنقدم لطلب اللجوء الإنساني من مؤسّسة الـ.. OFPRA. لا تقلقي، أنا الذي سأتولّى جميع ما يتعلّق بهذه المؤسّسة... و...

كان يحمل ملفًّا لونه أخضر كامد وعليه طمغات الأصابع واللاستيك استعمل كثيرًا حتى ارتخى تمامًا. فتحه ووضع كلّ الوثائق التي حضّرتها. يفحص ويصفن بطريقة تخيفني، هنا وأمامه كان خوفي مستبدًّا بداء الوطن الذي بدأت الإصابة به من هناك. بقيت رحمة وعدالة مسيو ألن صافية في عالمي ذاك، فهو لا يشيد قصرًا في الهواء، ولا يعبر نهرًا مرّتين، ولا يمنح حلمًا قريبًا. رجل قانون صارم، حازم وكيّس ومتفهّم وحنون بصمته حتى. كنت أشعر وأنا في حضرته أو حضرة جميع الصديقات، أن ليس هناك أيّ مستحيل. الإيحاء بالثقة بك أو بالغير هو حجّة وجوهر ولغز الصداقة.

ـ وكم تستغرق جميع هذه الإجراءات في نظرك؟

ـ ليست طويلة. هي بالأصل تتعلّق بأصحابك. الباقي ضبط المواعيد مع كاتب العدل.

ـ وكم تكلّف مادّيًّا؟

ـ أتعابي معفاة معك كالعادة... إذا ترجمت رواية جديدة لك أريد نسختي كما في «النفتالين» و«الولع». أمّا كاتب العدل، أظنّ لست متأكّدًا، فسيتقاضى ما يقارب الـ ٧٠٠ يورو.

بيوت الأصدقاء

لا يجوز الرهان على أحد. كلمة الرهان سلبيّة ولا أودّ استضافتها هنا، لكنّني سرت في هذا الطريق وحين نفخت في البوق على أوّل صديقة ـ أ أ ـ كنت أجلس هادئة في بيتي وأنا أردّد: آه، ضمنت الرقم الأوّل.

حين قالت لي:

ـ بلى، وبدون تردّد. بالطبع سوف أشهد إلخ.

كان الرقم الثاني: ـ ح ع ـ أبدى نوعًا من التأفّف مردّدًا:

ـ علينا الذهاب للقنصليّة العراقيّة للتأكّد من جميع ما تفوّهِت به.

شاهد الكتاب الرسمي الصادر من القنصليّة، لكنّه أصرّ فقلت له:

ـ حاضر. هل تودّ الذهاب إلى هناك ومعنا شاهد آخر؟

ـ يا حبّذا. أجاب.

سألته:

ـ هل تودّ الاتّصال بالمحامي شخصيًّا لكي تعرف بالضبط ما هو المطلوب؟

طلبت الرقم وتحادثنا. كنت أنظر وأسمع جيّدًا. كان أمامي الكثير لكي أتعلّمه. قلتُ، لا بأس، بالكاد يثق الآخر بي ومنشأ ذلك ليس عيبًا في شخصيّاتنا كعراقيّين. هي أهوال السياسة، غواية هذا الحزب الـ. ضدّ ذاك، لا تسامح هذه الطائفة مع تلك، أو هو عناد الذكورة ضدّ غنج الأنوثة، لـمَ لا؟ بدأ المشهد بهذه الصورة وكأنّنا أمام شريط سينمائي، وهذه لقطة زووم والصديقة أأ ـ حين طُلب جواز سفرها أو صورة منه، قالت بين الجدّ والمزاح:

ـ وما أدراني أنّك عراقيّة أصلاً؟

اختفت حين وصل الأمر لوثيقة السفر والشهادة إلخ.

أمّا ح ع ـ فقد ازداد تذمّرًا وبعد عودتنا من السفارة العراقيّة ودقّة ما سمعه منّي ووضوحه، وما تأكّد منه أمام موظّفة القنصليّة الرسميّة. كانت معنا في هذه التجربة جميعًا سوسن سيف. رفض الاستمرار بدون إبداء الأسباب. استدرت على عقبيّ، ياه، كم اللغة العربيّة نفيسة، وأنا أقصد إنعام كجه جي، هيمت محمّد علي وسوسن سيف. هذه هي أعجوبة العراق ذاته عندما ترتفع ثلاث ديانات، وثلاث قوميّات: النصرانيّة والمندائيّة والإسلاميّة. إنعام التي التقيتها أوّل مرّة في لبنان إبان سبعينيّات القرن الماضي هي إحدى المحبوبات في الرواية والحياة. من ذلك الماضي الذي يوازي هذا الحاضر. لم تراجع نفسها ثانية واحدة. ولم تبد أيّة ملحوظة، ولا تصرّفت كبطلة مغوارة. لكن، ونحن نصعد عتبة باب

العمارة التي سيستقبلنا فيها كاتب العدل، وقفتْ ووقفتُ معها وهي تقول:

ـ اسمعي، لو كان المطلوب منّي شهادة زور سأفعلها لكي تتخلّصي من هذا الكرب الطويل ولو أعرف أنّك لست في حاجة لذلك.

لقد أضعنا في الطريق والدينا، أو أضاعنا الآخر، لا فرق، الكثير من الأسماء والعناوين، من الصاحبات المنسحبات المتواريات وأيضًا من الأصحاب... هي قصصنا نحن أبناء حوّاء وآدم، على الخصوص في المهجر، حين تصير الصداقات الحقيقيّة هي صحّتنا النفسيّة والروحيّة ضد الدمامة والبغض والتفاهة. هي كلّ قصّة يمكن أن نرويها وعلينا ألّا نشكّ بها، لذاك الصديق الذي علينا أن نلتمس له عذرًا إذا غاب أو اعتزل أو توحّد أو صمت أو... فلا أحد يملأ غياب أيّ أحد بالمطلق أو ملء الفجوة التي لم تردم حتى هذه اللحظة.

في بيت سوسن سيف المندائيّة، لقيت حنانًا أفسدني في بعض الأحيان من قوّته وسخائه. جارتي هي وكنّا معًا نتبادل أقداح الشجن ممّا حصل لنا ولهويّاتنا وأوراقنا الثبوتيّة، وعلاقتنا مع سفارة بلدنا. كانت أحاديثنا عن الأوراق التالفة أكثر من التحدّث عن اللون والأصباغ المائيّة أو اللوحات أو المعارض التي كنّا نرتادها. بقيت سوسن كآلة تطريز حديثة ورحيمة. وبدون أيّ كسل تردّد وهي تضحك:

ـ لا تهتمّي أنا معك. سأرسم للمحامي لوحات عدّة. ما إن

نهدي إليه الأولى حتى نلحقها بالثانية فالثالة لحين ما تنتهي المحنة.

كانت تواسي بطريقة حقيقيّة وتدعو لي باسم أجدادها الأنبياء العراقيّين الأوائل وبوجد صوفي حقيقي هي تؤمن به بطريقة جدّ ساحرة فلا تحمّلك المنّة. تقرأ الدعوات التي تصلني من ومن فتختزل الأمر باللوحة الأولى وأنا أذكر ذلك لمسيو ألن الذي يكرّر امتنانه. وأذكر أنّ المعسكر ينتظر الشخص الثالث. هكذا تحصل الأمور، ويحضر عبق بعض الأشخاص داخل رؤوسنا، نحن الذين نتقصّى ونتوغّل هناك للبحث عن بارقة رجاء. نبّهني فاروق يوسف إلى هيمت محمّد علي من فيلق الأكراد، الشغوف بالكلام المتقشّف، والتطوّع بالقتال على أرضيّة إنسانيّة رحبة لا تُختصر بأيّة كلمات عجيبة كان خدّاه يتورّدان كأنّه مصاب بالحمّى ونحن وجهًا لوجه قائلاً:

ـ أيّ تمام، سأوّقع على أيّة ورقة تريدين. الجواز صورته وسأبعث به إلى بريدك الإلكتروني، أيّ شيء تريدين أنا حاضر.

لم أعثر على كلمات، وسرعان ما انضممت إليهم أنا أيضًا كأقلّيّة متخصّصة في شؤون الأقلّيّات الخلاسيّات، المهجّنات، المضمّخات بالأريج والحنو والحماسة. بسبب اختلافات الأمزجة والذائقة، الدين والقوميّة، الأطوار والأعمار، على قدر جميع تلك الفروق وغيرها، وبمقتضى الأحوال التاريخيّة والجغرافيّة، كانت حشمة أرواح هؤلاء تدخلني مدخل ذاك العراق...

المحطّة الأخيرة

OFPRA

كان الملفّ يتطوّر ويحتشد بالأوراق والصور والتواقيع بيني وبين المحامي، حتى يتمّ الوقوف أمام كاتب العدل، وحضور الأصدقاء والصديقات في اليوم والدقيقة والساعة تاركين أشغالهم ومواعيدهم، وأنا صوتي كان يختنق ويختفي في بعض الأحيان. فهيلين ونهلة في الجانب الآخر من المرآة تتحادثان مع المحامي وتقفان على جميع الخطوات وتنقلان لي بعض التغيّرات في هذه الخطوة أو تلك. . . وأسجّل بدوري المعلومات في الكرّاسة نفسها قبل كلّ هذا وذاك وفي أثنائه وبعده. كيف يكون المرء بالمعنى الدقيق للكلمة؛ قد تمّ الاستغناء عنه جسمًا واسمًا وعقلاً بالصورة القانونيّة؟ وكيف ها نحن نحاول إعادة خلقي ثانية وبواسطة قوّة وبهاء الصداقة والفنّ والكتابة. في الحروب الحديثة الكبرى التي حلّت بأوروبا اختفت ملايين العقود والوثائق والرسوم والأسماء والتواريخ للموتى والذين بقوا أحياء، هكذا تقول القصص الباقية إلى يومنا هذا، وهكذا اتّبعت ذات القصص والحكايات مجدّدًا في

إعادة توثيق الأبناء والأحفاد. . . إلخ بدوت بلا أسانيد قانونيّة ولا مرجعيّات إلّا رواياتي التي كتبتها واستقرّت ببنيتها وأشخاصها، بلغتها ومصائر شخصيّاتها. ففيها نظّمت ووثّقت لحقبة من ستينيّات القرن المنقضي من العراق في «النفتالين»، وفي سبعينيّات القرن الماضي وحزب البعث الحاكم وعرس الواويّة بين البعثيّين والشيوعيّين في «الغلامة» ـ وفي الهجرة والاقتلاع للولد والوالدة في ـ الولع ـ هذه ثلاثيّة نظّمت لي خطّ سيري ما بين حارات وأزقّة أحياء الأعظميّة، والمنصور، حيّ الجامعة وشارع فلسطين والجامعة المستنصريّة، والطبيبة النسائيّة سعاد اسماعيل فتّاح، وجرّاح العظام سعد الراوي، والأسنان صميم جلال، والمسناية التي كنّا نطلّ منها على دجلة في بيت بلقيس الراوي في حيّ السفينة أمام دجلة. وحادث مقتل صبيحة في رواية «الغلامة» عندما اكتشفها الغلمان بين صخور دجلة، وفي الأعظميّة أيضًا. من الجائز أنّ الكاتبة تظنّ أنّ المدينة بحاجة إليها في إحدى السنوات لكي تبوّب وتضبط معارفها هي شخصيًا بذاتها وبنسيج المدينة بالدرجة الأولى. تؤرّخ لتاريخ العوائل، بعض النخب، الأنساب، أوقات سير القطارات وتوقّفها في تلك المحطّات البعيدة البائسة لكنّها، تلك التي لا تعوّض، ونحن نكتب عن العلاقات السرّيّة بين الذكور والإناث خارج أريكة التحليل النفسي ومصطلحات أوديب، وآخر تلك التبعات الرمزيّة التي لم تساعدني في شيء سوى مضاعفة إحساسي بالارتباك الممتدّ عبر الزمن العراقي. ويوم قدّمنا الملفّ إلى مؤسّسة الـ. . . هنا كنت بحاجة إلى آباء الطبّ في التحليل والعلاج النفسي في تلك الشجرة الأوروبيّة المعقّدة والمتشابكة

بأوضاع مؤلمة كوضعيّتي كوني عربيّة ومسلمة على سبيل المثال.

كانت رنا إدريس قد زوّدتني خطابًا بالفرنسيّة مهمًّا وحاسمًا عمّا كان يصلها من أقاويل مضادّة بعد نشرها رواية «التشهّي» كما كانت شتائم وسباب البعض وعبر صفحات الصحف قد حملت تحريضًا وتهديدًا لحياتي، فصوّرتها وضممتها للملفّ الثخين الذي سيقدّم للاوفرا، وملفًّا لما كتب عن أعمالي وبعدة لغات أجنبيّة. . . كنت أمثّل نفسي ولا شيء غيرها. فأنا لا أمتلك سواها، وهذا أمر جدّ مزعج لأنّه يجافي المؤسّسات والمرجعيّات وإذ تذكّرت لقبي اللطيف أصلاً ـ ناشز وباعتراف مؤسّسة قضائيّة عراقيّة: فأنا أصلاً، أعيش خارج صيرورة قوانين الطاعة لجميع المؤسّسات العراقيّة وعلى رأسها المؤسّسة الزوجيّة. ولست ضالعة مع أيّة جهة حزبيّة أيًّا كان لونها ونهجها وجبروتها. فكنت أناقض ما هو متوافر في بازار السفاسف ممّا كان يصادفني من نعوت اللاوطنيّة واضطراب الحمية الوجدانيّة فوصلت إلى مديات شديدة الغلو والتزمّت والإقصاء لم أفهم فحواها لليوم كما هو حاصل بين نخب المعارضة والمستقلّين في الدول العربيّة في وقتنا الحاضر إلخ. . . بقيت إلى اللحظة خارج جميع التحالفات والشلل. ومنذ العام ١٩٨٢ لليوم لم يكن يعنيني لا فلان ولا علّان. كنت أشتغل على إيجاد الحلول لحالي، لمعارفي، لمخاوفي، لضعفي وهشاشتي، وبالدرجة الأولى لما تعرّضت له من صنوف القهر والتخوين في تلك المدينة، بغداد القاهرة، ولم أكن أريد إلّا البقاء على سجلّ الاحتياطي للوصول لمحطّة بغداد الأخيرة. وعندما وصلني خطاب ـ الأوفرا ـ بأنّ المقابلة ستتمّ في اليوم المحدّد من العام. . . كان المحامي قد

سبقني، وطلب لي مترجمًا عربيًّا ليفكّك عقد لعثمتي اللغويّة. فهناك في تلك المؤسّسة المخيفة التي ذكّرتني أوّل ما وصلتها بكافكا. ياه، كم مرّة حضر هذا الكاتب معي ورافقني؟ كم مرّة تولّى أمري دون باقي الكتّاب؟ كم جدّد لي حججي أنا الأقلِّيّة أيضًا مثله كيهودي؟ وكم ارتبطت به في توضيح بعض الأحداث التي واجهتني؟ فها أنا وجهًا لوجه أمامهم كلّهم، الإدارات الغربيّة الكلاسيكيّة المتمثّلة بالأخذ بمبادئ اللجوء، وليس كما اتّفق بالطبع، فهذا يتطلّب وضعًا قانونيًّا بالملميتر. كان حدثًا كبيرًا بالنسبة لي. لم أكن أتصوّر أنّني سأواجهه كمفصل مصيري بصعوبة وثقل، وآليّات الأسئلة التي وُجّهت إليّ. الرجل الذي يستقبلنا منذ انفراج الباب انفراجة جدّ صغيرة لا تسمح إلّا لوجه واحد لا تعرف متى يجيء دورك. فالطابور أمامنا طويل لكنّه كان يتحرّك بسرعة. أنواع من الرجال نراهم في وجوهم التي لا تعرف التعبير عن أيّ شيء، لا على الرضا ولا الحنق ولا السأم. سحناتهم كامدة، وعبوسة. كلّ واحد منّا كان يمشي وراء هذا أو ذاك. كنت أفتّش عن وجه المحامي وكأنّني أبحث عن عقلي لكنّي لم أره. هنا تذكّرت مسرحيّة عادل أمام «شاهد ما شفش حاجة» أنا أحاول الابتسام حين كدت أسأل الرجل الذي صحبني وراءه:

ـ أنا اسمي مكتوب؟

ـ أيوه مكتوب.

ـ طيييب...

بيت الخوف المعتّق

الاسم واللقب في بلاد العرب هما نوعان من المعتقل. ثيمة كاشفة عن العصي التي ضُربت بها أو رُفعت في وجهك. جلست، جلسنا جميعًا. هذا مكان خاصّ بالحجز. هو نوع من المستشفى بمعنى من المعاني. هنا يحطّ المرء في طريقه إلى فكّ الحظر أو الاستسلام للتيه، أو يؤخذ إلى أبعد من ذلك، إلى الحمق. قلعة فولاذيّة هذا المكان. ألم تشاهدوا فيلم «المحاكمة» إذًا سلّموا أمركم إلى ذلك الضوء، والذراع التي ترفع في وجهك. لا سبل متعدّدة أمامك إلّا هذا اللايقين، وأنت لا تخفي ذلك الشعور بانتظار الخسارة. حين نودي بالميكرفون على رقمي الذي أحمله: ٨٧. الرّقم ورقة جدّ رقيقة لكن مدلوله صلب. لماذا يوزّع وينفق علينا بلدنا كلّ هذا الجنون؟ ولماذا يلعب معنا ويطلق سراح مطارديه لكي نغادر، نغادره، ونغادر أوراقه وسجلّاته ووثائقه، فينحني ظهرنا ونحن نلمّ شتات الأوراق كما الأنفاس والدموع حتى صارت الحمولة وقائع يوميّة لا نقوى عليها وربّما تصلح أن يكون تدوينها أفضل هكذا على الاستعانة بتخيّلها. لقد تحقّق كلّ هذا وأنا

أدخل غرفة صغيرة مضاءة ومحاطة بجدران عارية. كانت الساعة في حدود الثالثة. الرجل الفرنسي خمسينيّ، أشار بيده عليّ بالجلوس. لم يكن صارمًا، لكنّه ثابت الجنان. على يمينه رجل آخر، من المفردة الأولى التي نطق بها توضّحت لهجته العراقيّة المغسولة بمياه كثيرة بفعل اللغات واللهجات التي يتداولها ويتحدّث بها. تذكّرت صبيحة التي غدر بها الحرس القومي في الثلاثة والستّين في النادي الأولمبي عندما واجهت مجموعة من الرجال الذين استجوبوها. أنا أيضًا كنت أرابط في تلك البقعة من أرض الغال، بين قوم لا أعرفهم. رجلان أقع تحت أنظارهما وعليّ ألّا أخطئ الهدف الذي يعني: أنا. خوفي كان نديمي وخليلي أسمع وجيبه ولا أناور عليه. إنّني هنا أمثّل دوري ويجب أن يكون على الوجه الأكمل. لم أكن فلانة بنت فلان.. فليذهب الآباء والأجداد، الرواة والعصاة، العشّاق والأزواج إلى الإعدام، لقد تخلّوا عنّي تمامًا، وها إنّ الله هو أيضًا قد يتخلّى عنّي. كنت أبدو شخصيّة روائيّة أريد الإيمان بها لكي لا أتخلّى عنها أنا المؤلّفة التي لم تتمكّن من تحديد هويّتها فأقول لها ولنفسي؛ إنّ كوكب... الآوفرا... هذا هو الأقرب إلى الجحيم ممّا دوّنته الديانات الإبراهيميّة. ولعلّ السؤال الذي بقينا نلفّ وندور حوله ما يقارب السبع دقائق أو أكثر، هو:

ـ ما هي طائفتك؟

أموّه، أراوغ، يزداد مكري. أعرف أنّهم يعرفون، وأنّ هناك الكاميرات ومكبّرات الصوت وجميع عدّة الشرائط البوليسيّة والتجسّسيّة الشغوفة بها جدًّا، إنّني:

ـ إنّني لا أعبأ بمثل هذا الأمر ثم أضيف:

ـ هل هذا أمر مهمّ؟

ـ أجيبي عن السؤال فقط.

ـ لكن هذا أمر غير مهمّ لي. لم أفكّر به، غير مسؤولة عن، لأنّني...

ـ لأنّك ماذا؟

ـ ولكن هو أمر مخجل بالنسبة لي في الأصل... أعني أنّني أمقت هذا الأمر ولا أعرف أكان يجوز الرفض...

ـ ماذا؟

بلهاء حمقاء، طريدة خرقاء نُزعت منها جميع أسلحتها. تفوّهت أخيرًا بصوت جدّ خفيض مهزوم أيضًا. إجمالاً استغرقت المقابلة ما يقارب الـ ٤٥ دقيقة. ثيمة الجدّة، جدّتي، ومدينتي طلّت كدلالات روحيّة بالغة الأهمِّيّة وهو يخاطبني بها هذا الرجل الذي كشف عن رقّة داخليّة وهو يزيح عن صدره بعض الرسميّات، متفحّصًا ذكرياته أمامي:

ـ جدّتك في «النفتالين» أما زالت على قيد الحياة؟

فيض من الوجد هبَّ عليّ من هناك، من داخل ضلوع تلك السيّدة المباركة فغرغرت عيناي. بلى، من داخل تلك البناية الجبّارة المخيفة كانت هناك بعض القلوب التي تأمّلت العذاب فهل ستدرك وضعيّتي القانونيّة كما يجب؟

ـ هل أستطيع أن أسأل من فضلك؟

قلت هذا في صوت واهن شديد الإرهاق. نظر في عيني قائلاً:

ـ أجل.

ـ هل هناك أيّة بارقة أمل؟

بحزم قاطع أجاب:

ـ سوف نكتب للمحامي... و...

كان المحامي في الخارج بانتظاري يعتذر بسبب ازدحام المواصلات. كدت أقع من الضغط الشديد الذي وقعت تحت أسره. فأجلسني قليلاً وجلب لي قدحًا من الماء. قال كلامًا لم أفقه كلمة واحدة منه.

لا معارك بيني وبين هؤلاء القوم. عليّ أن أدرك أنّ المعركة الحقيقيّة هي بيني وبيني، وعليّ ألّا أغفر لنفسي أنّ الأمور انتهت إلى هذه الرؤية النهائيّة من العدم: طيشي ونزقي ألّا أحمل وأنا أهجر كلّ شيء هناك؛ أوراقي الثبوتيّة، بيتي بـ ٦٠٠ متر مربّع، عربتي الفارهة، مكتبتي الحاشدة إلخ. كان اليأس يضاعف ثروتي يومًا بعد يوم فأمتدحه وأنا أستند إليه كأفضل الفضائل. شعرت وأنا أخرج من الباب الرئيسي أنّني مخلوقات لا حصر لها، وأنّ بي كلّ الطوائف والمذاهب والمماليك. بي آثار من البوذيّة والوثنيّة ومن نشيد الإنشاد وسورة النساء. بي من أهل الكهف ورجال الفضاء المختارين. وبي من المستبدّ المقيم داخل كلّ فرد، ومن الحرّيّة ما يشغف بها كلّ امرئ. بي من حيامن الجلّاد وبيوض العذراوات المغدورات. وبي من جميع المنافي أصعبها ومن الأوطان أقلّها...

عندما رنّ الهاتف بعد ما يقارب الشهر. صوت المحامي المهذّب:

ـ لقد رُفض الطلب، فأنت لا تتمتّعين بشروط المسلوب الجنسيّة العراقيّة.

قال المحامي ذلك فبدأ كالاختصاصيّ الذي عليه ألّا يعلن للمريض غلوّ العلم في بتر الأعضاء أفضل من المعالجة:

ـ فسّروا الموضوع: أنّ لديك إقامة قانونيّة، وربّما ستحصل بعض التغيّرات في بلدك وسوف تنالين يومًا ما الباسبورت العراقي، من يعلم... لن تبقى الأحوال على حالها... لقد عملنا الأقصى وفي الأصل لديك شهادات تثبت عراقيّتك وبالقانون الفرنسي. وهذا أمر جدّ مهمّ، لا يحصل للجميع.

قال المحامي ذلك بطريقة أجّلت انتحابي أمامه فقط.

ليحفظ الربّ أميركا

أوقفني ثلاثة أنفار من البوليس الأميركي في مطار مونتريال الدولي وأنا أتوجّه إلى نيويورك. كان ذلك في التاسع عشر من شهر مايو / أيّار من العام ٢٠٠١. الأوّل له إطلالة رجوليّة فائضة، قال:

ـ اتبعيني.

قالها كأنّه يرفع الأثقال في وجهي فنفرت العروق في رقبته الغليظة، سلّمني للثالث الذي كان عريض المنكبين وشديد الحرفيّة... نظر أحدنا في عيني الآخر. ابتسمت ودون تبرّم مشيت وراءه أيضًا. أشار ثانية بيده:

ـ اتبعيني.

ما إن نبدأ بالتحقيق كما حصل معي في القنصليّة الأميركيّة حتى نعود إلى نقطة الصفر. يراقبني وأنا أيضًا أراقبه لكن حركاتنا غير متجانسة. عراقيّة أوّل مرّة في حياتها تدخل سرادق أميركي من العيار الثقيل، ترفرف من حولي بيارق أميركيّة جميلة مرفوعة في وجهي ووجه العالم. دخلت الشبر الأوّل من الأرض الأميركيّة عبر حدود المطار الدولي بلا أحلاف إلّا من مصيري المجهول وعنوان

صغير خفت أن يذوب كالثلج من ازدحام البوليس الأميركي. كان عنوان مترجمتي الآنسة ربيكا جابون، المعيدة في جامعة كولومبيا، ذات الجنسيّة الأميركيّة والدم الفارسي. لم أكن خافضة الرأس، لكنّي بكلّ إخلاص، لم أكن ثابتة الجنان، والرجل يردّد وهو يشير إلى يدي اليسرى أن أمدّها أمام آلة دمغ الأصابع.

ـ اهدئي، اهدئي لكي أستطيع قراءة خطوط أصابعك جيّدًا. لا يستغرق الأمر أكثر من ثوانٍ ثم تدخلين بطمأنينة إلى هناك.

أصابع يدي لديها ما تقوله لهم، وهي على هذا النحو من الاختضاض. مشبوهة غبيًا كنت. نظرت إليه عدّة مرّات، وكلّ شيء كان يدور بيننا يمشي كالنهر الجاري:

ـ هل تحبّ عملك إلى هذه الدرجة من الإتقان؟

ـ اهدئي مدام من فضلك.

يبدأ من إصبعي الصغيرة:

ـ إنّه مجرّد عمل روتيني جدًّا. سينتهي في الوقت المناسب وما عليك إلّا الهدوء التامّ.

أصابعي بين أصابعه. يا للفنّ... وتُضاف أشياء أخرى للبلبة والاضطراب:

ـ لكن هذا غير دقيق. انظري إلى الورقة، أنت لم تخلّفي أثرًا ما. يلزم العمل ثانية.

كنت أسير على أطراف أصابع يدي، وأؤدّي ما يطلب منّي لكي أستحق عبارة:

ـ سنعمل منك عبرة لمن اعتبر.

سار وعاد ثانيةً وهو يحمل مناديل ورقيّة كبيرة. بدأ يمسح حزّ أصابعي وباطن يدي. كان الدوّي يهدر في بطني. ابتسمت لكي أتطابق مع الوضعيّة. كنت أحتاج إلى آلة جديدة ومخزن خاصّ من بودرة الكربون الحديث يستطيع أن يكشف عن نظامي الروحي لكي أبلغ هدف هذا البوليسي.

أيدي سبأ

نزداد اقترابًا أحدنا من الآخر:

ـ آخر مرّة عملت هذا النوع من التصوير؟

ـ عندما تخرّجت من الثانويّة ودخلت الجامعة.

ـ أين تمّ ذلك؟

ـ في بغداد.

كان يغلق يدي كما نغلق الكتاب ويتفكّر. يدي هي أسلوبي الوحيد. أُضبط عبرها متلبّسة على جميع المستويات ويتضاعف منتوج انفعالاتي. صارت حمراء وتورّمت قليلاً وهي بين يديه. خطوطها طويلة ومتعرّجة وهو يبسطها أمامي. السيّد فرويد لم يعلّق أهمّيّة كبيرة على تسلسل تواريخ عمل وأسرار اليد البشريّة التي تعجّ بجوقة من اللاوعي الفصيح:

ـ اهدئي رجاءً. حدّثيني عن روايتك. هل مترجمتك أميركيّة؟ هل هي رواية حبّ؟ هل البطل أو البطلة تبلغ الهدف في الأخير؟

كانت صلعته تلمع من العرق الشديد، فهو يا عيني مرهق مثلي. كنّا نتبادل الابتسامات كأفضل رفيقين في مهمّتين متعارضتين

فلم يطفح من مسامّي إلّا ذلك غير المرغوب فيه: عرقي البسيط، الفوري. كنت أنضح عرقًا غزيرًا، وكان من الجائز، في تلك اللحظات، كنت أتصوّر أنّ هذا الأمر هو بسبب الحياء وحده. العرق يكتب عنّي التقارير مستعرضًا ولو لثوان جميع ما مرّ على بلدي وعلينا جميعًا من غصص:

ـ لا تدعي يدك تتأرجح. ألا ترين هذه هي المرّة الثالثة والخطوط غير واضحة. أرجوك أن تهدئي. لا تضغطي على نفسك كثيرًا. يدك ستروي لنا خطوطك وهي الأصدق بالنسبة لنا.

كان يتحدّث ويسأل بصوت مهذّب. إنّني لست قادرة على الانسلاخ عن ذبذبات يدي وبيدها مصيري، وأنا ضحيّتها، وإذا ما تركت العنان لها فسوف تذهب ولا تعود، وأنا أتخبّط بيديَّ الاثنتين لحقبة ما قبل الحرب والغزو والاحتلال، والرجل لم يحاول تضليلي قطّ، لكنّها يدي، حاولت أن تكون بمفردها، مستقلّة وفردانيّة حتى لو تورّمت كثيرًا، بل أسوأ من ذلك، أن لا تأخذ حذرها. يدي حرّة وهذا حقّها. بوليس أميركي بجوار كاتبة عراقيّة والرجل يعاني من قلق حقيقي على مستقبلي. أربعيني مربوع وأشقر. أظنّ أنّه لا يملك سوء الطويّة. الوقت صباحًا والشبّان الصغار من حولي مرحون يمزجون الهواء بالخطر ولا يغشون. وابني في الخارج ينتظر أن ألوّح له بالفرج. حاولت يدي عبثًا أن لا تخدع، لكن:

ـ هل تريدين ماء؟ هل أفطرت هذا الصباح؟ فقط اهدئي.

كان الرجل واثقًا بطريقة لا رجعة فيها بأمر خارق يدعى

الولايات المتّحدة، ويدي والعلم أمامي خفّاق. علم من أجمل أعلام الأمم ويدي لا توافق على تبادل التحيّات أو التهاني مع يده أو آلته، حردت وتعرّقت وتلوّنت وغضبت:

ـ أنظري إليّ أرجوك. إذا لم أستطع قراءة يدك كما يجب فلن تبرحي هذا المكان. إنّ ما أقوم به هو من أجلك وهذه زيارتك الأولى وعلينا أن لا نخطئ. هيّا مدام اهدئي من فضلك.

كانت لهجته شجيّة وأنا أستطيع أن أنسى نفسي ولو قليلاً، لكن، ليس بمقدوري أن أنساه. ليكن، كانت يدي لا شيء.. تفلت من التعاريف. تظهر طبعة الأصابع أمامنا، ألمحها واضحة. من يقول ذلك؟ لكنّ اليد تخذله مرّة أخرى فأستحقّ ما يجري لي. حضر أحدهم وهمس بأذنه شيئًا وغاب. اللعنة، طائرتي ستقلع والآنسة جابون كتبت لي:

ـ عنواني جامعة كولومبيا وهو عنوان مناسب وجد مشهور في حالتك.

تمامًا، كنت أندحر وخوفي يطلع كشعلة الألعاب الأولمبيّة. بدأ لعابي بالتناقص، ونبضي يسرع ويبطئ. يدي عاديّة جدًّا وأنا مواطنة عاديّة سوّلت لها نفسها زيارة أعظم مدينة في العالم: نيويورك، كما لو أنّي وبأثر رجعي أعود لزيارة بغداد العبّاسيّة قبل عشرة قرون. هكذا جاء غلاف إحدى المجلّات الأميركيّة الشهيرة في بدء الألفيّة الثالثة وكتب على الغلاف ما يلي: نيويورك عام ٢٠٠٠ وتحتها، بغداد عام ١٠٠٠، عرقي كالنزيف وهو يسمّم الأجواء والمسامّ. هذا آخر ما يمكنني التعبير به عن نفسي، وبسبب سوء الطالع وسماحة العداوة فيما بيننا، أنا وهو، شعرت وكأنّني

أريد أن أصير كما يشتهي هذا الرجل أن أكون. كرّرت الدمع والماء يرشح منّي، قال:

ـ إنّها الخامسة. هل تحسبين معي؟

استحيت منه. فشلت والفشل يعزّز الجمال الداخلي ليس بمقدور الناجحين اكتشافه أو تصوّره. ما العمل وأطراف أصابعي تحمل كلّ هذا القدر من اللاطاعة في رقعة عابرة من الجسد البشري. هل السبب سيكولوجي أو بيولوجي، أو عصبي. لم أمرّ بذلك من قبل. تذكّرت عبارة لسان بابلو: «تكونون من الناجين إذا عبرتم الجحيم».

تكونون من الناجين إذا دخلتم الجحيم.

ما الخطأ والرجل يفلّي كلّ مليمتر من يدي؟ مسحها بورقة سميكة من الكلينكس الخاصّ لهذه المهمّات. كرّر بصوت مهذب وبلا قرف:

ـ لن نسمح أن تغادري ما دمنا لم نقدر على قراءة كلّ خطوط يدك. نقوم بذلك لحمايتك بالدرجة الأولى.

كانت يدي تحمل نوعًا من الجاذبيّة. هكذا فكّرت وإلّا فما هذا الذي يحصل أمامي. من الضروري أن تكون لديهم آليّات أكثر حداثة في الكشف عن البني آدم، فلا يجوز لهذا الرجل اللطيف الاكتفاء أو الاعتماد على الحركات اليدويّة وقراءة النظرات وحركات الأجفان والعيون. . . كلّ هذه المطاردات تعود لعالمنا نحن وما عليهم إلّا اجتثاثها تمامًا. على أحدنا أن يربح حتى لو كانت أسلابي مبلبلة بعزق عراقي دافئ.

مجموع تعاساتي

يقول السيّد فرانك، نسيت اسمه الأوّل، أستاذ علم الأجرام بجامعة ميشغان: «إنّنا نرمي من وراء تطوير "تروستر" آلة كشف الكذب إلى الوصول إلى آليات بالغة الدقّة في مكافحة الكذب. نحن نسعى الآن إلى قراءة ما يدور في الدماغ أثناء ارتكاب الكذب. إنّ الوسيلة الناجحة هي التوسّل بنتائج علم النفس العضوي وعلم النفس العصبي. فإذا كان الشخص يحبّ مثلاً فإنّنا نستطيع معرفة المنطقة الخاصّة بالحبّ لأنّها تنتقل في الوقت الذي ينظر فيه إلى المحبوب. إنّ الاعتماد على برمجيّة تروستر الفعّالة في مطاردة أهل الكذب في صفوف رجال السياسة، بالخصوص، الغرض منه ردع هؤلاء وإعطاء العمل السياسي صدقيّة على الرّغم من اقتناعنا الأكيد، بأنّ لا أخلاق في السياسة، وأنّ هناك فرقًا بين ما هو شخصي ذاتي وما هو عامّ».

في الكتابة نكتشف الصدع الموجود في بعض الحقائق، فنتسلّل إلى التخييل لبهجة المخيّلة وهي تحاول نسف المحرّمات. على الورق بمقدورنا أن نجهّز السلام ونقرأ في عينَيْ إحدى

الشخصيّات الرغبة في الكذب أو الأذيّة أو الحمق. فندع كثيرًا من الأحيان القاتل يتوارى عن الأنظار. في كثير من الأحيان لا يُسمّى القاتل وتُنفض اليد منه، وفي الغالب تسجّل ضدّ مجهول. في الروايات كلّ شيء ممكن: الأكاذيب الجميلة والخطيرة، والأعمال الشائنة والنبيلة. لكن رجلنا الأميركي هذا ابتسم فجأة. رأيت أسنانه الناصعة البياض:

ـ يعني هذه المرّة أفضل من المرّات السابقة. أظنّ أنّنا نحتاج إلى مرّة، ربّما هي الأخيرة. هل ستكتبين عن كلّ هذا الذي يحصل في روايتك القادمة؟

في القنصليّة الأميركيّة بباريس أجرت معي مسؤولة منح التأشيرات مقابلة شيّقة في محاولة فكّ ألغازي العراقيّة من على الشاشة المجاورة لها. لم تتحوّل عن مقصدها البتّة وهي ترى أمامها سيّدة عراقيّة ما زالت تحاول تسجيل سفالة الجرائم الكبرى التي قد لا يستطيع الفنّ الروائي أن ينهي الكتاب بها، أيّ كتاب. وللأمانة الموظّفة تلك لم تشرّع مخالبها ضدّي، ولا كانت مستعدّة للقتال، على العكس، أنا التي هيّأت نفسي وجيناتي لها، لكنّها أنهت الجولة بالضربة القاضية، وأنا مستفزّة قليلاً:

ـ والڤيزا؟

سألت بصوت غير مصدّق ونحن ننتهي من المقابلة بدون تبعات:

ـ سترسل إليك بالبريد المسجّل.

تركت بين يديها قدري: جواز سفري الميمون، وشيكًا مختومًا

من مصرف فرنسي موثوق به، فسلّمت إليّ وصل العناية الإلٰهيّة. وبالأريحيّة نفسها أسمع صوت الرجل:

ـ عال، عال. هذه المرّة أفضل. لكنّني حسب ما لديّ سأحتاج إلى مرّة أخيرة. هه، هل تعبت؟

نظرت إلى ساعة الحائط ثانية وثالثة:

ـ لا تقلقي. طائرتك لن تقلع إلّا وأنت على متنها.

حضر السيّد وليم فولكنر إلى رأسي وأنا بكلّ عيني انظر إلى يدي. كنت أنا «جميع تعاساتي».

هدأت كما لو أنّ الحرب، الحروب هي أفلام كارتون. شاهدت يدي لآخر مرّة. كانت مليئة بالثقوب أكثر من مدينة مدمّرة وأنا أتفرّس فيها وفي:

ـ هيّا تفضّلي معي. أمر أخير مدام.

ـ ترى كم مرّة حدث ودُمغت أصابعي؟

ـ لم أحسبها. لماذا لم تقومي أنت بذلك؟

ـ أنا أبالغ في هذه الأمور.

ضحك وضحكتُ أنا أيضًا. هدأت وأنا أمشي وراءه: «عرفت السعادة التي يشعر بها المشبوه». تشاغلت عن خوفي وغضبي بإنتاج أعنف منهما. دخلنا غرفة كبيرة مضاءة مهوّاة. وكانت هناك آلة تصوير كبيرة. حسنًا، عليّ أن أنساق إليه وأنوجد. أمرّر يدي على قبّة ياقة سترتي. عليّ أن أبدو أجمل من وجهي الحقيقي الذي أحبّه. أفضل من وجهي القديم السابق. على وجهي والرجل يحرّكه إلى الشمال واليمين أن يبقى حاشدًا بخراب البارحة وفظاعة

اليوم... وأن... وأن... هل تنبسط جميع النعوت في صورة واحدة وإذا شئتم أمام بوليس أميركي؛ طق.. طق.. وأضاء.. الفلاش. لم يبق فيّ ما يمكن إنقاذه. أكمل الرجل إحكامه عليّ. كان يضحك كما لو أنّنا من أسرة واحدة. ودود أليف ولامبالٍ.

ـ هيّا اغسلي يدك مدام.. نعم من هنا.

دلّ بيده على حوض كبير. رائحة صوابين معطّرة تنعش الفضاء. والماء نقي ينزل من الحنفيّة. أحدهم مدّ رأسه فأشار إلى شخص آخر بالاقتراب منه. جاء دوره. كنّا خمسة، عائلة آسيويّة تتكوّن من والدين وابنين. ربّما، من كوريا أو ڤيتنام، لا فرق. استغرق الأمر كلّه خمسًا وثلاثين دقيقة، أقلّ من درجة الغليان والتبخّر وأنا ألتفت لكي أودّعه وأقول له ـ شكرًا، خفت أن أكون قويّة مثل هذا الرجل الذي بمقدوره أن يبول على حافّات الكون وأمام البشر وهم يسلّمون الروح. وخفت أن يُسمح لي ولأيّ سبب كان من تقليده أو محاكاته... أو...

بيت هيلين

في الثاني والعشرين من أذار / مارس من العام ٢٠٠٣ وكانت الصواريخ الأميركيّة تدكّ بغداد دكًّا، رفعت الهاتف وصرخت بصوت جهير:

ـ هيلين، مدينتي تحترق. بغداد إيّاها لها الأحقّيّة بالاحتفاظ بما قدّمته لرفعة شأن البشريّة، تغطّيها النيران وتضربها الراجمات البعيدة المدى والطائرات الجهنّميّة. وغدًا يا عزيزتي عمّاذا سنتحدّث في الدعوة الكريمة من قبل البرلمان الأوروبي للكتاب. بماذا سوف تقدّمينني للجمهور الفرنسي؟ أيّ طائل للكلمات؟ أيّ نفع...

كنت أنتحب بصوت عال وهي لا تعرف بماذا تُجيب. هي الخبيرة بالإبادات والمجازر، فعندما شاهدتها أوّل مرّة في مارس أيضًا من العام ١٩٩٨ في جامعة السوربون في السانت دني، شعرت أنّها خرجت للتوّ من تحت الأنقاض، وأنّ في مكان ما بين صدغها وذقنها لا يزال ينبعث الدخان. لم أسجّل ذلك في رواية «المحبوبات» التي أهديتها إليها. ستقدّمني من على مسرح الكوميدي دي فرانس ولا يجوز الاعتذار. فالبطاقات بيعت، ونسخ

من روايتي «الولع» الصادرة بالتاريخ ذاته، بعث بها فاروق مردم بك إلى كواليس المسرح، حضر وجلس بجوار هيلين في الصفوف الأماميّة. كان المسرح ممتلئًا وكان كرستيان سلمون، المدير العامّ للبرلمان، قد حضر ونسّق هذه الاحتفاليّة وفي موعد صدور الرواية ومنذ فترة طويلة. لقد تمّ الاتّفاق مع مجموعة من الممثّلين والممثّلات لكي يقوموا بأداء وقراءة صفحات من الرواية ومن نصوص للمؤلّفة أيضًا على مدى ساعة. قدّمتني سيكسو بطريقة زادت من ورم عيني المتورّمة أصلاً. كلمات هدّأت من روعي وروع الحاضرين. بالتوادّ والتهذيب، بالحرّيّة والتحضّر الذي تكنّه للعراق بصورة خاصّة. كانت لديها طريقة في الإصغاء، ليس كفعل معرفي فقط، وإنّما كنوع ثري من التعارف، فأشعر بقدرتها وسقفها الفكري والإبداعي والمسرحي، الشعري والروائي والأكاديمي، وهي تجادل، تحلّل وتتأمّل. كلّ كتابة عنها عصيّة. فهي تمتلك نوعًا من الكاريزما والرحابة الروحيّة بجانب صيتها الأدبي الكبير. الكتابة عنها تأسر أيضًا. وتحوّلاتها تبدو على أشدّها حين تودّع إحدانا الأخرى وأنا أقول لها:

ـ إلى اللقاء.

كانت تمتلك نزعة الأمانة والنزاهة الفكريّة والنقديّة. وعندما بعثت لها بـ «النفتالين»، كان بيل كلنتون يشنّ هجومًا كاسحًا على العراق في الشمال والجنوب والوسط. شعرتْ أنّ لديها مسؤوليّة والكتاب بين يديها، ليس بالمعنى الديني أو الأخلاقي، وإنّما بالمعنى الفلسفي، ليست تجاه كاتبة عراقيّة غير معروفة بالنسبة لها، وإنّما تجاه الإبداع والتدوين، من أجل أن لا يستحيل جميع ما حولنا للبشاعة والحظر والقهر بسبب الدين، اللغة، الجنس واللون

والعرق إلخ. فاتّصلت بي وقالت كلامًا فيما بعد كتبته في مقدّمة الطبعة الأميركيّة، والتي صدرت بطبعاتها المتعدّدة.

عندما صدرت «النفتالين» عن دار فصول ومن الهيئة العامّة للكتاب، عدد ممتاز، أرسلتها لجميع من كنت أعرف ولا أعرف من الكتّاب والنقّاد والناقدات... فأقصيت، وأهملت واختفت منذ عام الصدور عام ١٩٨٦ وإلى العام ١٩٩٣. أوّل من أثنى وتحدّث عنها هي مي غصوب، ذكرت ذلك لحنان الشيخ وبالتالي لفادية فقير، فادية هي التي بادرت لاختيارها في مشروع للترجمة لروايات المرأة العربيّة عن دار النشر البريطانيّة ـ كارنيتت وكنّا: ليانة بدر، سلوى بكر، هدى بركات، حميدة نعنع وأنا. أتحدّث عن هذه الرواية بالذات لأنّها هي التي جمعتني بهيلين التي دعتني فيما بعد لزيارتها في أوّل سمينار. أحضره في شقّتها الأنيقة جدًّا، وحين وصلت الشقّة وكان الباب مفتوحًا، سمعتها وهي تتحدّث عنّي وعن «النفتالين»، جرت العادة على التحضير لهذا اللقاء في كلّ يوم سبت مع ما يقارب من ٢٥ طالبًا وطالبة من جنسيّات مختلفة. شعرت أنّ ثمّة ما لا يُقال في الختام، ولا أعرف كيف يُقال عن هيلين سيكسو. فكّرت بجميع النقّاد والناقدات العربيّات، وضعت أسماء البعض على شكل زوووم لكي أقرّب الصورة إلى رأسي فلا أحصي علامات الاستفهام والتعجّب... تعلّمت من هيلين دروسًا في التواضع والفخر بالآخر إذا كان يستحقّ، فليس أهين من الفرار لكي لا تقول كلمة طيّبة في حقّ زميلة أو زميل. وعلى أيّة حال تحطيم الآخر في أيّ مجال كان هو مسقط رأس الفاشيّة.

الطهو الإيروسي

اخترت خضار الباذنجان، لكي أقوم بالطهو لها في أوّل زيارة لشقّتي. هذا طبق خطير وأثير على قلبي. قلت لها ذلك فأطلقت ضحكتها الطفوليّة المجلجلة. دبّرت الأمور ودعوتها ونعيم قطّان فدعت بدورها صديقتها الأميركيّة سارة، فدعوت بدوري رُلى نابلسي والسويديّة كاترين لامب. بعد وصولها بقليل قالت:

ـ نعم يا عالية إنّني جائعة، والرائحة التي هبّت وأنت تفتحين الباب لا تقاوم. متى ستقدّمين العشاء؟

هي لا تأكل كثيرًا لكنّها، للأمانة، فُتنت بطبقبي ذاك. وقبل تقديم العشاء حضرت ووقفت أمامي في البقعة المتناهية الصغر ممّا يدعى المطبخ، وهي تقول بصوت ودود:

ـ ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟

كانت حالة من التلقائيّة والعفويّة أوصلتني إلى الحدّ الأقصى من التضامن والاعتزاز بالصداقة. لقد قدّمتني للقارئ الفرنسي والأميركي والبريطاني ثانية وثالثة... وهي تكتب مقدّمة «النفتالين» ثم «المحبوبات»، وأخيرًا «الغلامة». مقدّمات لا تضاهى في القوّة

والعمق والجمال. الثناء يرضي نرجسيّة أيّ مخلوق بشري، وهو أمر واقعي وحقيقي، لكن ذلك قد يشي بالتبسيط أيضًا. الأمر بالنسبة لي كان فوق هذا بكثير؛ هيلين كانت تحاول رفع اللاإنصاف الذي عوملت به «النفتالين» خلال سنين طويلة. شعرت أنّها تدافع عن جنس الكتابة وليس عن جنس المؤلّف. إنّ الصداقة العجيبة بين العقول التي لا تملك أفكارًا مسبقة عن الغير، تجعل هذا النوع من الصداقة شديد الأهمّيّة من الناحيّة الإنسانيّة. إلى هذا، حين علمُت أنّ يوم ميلادها هو الخامس من حزيران، أخبرتها أنّ هذا اليوم هو أسوأ يوم في تاريخ جيلي والأجيال اللاحقة لهزيمة العرب الكبرى أمام الدولة العبريّة.

إذًا حان الوقت للبحث عن محبوب

كنت أنا وهيلين نتحدّث من حين لآخر عن الأوجاع والمسرّات الغراميّة الخائبة في معظم الأحيان، ثم ننفجر بالضحك. كنّا نعرف أنّنا سنغرم، ربّما ليس في وقتنا هذا، أو ليس في الوقت المناسب. ولكن كنّا نعرف بصورة لا رجعة فيها أنّ الغرام حين يحضر سيلغي الأوقات جميعًا ويدعها مناسبة له تمامًا، وأنّ الشغف يخطفنا حين يحضر ودون استئذان، وما علينا إلّا الطاعة. ليست هناك أوامر عليا في هذا الشأن ولا نرسم حدودًا ونقول آه، لحسن الحظّ تمّ الأمر في الربيع فهو أفضل من الشتاء. أليس كذلك؟ هل أنت موافقة؟ آه، نعم ولا. ويوم أخبرها المحامي برفض طلبي للحصول على اللجوء الإنساني اتّصلت وفي صوتها رنّة من المرح:

ـ أظنّ حان الوقت للبحث لك عن عشيق فرنسي، ما رأيك؟

ـ طفح الكيل من كلّ جانب يا عزيزتي كما يبدو، ولم يبق إلّا هذا العشيق. . .

كنت بدأت بالتدهور وكانت أعضائي تقوم بنوع من التهديدات لم ألاحظها من قبل كما هي في هذه الأيّام. أنت مريضة والمرض

سيتفاقم، وذاك العشيق الذي تبشّر به هيلين هو الآخر لن يصمد معي ولن يكون على مقاس الغرام. يتعذّر عليّ التلويح بيدي لأيّ رجل أجنبي فأغرم باللغة الأجنبيّة. لم أقدر على الحبّ وأنا بين بين، بين لغتين ولسانين ونهجين ونموذجين. لا تظهر العربيّة إلّا وأنا أقولها بصوت جلي أثناء الشغف، فهي أخطر الأدوات في هذا النوع من العلاقات الغراميّة. وقد يكون الحبّ فيما لو حضر ضدّي وأنا على هذه الوضعيّة من التدهور النفسي.

كان الحزن كالواجب الوظيفي، له مهمّة واحدة، دوام رسمي كامل، ويبذل ما في بوسعه لكي يكون الأداء على أفضل الصور.

ـ الأمر ليس مزحة. تعلّم اللغة سيؤدّي لفتح الباب أمامك لفعاليّات كثيرة، وهذه ستحضر بواسطة الرفقة. رافقي أحدهم، تزوّجيه، لمَ لا؟ اللغة نتعلّمها أيضًا ونحن نضع رأسنا على الوسادة وبجوارنا من نغرم به، اليوم أنت حرّة. ضعي نفسك في هذا المشروع كنوع من استراتيجيّة نفسيّة تشتغلين عليها...

تضاعف الضغط العصبي والنفسي عليّ، فبدأ يصبّ جامّ غضبه على جلدي كلّه، تتبعه تنقّلات ما بين القلق الشديد المصاحب لخضّات متسارعة لحالة من الزمهرير الحقيقي لبدني. كنت أسير وبسرعة خارقة نحو الانهيار التامّ. وبدأت الطبيبة النفسيّة والصديقة وفاء قاسم، بسلسلة من العلاجات بجانب أطبّاء الجلد الاختصاصيّين في باريس وخارجها من العرب والأفارقة والفرنسيّين. كانت إدارة وفاء لمرضي أمينة وغير عجولة، وكان تشخيصها دقيقًا جدًّا. في تلك الساعات والأيّام والشهور الطويلة والمُرّة، كنت أعلي من شأن النوم فأعرضه على حالي العشيق

الوحيد المعتبر. هيلين على حقّ، الغرام ينذّي الكبد ويطرّي الفؤاد، ويخفّف الأخطار. كنت لا أستيقظ إلّا وأعاود، كان السرير يحملني على محمل الجدّ فبدأت أعدّد أسماء السهاد والأرق، الصحو، الإغفاءة، الاستلقاء، النوم من بحر المتدارك، أو من بحر العرب والعجم. المرض يشغل أعلى المناصب وكلّ التعريفات لا تخطئ، وذاك العشيق سينتظِر طويلاً لحين شفائي. فأنا أغطّ بالنوم الطويل الطويل، أدوية وفاء الخاصّة بالنوم وللعلاج النفسي وعقاقير خاصّة للمرض الجلدي، فأعي أنّني في حالة نوم، وأعود للنوم مجدّدًا. صرت عشيقة مباركة للنوم. فجميع أسرار الجنس البشري تصبّ جميعًا في مكان واحد هو السرير. فرويد يسمّيه أريكة، وهو الفراش، التخت، وبالعراقي نقول القريوليه، أكبر الظنّ إنّه من الزمن العثماني.

منحوتات عراقيّة

منذ منتصف العام ٢٠٠٦ وأنا أحصي أحوالي وجولاتي كالمعتوهة ما بين أطبّاء الجلديّة والمستشفى الخاصّ به. كنت أرقب جلدي كمن يرقب الأرض حين ترشّها بالسماد، فتنتظر لكي ترى شطري جسمك الداخلي والخارجي وهما في حرب، ولا تعرف أيّهما تشجّع: حبكات قاتل يحضر من أعماق الذات، فالمرض في كثير من الأحيان لا يحضر من الخارج، وحالة امرأة، على الأرجح، لا تملك إلّا المقاومة وبأعلى التكاليف ألمًا. كانت الصديقات يقمن بشحني بكلّ ما يخطر على البال من كلام ومواساة وتشجيع على المواجهة. أخذ المكبّرة بيدي لكي أشاهد مستوطنات لحمي وهي تتمدّد وترتفع، تخبو ثم تشتعل، ثم بغتة، ينفجر من الداخل كما لو كانت وردة ولها وريقات بأشكال وأحجام مختلفة. كأنّ جلدي يهوى الفنون وها هو يحدّد لي التماثيل والمنحوتات التي صمدت طويلاً ولم تتهشّم. كان هناك غضب وحنق وتطرّف تراكم وتزاوج وتعرّف على الخصائص المطلوبة فتنوّع واختلط فاستحال إلى هذا النوع من التعبير عن النفس. كان المرض يقدّم

لي نفسه كأعلى شكل من أشكال التجريب، وما عليّ إلّا أن أوقف معظم حياتي له. إعصار لا مثيل له، وأنا أعبّر عنه بالهرش الجنوني. على تلك العتبة وقفت وأسلمت نفسي، وأنا أتنقّل من اختصاصيّ لآخر. كان مرضي هو وطني الذي امتدّت خصوبته ودمامله وفساده إلى بدني، فأنا أنتمي لهذا المعلوم الذي لا ينفع معه أيّ نوع من دواء الأوّلين والمحدثين. كنت لا أستطيع ارتداء أيّ ثوب لا من الحرير ولا القطن أو الموسلين أو الململ. لم أقدر على النوم على البطن أو الجنب أو الظهر. وحين شاهدت سوسن ظهري وبعض أجزاء من ذراعي أطلقت آهة جدّ حزينة لكنّها أضافت للتهوين عليّ كما فعلت إنعام:

ـ هذه أفضل تماثيل يمكن أن يرسمها هذا المرض. لا تزعلي، هي صور جدّ جميلة.

بدأت أعي أنّ حياة البشر الحقيقيّة هي المرض، الأمراض جميعًا، وأنّ الصحّة، تلك التي نطلق عليها صفات: المدلّلة، المغناجة، ابنة الملوك والأمراء هي ما نتنكّر به أمام أنفسنا، وأمام خلق الله. بدأت أهذي وأتفوّه بكلام غير مترابط وكانت أستاذتي دارلين في معهد الصحفيّين الأجانب الذي كنت قد التحقت به لمواصلة تعلّم الفرنسيّة، تواصل الاتّصال وأنا لا أجيب فتضاعفت أيّام الغياب. ليس لديّ أيّ سبب معقول لتعلّم اللغة، اللغات ولن أحفل بها. عليّ نسيان لغتي الأمّ واكتساح لساني بنسق الخرس نهائيًا. أصرّت دارلين على زيارتي وصديقة مشتركة وما بين الضحك والهرش والبكاء كانت تشاهد فصولاً ساحرة على بدني، فتقول بطريقتها المحبّبة:

ـ آه يا عالية لقد اجتزت المرحلة الكلاسيكيّة ولا ندري إلى أين أنت ذاهبة اليوم؟

كنت أشعر أنّني مرتبطة بهذا المرض وأعلم أنّه جزء من فوضى دروس اللغة، وجحود البلد وجنون فواصل الأوراق والمؤسّسات الفرنسيّة والعراقيّة، أو هو قدري لكي أستجيب لجميع أنواع النوتات التي سمعتها في سنين أفلت وها هي تعود وتنفجر فلا أتهرّب من أمامها. كنت لا أستطيع الضحك ولا البكاء كما يجب أو تتطلّب أحوالي الروحيّة، المنطقة حول فمي متورّمة، شحمة أذني كالكرزة المشوكة، أمّا فروة رأسي فقد ابتكرت لي قنّاصًا جديدًا لشعري وهو يجزّه من الجذور. لم ينج أيّ عضو حيويّ فيلكن رأسي بدا لي فارغًا من أيّ شيء. انتهيت من فخوخ الماضي، وهذا الحاضر توقّف. فلم أعد أذهب لمعهد الصحفيّين الأجانب. فالصفوف كلّها تقع في الطابق الأرضي. في صفّ وخم، معتم ورطب. السبّورة بلون أخضر فاهٍ، ومرض عيني قد حضر من القرون الوسطى ـ الجلوكوما، وأنا لا أبصر بصورة مريحة في مثل هذه الأجواء. وبالإجمال كنت أضع عدّة أنواع من الحبوب بيدي وأبلعها وبضعة أنواع من المرطّبات والدهون التي تقوم بتبريد المناطق المأهولة بالمهرّجين والبهلوانيّين. هذه العقاقير كانت تدعني أنحرف تمامًا، فأنتقل من صيغة الفرجة المجّانيّة على نفسي إلى استخدام الجدّيّة، وأنا أرثي وأمزح مع حالي، لكنّي لا أودّ التوقّف عن التنديد بالعراق ومن خلّف العراق وخلّف مديريّة الجنسيّة العراقيّة، وهويّة الأحوال المدنيّة ووثيقة الزواج الشرعيّة. هذه هويّات باطلة، غيابها أكثر واقعيّة من وجودها، وهي التي

جعلت لساني سليطًا، شامتًا بحالي، لأنّني دعوتُ على العراق، فردّ الصاع صاعين. وحين حلّت عليّ فيالق الاكتئاب، التي لا أعرف إلى هذه الساعة، متى وكيف لاحظت الدكتورة تلك الصور والأصوات، الأفكار والسلوكيّات فشخّصتها بموضوعيّة قارّة. لم أحبّ أن تفلت الكآبة منّي إلى هذا الحدّ. كنت أروم أن يكون سلوكها ودّيًا قليلاً لكي أتحدّث عنها بطيبة خاطر. فأنا لا أخرج، ولا أُجيب على الهاتف، لا أفعل أيّ شيء بالمطلق إلّا الامتلاء بالخواء التامّ الذي أشعر أنّه لا يتكسّر ولا يمتلئ بأيّ شيء. الأمر الأشقّ عليّ كان مسألة تسارع النبض، وبمفارقة لم أستعدّ لها، أنّه كان في الحالة القصوى من الاستعداد للتوقّف النهائي. أظنّ أنّ الاستعداد للموت هو الآخر لم تكن له الأسبقيّة، فالمغادرة تحتاج إلى تقنيّات كما في التدوين وباقي الفنون. أنا لم أكن بين الركّاب المغادرين، هكذا هو الحدس، لكنّي كنت من المنتظرين والسائرين بسرعة نهائيّة لسيول الانهيار والاكتئاب. ومن داخل كلّ هذا السخط العصبي سمعت صوت دارلين وهي تترك رسالتها الصوتيّة وبلهجتها المحبّبة:

ـ آسفة يا عالية. لقد رسبت في الامتحان، ولكن لا يهمّ. أعني، غير مهمّ، الآن المهمّ صحّتك... و...

تملّكني مزيج هستيري من الضحك وطوفان من سباب عراقي للغة الفرنسيّة والعربيّة والبنغاليّة، وتبعات تعلّم وإتقان اللغات، فلتذهب لغات العالم إلى الاختفاء التامّ، وليأخذ كلّ هذا الفراغ التامّ الذي لا نعرف إلّا مصدرًا واحدًا له، هو طرد اللغة من اللسان، قطع اللسان عن كلّ لغة. انفجارات برج بابل بالألسن

التي خلطت الأبكم بالأصمّ بالأعمى. كنت أسير في طريقي إلى الصيدليّة التي تقع في نهاية شارعنا. أحمل بيدي قائمة الأدوية التي كان عليّ تجديدها للشهر الثاني والثالث حتى العاشر وإلى التوالي ومضاعفة نسبتها:

ـ آه مدام، ألم تتحسّن حالتك بعد؟

قال ذلك الصيدلي الطيّب والكيّس وهو لا يحاول النظر طويلاً في وجهي. كنت أرتدي قبّعة تغطّي جبيني، وأضع عويناتي الطبّيّة ذات الزجاج الأسود. كنت أريد الصراخ في وجهه، في وجه هذا التكريم للدواء الحاسم لكي لا يتخلّى عنّي عقلي. شديدة الوهن وأكاد أقع في أرض الصيدليّة فأجلس في الكرسي المخصّص للمسنّين. بقي قلبي يقف على رأسه، لم يحفل بي. بقي يكتشف طرقًا في الهذيان لم أعهدها لديه من قبل. كنت أعرف شريكًا لا يستهان به وهو الذي بقي يحدّق فيّ ليل نهار. أنظاري تتّجه إليه حين أكون تحت ظروف ضاغطة كهذه هو: فرك إرادتي بالماء والصابون، شطفها من الشوائب، وضعها تحت شلّال المياه الجارية الباردة مرارًا وتكرارًا. كنت أقوم بتدليك تلك الإرادة وأنا أسمع وقع الماء والكلام الحنون من الصديقات والأصدقاء. كلّا، لم تكن الصحّة من الكماليّات، عليها أن تكون طريقة عيش هي أيضًا...

بيت الجارة

بغتة توقّفت عن مخاطبتي وانفصلتُ عن مجالها الفيزيائي. كنت أجهل تمامًا هذه القطيعة واللاكلام. جارتي هي منذ ثلاثين عامًا، بالتأكيد الأرقام لا تعني شيئًا لكنّنا نمتلك حدودًا من الأمتار والفضاء واللغو. ففي خارج الشقق أنا مجرّد صوت أدلي به أمام سكّان العمارة وفي مكتب السنديك المسؤول عنها وعليّ الاحتفاظ به للشدائد التي قد تصيب بنيان البناية وما عليّ إلّا الإدلاء به لصالح الأغلبيّة أوّلاً. جارتي وزوجها من أولئك على الدوام ولكن هذا قد لا يحصل في غالب الأوقات. فالحدود السرّيّة ما بين الأقلّيّة؛ أنا والأغلبيّة؛ جعلت من صوتي يشبه بيضة القبّان، كلّ طرف يريدني إلى صفّه وأنا لا أودّ أن أكون في المقدّمة ولا أن يقودني أحد ولا أن أكون عقبة في وجه الأغلبيّة بقول لا لبعض الإصلاحات التي لا تعنيني قطّ. لكنّها تستند إلى منطق يحضر من المصالح وليس من الأمزجة والتطيّر. كانت الديموقراطيّة تتحدّد بأبعادها الاجتماعيّة قدر المستطاع وتكشف عن بؤر من الإحالات التي لم تمرّ عليّ شخصيًّا من قبل، ولا استعملتها في يوم من الأيّام

في حياتي العاديّة هناك في تلك البلاد. التصويت ونحن أمام السنديك في مكتبه نرفع الأيدي إلى أعلى حول شأن من شؤون العمارة، ليس حدثًا بسيطًا. كانت الحركة تلك كرقصة الحياة الجديدة. فكنت أقوم بقراءتها فأتعرّف على طريقة تفكيرنا نحن كبشر من الشرق والغرب. العمارة والتصويت والإصلاحات من الخارج عبر سلسلة من القوانين الإداريّة، كانت تجعلني بطريق خفي أنتمي إلى هؤلاء. إنّني ضمن هذه الثقافة وهي أيضًا تسمح لهم ولي بنوع من الإقصاء كما هي جارتي. كان بمقدورنا أن نكون أصحاب علاقة عاديّة جدًّا وربّما أكثر، حالة من الاعتياد على الغير ليس كوافد جديد وإنّما كساكن أصلي عليه أن يصون الواجبات ويمتلك الدفاع عن الحقوق. هو أمر ليس مرثاة. وبعد كلّ هذه السنين التي كانت موثقة بجيران في العراق ظلّوا إلى هذا اليوم خزّانًا من الحنان والوداد والمروءة لجميع أشغال الذاكرة. جارنا هنا قد يرانا سديمًا، نوعًا من الفوضى التي تهدّد وفي غفلة عنه وعنّي وكلّ هذه الأمور لا تدخل فيما نقول عنه: جارتي لا تحبّني. هي لم تحبّني. آه، الكلمة نفسها: أحبّ جارك ثم جارك إلخ تأمّل هذا الاختصار الذي ينزع عنّي اللاحبّ فيتحوّل الأمر إلى شيء مضحك ويثير الفزع والرثاء. حين نتوجّه إلى علم السياسة ونقرأ الاقتراحات الصاخبة ونشاهد التكشيرة المروّعة لتهديد هذه الدولة الجارة بتلك وتلك إلخ. جيران يشبهون الفرائس أمام صيّادين مستعدّين على مدار اليوم للقنص والذبح والسلخ وفي الأوج وهم يردّدون: أبغض جارك. أحسده، أكذب عليه ثم فكفكه عمارة بعد عمارة. هو سفيه ونذل وأحمق فندّد به في كلّ مكان واجعل ذلك

ضرورة كونيّة وسترى النهاية قريبة. هي القصص نفسها فنحن ذوات البشر في كلّ زمان ومكان. فجارتي لم تكن نفورة هكذا قبل بضعة أعوام. كنّا نتخاطب ونتحادث، نقف ونسير معًا قليلاً إلى السوق المركزي أو المترو. تخبرني عن رحلتهما القادمة في عيد الفصح المجيد إلى مراكش وأنا أروي لها بعض الأمور بسيل المفردات التي تعلّمتها للتوّ قبل أن تفسد تحت لساني. فجأة خرجت عن النصّ إلى الحدّ الذي جعلني أنسج القصص المتداخلة والإيحاءات كروائيّة لكنّي دائمًا أفقد الأثر الأصلي. توقّفتْ عن إلقاء تحيّة الصباح أو المساء إذا ما تصادفنا في الممرّ أو أمام الباب الرئيسي، وكنّا وجهًا لوجه ونحن نفتح صناديق بريدنا تفرّ عابرة كالبرق وكأنّ بي وباء. أظنّ أنّها لم تقرأ دريدا وما دونه عن العنف الخفي. إنّ اللاردّ على التحيّة بهذه الطريقة، هو نوع من عنف مستتر، ولكن له أدوات كثيرة ومتنوّعة. العنف موجود في جوهر العلاقة ما بيننا نحن البشر وبيننا وبين أنفسنا أيضًا. بعضنا ينتمي للعنف بصورة وحشيّة، بعضنا مفتون به لأنّه يشكّل دفاعًا ما عن الهويّة، وبعضنا يتعسّر في تفسيره لأنّه يحضر ويختفي حسب الأفعال تتمّ الردود عليه فيتربّص بك ويقوم بطردك من الحيّز العامّ وصولاً إلى الباب الرئيسي للحيّز الخاصّ باب بلدك ووطنك بيتك وشقّتك وأنت تدخلها وتغلق الباب عليك، وهو يحاول طردك حتى من مجالك الحيوي. جارتي أرى نفورها في حركتَيْ الوجه والقفا في لغة البدن البشري في سخط لا تقوى على التحكّم به فتنكس رأسها حين نتلاقى لكي لا؟ وأنا فضولي ومزعج حين يظهر وجهها أمامي ناشفًا جدًّا معصورًا ومقصيًّا. للأمانة هي لم تكن هكذا عندما وطئت قدمي أرض

العمارة. تعارفنا الأوّل كان بسبب الأصوات المزعجة والحركات العجائبيّة التي كانت وما زالت تصلني إلى اليوم يوميًّا منذ الساعات الأولى من الصباح. هم بشر أسوياء فعلاً أمّا أنا فكنت أسمعهم وكأنّهم يرقصون ويدبكون والمطلوب منّي الإصغاء التامّ بدلاً من الفرجة المجّانيّة. كان غضبنا أنا وابني في الأوج وهذا الأمر كان يتعلّق، إمّا بتعليم الصبر والذوق والسكوت وإمّا بتأنيب هؤلاء المتكبّرين الساخرين من نوم الضحى للغير.

بيت النوم

كنت أتجمّع ونفسي أثناء النوم. الجوهري في الذات كان يوارب الباب ويقترب من حدود غير مكشوفة من قبل. تطواف مذهل وخارج حدود أيّ ضجيج، فكنت أشرع وأنا في السرير بالتعرّف على شخصي مجدّدًا حتى لو لم أحصل على ما أشتهي. كان النوم الصباحي ينفخ بوقه في جميع مسامي بما لا يروّض قطّ؛ التمهّل والتراخي، التكاسل والغنج وأنت بين شراشف نظيفة ولحاف قطني جديد تفوح منه رائحة خزامى دفينة في طيّاته وصابون ترف يسكر الأنف فيأخذك للمسرّة ويدفع بك للنجوى فلا تريد أن تبرح السرير. لا ترغب، لا تقدرْ. عيناك مغمضتان تمامًا لكنّك في الأرجوحة المضاءة ببهجة النعاس الذي ما إن يبدأ حتى يبدأ ثانية وثالثة. آه، هذه حالة من نقاهة مستديمة وأنت تلمس بشرتك التي لم؟ بعد فتفصح عن البهاء الذي لا يتوقّف. أنت والنوم المختفي ما بين الأهداب والجفون وتتمنّى لو تكون ضالًّا عن اليقظة إلى الأبد، فلا تقدر على انتزاع نفسك من بين ذلك الفوحان من الدفء الذي بقي يدير رأسي، فما إن أمدّ يدي حتى أتناوله حتى لو كان فجًّا ولم ينضج ولن، حتى لو أنّ الفؤاد خالٍ وربّما بسببه فأنت في السرير

شخص آخر متعدّد ومنفصل تتنّزه إلى ما هو أبعد ممّا أنت فيه وعليه وتخلق أرواحك المتعدّدة الهائمة. تنبني وتتهدّم، تتكاثر وتنكص، تتجمّع وتتبعثر، وتلوب وأنت غير عابئ إلّا بتلك الأصوات الظالمة الآتية إليك من الجارة، والتي لا تكفّ أن تدعك موضوعًا تحت تصرّف الجميع. فكّرنا بشرّ الجار، الشرّ المرتبط بالعنف وبالواقع اليومي. فكّرنا بالتجاهل يومًا، عامًا. فكّرنا بالشكوى أمام السنديك أو. . . كانت الآلة الكهربائيّة للتنظيف أداة تعذيب عميقة الأثر وهي ذات سلطة استوطنت صباحاتنا حدّ العذاب. فالجارة سيّدة تقدّس مجد النظافة، هو ذاته الخطاب الأخلاقي لهذه الغريزة، فهي لديها حياة أو موت وبالتالي تمارين للصراع، كأنّ بينها وبيني، أنا المشرقيّة الآتية من كذا وكيت وهي بكلّ هذا الوعي الجنوني لفعل التنظيف كوسواس منتظم يدخل به الهوس داخل الوعي أو خارجه، فهي سيّدة بيت يبدأ انفجارها التراجيدي أوّل ما يكون الزوج خارج الشقّة، فأسمع الحركة الأولى تك تاك. قرّرنا أنا وابني الذهاب إليهما. وقفنا أمام باب الشقّة وضغطت الجرس. واجهنا الزوج فبدأت بالشرح وهو يصغي بصبر وهدوء ومسافة. المسافة هنا بين الكائنات البشريّة مرجعيّة يدخل فيها الدين والفرديّة، تدخل الأخلاق والحرّيّة. مسافة صارمة لكي لا يتمّ تجاوز النفس الأمّارة بالشطط أو الغير، لكي لا يتمّ الانفلات ويسبّب الأذى. وعد خيرًا والزوجة واقفة وراءه تصغي ولم تنبس بكلمة. مضى اليوم الأوّل والرابع والأسبوع الأوّل لكنّي أعرف الزوجات أكثر منه. هي نسيت تناست سهت تعمّدت فعادت ثانية. الأمر لا يتعلّق بها هي، عادة النساء يفعلن هذا وعلى ذلك النحو ثم نعتاد كلّ شيء: الفضيحة والجنون والموت حتى.

الأقدام السوداء

في العام ١٩٩٦ صدرت رواية «النفتالين» عن دار أكت سود. توقّفت الجارة في أحد الأيّام أمامي ووجهها يتغيّر من الأبيض إلى الوردي وبيدها الكتاب:

والدي حضر من الجنوب وزوجي وأنا ندعوك إلى قدح من النبيذ مساء السبت القادم. هل هذا مناسب لك؟

ياه، يا للحظّ. في اليوم الموعود تمّت مراسيم التوقيع وتناول المعجّنات اللذيذة مع قدح من النبيذ المعتبر. الزوج كما تحدّثنا كان اختصاصيًّا حقيقيًّا بثقافة النبيذ الفرنسي الجيّد والممتاز والسوبر. وقد منحني بعض بركات هذه الثقافة بقائمة مهمّة من خريطة لأهمّ المناطق الخاصّة بهذه الصناعة وأسماء بعض ألذّ أنواع النبيذ وأين يمكننا العثور عليه من متاجر خصوصيّة. وحين نهضت أريد الخروج، وقف بالباب وبيده قنّينة من النوع الفاخر. كانت خاتمة غير متخيّلة وفوق ما توقّعت. ففي أثناء المحادثة ذكر عرضًا لقب أصحاب الأقدام السوداء فقال:

ـ أنا أحد الذين يطلقون عليهم هذا اللقب.

كدت أقول له:

ـ لو يسمح لي أن أرى قدميه...

من المرّات النادرة التي سمعت بها هذا اللقب. وكما بدا فهو نظام وربّما سرّ لم يفصح عنه الكثير في تلك الليلة. من هم هؤلاء الكائنات؟ وهل هم ينتمون إلى صيرورات عملت من أجل تاريخها الشخصي أم أنّهم بالضرورة ينتمون للجغرافيّة والتاريخ معًا. فالتسمية بها هاجس الغموض والخطر. سألت وتفحّصت وبحثت عن أولئك، فوجدت أنّها صفة تُطلق على الفرنسيّين الذين ولدوا في الجزائر أو تونس أو المغرب منذ الاستعمار أو الانتداب الفرنسي وحتى الاستقلال الناجز، ثم عادوا إلى تلك البلاد ثانية. هذا اللقب كان خاصًّا بالفرنسيّين. وهم حسب ما يشاع لم يتمسّكوا بالبقاء بعد الاستقلال وإنّما عادوا جميعًا في العام ١٩٥٦ من تونس والمغرب وفي العام ١٩٦٢ من الجزائر. هناك مصدران لإطلاق تسمية الأقدام السوداء لكنّهما لم يتمّ الاتّفاق عليهما نهائيًّا. وهذا أمر جيّد ربّما، فلا حتميّة في التفاسير أو التأويلات فتظلّ بين بين. الرأي الأوّل يقول إنّ أقدامهم تلوّنت فعلا باللون البنفسجي الضارب للسواد وذلك بسبب أنّهم كانوا يقومون بهرس عناقيد من العنب الأحمر المقطوف من الأراضي المغاربيّة، فهم في الغالب الذين قاموا بزرعها وبالتالي عجنها من أجل هذه الصناعة التي كانت تدرّ أرباحًا مهولة للخزينة الفرنسيّة. فالأغلبيّة من هؤلاء كانوا يعتاشون من تجارة النبيذ وصنعه. أمّا المصدر الثاني فيقول إنّ الشباب الأوروبيّين الذين أقاموا في المغرب العربي عمومًا كانوا مهووسين بالأفلام الأميركيّة وهي تنتج وتعرض الأفلام حول قبائل

الهنود الحمر ببشراتهم الخلاسيّة وألوانهم التي تميل للسمرة الدكناء، فاختاروا هذه التسمية إعجابًا بالهنود والفيلم الأميركي الذي اكتسح دور العرض في دول المغرب العربي في الخمسينيّات والستّينيّات. ربّما هناك أشياء في جوهر الحكاية سوف يقولها أحدهم ويضيف. فالحكاية هي ملك للغائب وليست للراوي فقط.

عال، ولكن ما شأني أنا لكي يورد ذلك الزوج وفي تلك السهرة حكاية أصحاب الأقدام السوداء؟ هل كان يودّ التضامن على درجة تهذيبه أم التنديد بالاستعمار الفرنسي وكلّ نوع من أنواع الاحتلال؟ أم كانت مجرّد حالة من الثرثرة ليس إلّا مع رشفات نبيذ كأنّه ساهم في أحد الأيّام بهرسه وها هو يعود ويقدّمه لي كأعلى درجة من درجات الثمالة التي يتبادلها جار وجارة. بدأت خيالاتي المريبة تشتغل كلّما تحرّك في الشقّة فكنت بدأت أميّز حركة قدميه من قدمَيْ زوجته. تصوّرت أنّ القدمين مطليّتين بسائل القار وهو فعلاً صاحب قدم سوداء وليس الأمر مجازًا ياه كم هو الفرق شاسع بين النبيذ الفاخر وبين السائل الذي نبلّط به الجادّات.

بيت اللسان

الرجل لم يحادثني عن الأقدام السوداء بصيغة الماضي. كان ينظر في البعيد الحميمي والذي لا يقدر على إخفائه. شاهدت حياته في تلك الأمسية مصاغة بواسطة هذا اللقب وكان محظورًا عليه التخلّي عن اللقب. فهو لم يبرحه بعد. وللأمانة لم يقل ذلك كنوع من التباهي، لكنّه مع هذا هو لقب ظاهر ومضبوط عليه وإن لم يكن الأكثر تداولاً. لكنّه يشير إلى استعمالاته هنا وهناك في الجزائر على الخصوص. وحين صدرت رواية «الولع» في العام ٢٠٠٣ شاهدت جارتي ثانيةً وهي تدعوني بذات المراسيم وكان هذا هو عام بدء الغزو وبالتالي الاحتلال الأميركي للعراق، بعدها بدأ الجفاء وحلّ النفور الفعلي معها فقط. أمّا الزوج فقد كان يجيب إذا ما بادرت بإلقاء التحيّة. هي كانت تدير وجهها إلى الجهة الثانية. لا دليل بيدي لكي أفهم ماذا حصل. كنت أقلّ الجيران عنفًا وأذيّة وأكثرهم ابتعادًا إلّا اللهمّ صوتي وصورتي وهويّتي الفرديّة أمام أصحاب العمارة وأمام السنديك، فلا الصواب بجانبي ولا الخطأ من حصّتهم وما على بعضنا إلّا كما قال ليفيناس: ارتداء القناع

«لكي يمنعنا من اقتراف القتل». إنّ الهويّة، هويّات المرء لا نستطيع المكوث داخلها وبصورة تبسيطيّة وروتينيّة جدًّا. فهي تبني وتؤسّس مشكلة، فلديها مداخل شتّى وعليها أوزار لا تُحصى لكن هذا المرء يبقى في حالة من التحوّلات لا تتوّقف إلّا بالمغادرة عن هذه الدنيا ولا يجوز تصنيفها فقط على هذه الشاكلة أو تلك، فأنا لست أنا وحدي إلّا ومعي هذا الغير. أنا لست وحدي قطّ حتى لو تدلّهت أو لم أحبّ هذه السيّدة إذا أفرطت أو قترت أيضًا. فنحن نشبه الثروات الطبيعيّة داخل الأرض. الجميع ودون استثناء نحتاج إلى التنظيف من الشوائب التي قد تكون قاتلة لكي نلمع ونضيء ما حولنا وأنفسنا. وبسبب لجاجتي التي لا تطاق قرّرت أن أحاول وللمرّة الأخيرة معها. هكذا لوجه الكتابة باللغة العربيّة، لوجه الجمهوريّة الفرنسيّة وثورتي الرابع عشر من تمّوز في فرنسا والعراق معًا. من أجل وجهي الضارب هو الآخر في النفور والاكتئاب والقدم، ومن أجل وجهها الذي أريد أن أحقّق معه أعلى شروط السعادة. وهكذا قرّرت وفي أحد الأيّام وقفت أمامها وبالضبط فإلى أين ستفرّ منّي؟ كدت ألمسها ولكن هذا لا يجوز فهو أمر قادم من مرحلة القرد العاري، لكنّني كنت أودّ اللمس الذي يدلّ على شيء من التوادّ والاستحسان والرحمة. ما علينا. وقفت أمامها وبدقّة متناهية كنت أرغب أن أصيب الهدف فقلت بحنان حقيقي:

ـ بونجور مدام...

بدا صوتي مرتبكًا مشكوكًا في أمره وسخيفًا. شعرت به هكذا بعد ثوان. وهذه التحيّة لا معنى لها. هي عبارة لا تنتمي إلى اللغة، أيّة لغة. هي ذاهبة فقط إلى عصر آفل لا نقدر على إحصاء علاماته

وسياقاته إلّا بصعوبة بالغة. فأنا أرتبط به وينبغي لي فهمه جيّدًا جدًّا قبل تأويله. لم تجب هي، وأنا لم أعد أهتمّ إن رمت كتبي إلى الموقد أو منحتني أفضل قراءة. وها أنا أكتب عنها وعنّي وعنّا. فهذا أيضًا ليس بالأعجوبة ولا بالمزية، هو المضيّ صوب الخرس اللغوي فتضاعف لساني أجنبيّة ولعثمة وأنا أبتدع طرقًا ملتوية في قطع دابر استخدام لساني الأصلي فهو ملك آخر، حتى ليس ملكي الشخصي ولا أنا من صناعته...

بيوت إلكترونيّة

توطّدت علاقتي مع فاليري صاحبة محلّ النسخ المصوّرة الواقع في نهاية الشارع الذي أسكن فيه. كانت أمامي خيارات عدّة لمحلّات الاستنساخ. لكنّني كنت أفضّل مشاهدة ابتسامة هذه اليافعة الوّضاءة وهي تقوم بالترحيب الدافئ. أوّل ما شاهدت الآلات الحديثة التي استبدلت بتلك التالفة حتى دخلت في طور الفوبيا الإلكترونيّة. الأزرار الكثيرة تدخلني في الهلع. الأضواء التي تنبعث من هذه الأجهزة أو غيرها تسحب الراحة من فؤادي وتقلق حركة رؤوس أصابعي وأنا أحاول الكبس على الزرّ الفلاني عن طريق الخطأ. نعم، البشريّة تتقدّم ولكن ليس جميع البشر يتقدّمون، على الخصوص إلكترونيًّا. لديّ كرّاسات - شكل ثان - كلّ واحدة منها اخترتها بلون حسب ألوان الخطر القادم من قياس ريختر للزلزال أو البراكين. بدأت باللون الأخضر الفستقي الذي يعادل بالنسبة لي الجهل الطفولي غير المشكوك فيه. وضعتِ فيه خطوات أعلى مراحل يأسي من هذا الجسم الجميل والغريب الذي احتلّ مكانًا بارزًا في غرفتي. كان

الحاسوب الأوّل هديّة من فايز ملص. قال لي مازحًا:

ـ شوفي هو لا بأس به. بس أصيب بضربة شمس خفيفة. يحتاج فقط إلى ضربة واحدة من يدك الرقيقة حتى تلمع روحه.

تضاحكنا وهو يعلّمني الدروس الأولى. في اليوم التالي قمت بدور الإغراء الخفيف، ضربة حنونة من كفّي النحيفة. قلت، هو يحتمل. ولكن، علمت وفيما بعد أنّه مثل بعض البشر يتحمّل ضربًا مبرحًا. صحيح كان الضرب مجّانًا، أردّد ذلك وأنا ألوي يدي حتى تصير قبضتها محكمة، فأضرب وكأنّ أمامي عدوًّا يتربّص بي. وبدون إبداء أسباب وجيهة يبقى عاجزًا عن الاستجابة. دون كيشوت كان سيفه من الخشب، وقبضتي من لحم ودم وأعصاب فتضاعف عنفي العراقي حتى تحطّمت الشاشة في واحدة من إحدى جولاتي الشجاعة. دخلتْ على تلك الخطوط الإلكترونيّة كاترين لامب العبقريّة السويديّة قولاً وفعلاً وكرمًا. فهي، بعد كلّ عام بالضبط تغيّر حاسوبها البيتي الكبير. تبيعه لمن يشاء. فهم كثر وبثمن معتدل وعبر النت أيضًا. كاترين هذه كانت هبة عالية وعطيّة ربّ العالمين لي. فمطرها العلمي كان يسقي جفاف تربتي اليابسة جدًّا. فوضعت لكاترين اللون البرتقالي، قلت، كلّ هذا اللون لها وهي تدرّبني على النت. كنت لا أتجاوز الرقم صفر فهو لم يفلت منّي هنا أيضًا، إنّه حالة لا تفنى ولا تستحدث من العدم. كان الصفر يقوّي معنويّاتي الروحيّة والنفسيّة، فالقرد العاري نفسه، كنت أستدعيه لكي لا أنفر من حالي وأنا في طريقي للدخول في حقبة الإلكترونيك. في أغلب الأحيان لا أراعي مرض عينَيّ العصيب. فالشاشة، والتعلّم عبرها، تحمّسْ

جدًّا. وهذا العالم لا أريد التحصّن ضدّه. كاترين كانت تضحك ويتورّد خدّاها الأبيضان جدًّا حين تسمعني أهتف قائلة لها عندما تعثر على جميع الحلول الإلكترونيّة:

ـ أنت بطلة...

إقبال من برلين تدخل على خطوط الطول والعرض، فتعدّل وترمّم، تسهر على تعليمي بالصوت أو بالكتابة عبر الخطوات المتوالية فوضعت لها دفترًا بلون أخضر. نادرة تحضر على الدرّاجة الهوائيّة من آخر باريس بعدما تمّ التورّط بجهازين من أحدثهما هما: الآي باد والآي فون فتردّد بصوتها الجميل:

ـ حسنًا أنت التي تتمتّعين بكلّ هذه الأجهزة وما عليّ إلّا عذاب تعليمك، فأطلقت عليها لقب أمّ ضحكة جنان. فهي تعمل كلّ هذا بطريقة شديدة السخاء وبدون تأفّف... أخي عبد الإله ما إن مرّ بباريس وليومين حتى قام باللازم لساعات وساعات وأنا أكتب لكي لا أنسى فاختار لنفسه اللون الأزرق. ابنه أحمد مرّ بباريس في طريقه للسويد قام بما يدفع البلاء المبين. فاروق يوسف ما إن زرتهم في السويد حتى رحت أحرجه بجهلي الذي كان يتناقص على يديه وباقي الأصدقاء والصديقات، لكنّه يواصل ولا يبالي. لكنّ النت يتعقّد، فماذا أفعل. كلّهم أبطال أشاوس مغاوير وأنا الخائبة الذين يتنابون على إغراقي بماء العلم والتكنولوجيا وعصري من الأمّيّة النموذجيّة في النت. كنت أقول لهم:

ـ أنتم بعدّة رؤوس وعدّة مواهب وأنا يا دوب أتصدّر الصفر،

ما زلت أشغف بالكتابة على الكرّاسة ذات السطور المنتظمة، شغل الإنكليز، وأحبّ الأقلام الجافّة ذات الحبر الأسود. لا تنقصني الشجاعة من إعلان ذلك فأنا أحبّ يدي وهي تهذّب الحروف وتهدّئ من روع السرد.

بيوت الآلات

كلّ شيء حضر ويحضر دون استئذان من أيّ أحد. نحن الجهلاء الأميّون، فالعالم شديد الرحابة والتعقيد، وهو أيضًا بعيد عن التصديق. وحين أفتح حافظة بطاقاتي أراها بعين الرضوض التي ترضّ رأسي وجسمي: بطاقة سحب النقود، بطاقة الضمان الصحّي، بطاقة الاشتراك السنوي للسينما، بطاقة من متاجر خاصّة لكي أنال التخفيضات اللازمة في مواسم الأعياد... وكنت أعتب في خاطري على دكتاتوريّة العلم العادلة التي تريد من ذلك القرد العاري أن يتدبّر أمره وإلّا فستكون طفولته طويلة الأمد، ولا يمكن ردمها إلّا بالمعاشرة الطويلة القادرة أن تضمن لنا نوعًا من الحبّ لا علاقة له بما هو دارج من أنواعه المعروفة لدى العرب والعجم. لكنّني من جانب آخر كنت أهنّئ العلماء، فبعضهم كان يفهم مسوّغات جهلي ويضاعف من التحسينات المتوالية للأجهزة والأزرار والبرامج والحجوم إلخ. أمّا ذاك المدلّل الفاتن المرهوب الجانب الهاتف الجوّال، فكنت حتى العام ٢٠٠٨ أطرده من مجالي الوجودي، لا أطيقه ولم أطق أولئك المهووسين الذين كان بعضهم

يدعوني إلى مائدته فيضع أمامي أربعة أجهزة من الموبيل بدلاً من شراب الجنّة. فأقوم بقلب شفتي حين ترنّ الأربعة دفعة واحدة ولا أعيد لساني الذي أخرجته امتعاضًا وأنا أقوم من أمامه. لكنّي أوّل ما فكّرت باقتناء هذا الجهاز كان بسبب ضياعي وأنا في الضواحي الفرنسيّة. كنت أدمدم من الخوف. لمست جسده الغضّ الرشيق المبهم وكانت الملهمة وفاء قاسم معي في هذه الخطوة الجهنّميّة أيضًا فأنشدت أمامها، هي المصريّة، أغنية وطنيّة شهيرة كانت رائجة أيّام النضال السلبي والإيجابي:

ـ أصبح عندي الآن «جوّال» بدلاً من «أصبح عندي الآن بندقيّة».

كانت الزلازل العلميّة تتحدّث بصوت خفيض. تهمس لك، والهمس شديد الغواية والإثارة، فما كان عليّ إلّا أن أعرض وساوسي برضًى تامّ أمام ابني المهندس الإلكتروني. هو أيضًا منحني قسطًا من تلك الدروس. أمّا أولئك المهندسون في إصلاح ذات البين في كلّ حاسوب جديد أو مستعمل اقتنيته، فكانوا من العراقيّين والعرب وأغلبهم شبه حراميّة. احترفوا أنواعًا من السلوك الإلكتروني في الفساد والإفساد. فالبعض كان يفسد النفوس وهؤلاء تخصّصوا في تخريب الآلات بطريقة خارقة للعادة. أحدهم يشتري لي قطعة جديدة وينهب القطعة الأصليّة الجيّدة أصلاً.. . فيحضر ثانية وثالثة. ثعابين يجعلوننا نخلع جلودنا وفلوسنا أمامهم حتى يظهر اللحم الحيّ ولا يبالون أو يشبعون. كنت أتعلّم وأنسى كما هي اللغة الفرنسيّة. فهنا وأمام هذه اللغة الإكترونيّة الشديدة التعقيد، كنت أبدو من العبيد المسالمين أمام الأسياد المختارين.

فالنسيان كان يستقرّ عندى كما لو كان بصمة جينيّة تدوم مدى الحياة، وأنا أحصّنه بالتعبئة اللازمة كما البطّاريّة، لكنّني أواصل التعلّم ببطء السلحفاة التي أشغف بحركاتها التي أتصوّر أنّها وجدت لصالحي العامّ والخاصّ. فأظنّ أنّ على بعضنا أن يتدرّب طويلاً، أطول من سور الصين لكي يصل إلى حوافّ مرحلة ما أسميته: النضج الإلكتروني، كما هو بالضبط النضج النفسي والعصبي والجنسي أمّا أن أكون متخلّفة أو في القمّة. النت، الدخول والخروج منه يذكّرني يوميًّا ودائمًا بنشاط وتوقّف عمليّات الإباضة، وعلى الخصوص عند المرأة، والتي تتوقّف بشكل مفاجئ إلى حدّ ما في سنّ الخمسين تقريبًا. لكن ما كنت أقرأه عن نشاط النساء والشابّات في فنّ الإلكترونيك كان يدع هذه الفكرة مهزوزة أيضًا. فالارتباط بالحاسوب البيتي أو اللاب توب أو الآي باد أو الأي فون أو... وعلى الدوام أضعه في خانة الارتباط الجدّي الرصين والجلف أحيانًا والذي يأخذ شكل الزواج الرسمي، وأنت وطالعك، فأنواع الزيجات تعدّدت وتنوّعت وتناقضت، على الخصوص بعد الخضّات السياسيّة والفقهيّة والشرعيّة. فأمّا أن يكون رسميًّا وبشهود ومعلّمين ولصوص أيضًا أو قم أنت وحدك باختيار النوع القادر على تخفيف توتّرك العصبي. وأمّا أن يكون الارتباط بالنت على غير الجماع الرسمي، شغفًا يقارب الجنون الجنسي بذاته، معاشرة قاتلة طويلة وبلا انفكاك، ولا تختصر ببضعة تعابير أو نعوت، فلا نعرف بالضبط المقارنة في هذا الجانب الحيوي من الدماغ البشري وتقبّله للنت ما بين الذكر والأنثى وبين الهوس والتجاوب غير المرضي.

أجهزة الخوف

منجم ألماس هو الخوف. كلّما قذف بي إلى داخله استرددتُ بعض الطمأنينة، فأرى جميع ما حولي يعمل لحساب إخافتي. يستردّني الخوف لحسابه الخاصّ من هذا الجهاز أو ذاك. من آلة الاستنساخ المتطوّرة جدًّا وآلة سحب النقود التي سحبت في إحدى المرّات الكارت فبقيت مفلسة في نهاية الأسبوع وبلعت الهواء. آه، هي الأجهزة ذاتها حيّة أكثر منّي فأحسدها ولزمن يحضر طويلاً طويلاً. فأنا أغمس أصابعي في لحم عمري، وأحاول كلّما تقدّمت بي الأعوام، تبجيل السنين التي جعلت قبولي الإلكتروني في تصاعد مستمرّ ممّا ضاعف من لياقتي الإلكترونيّة. صديقاتي أعدن تربيتي في تنوّع البرامج والمعلومات والإضافات، فكنت أتجاوب بالطبع، لكن عيني مريضة.. فتطول الاستجابة وتبطئ في الفولتيّة المتذبذبة فأعاود وأعود وكأنّني أستعير ما مرّ بي من فترتي المخاض والولادة والتي لم ولن أنساها، طوال حياتي فلم أنجب إلّا ولدي الوحيد لكنّ بيجان حفيدي ذا العشر سنين علّمني في الصيف المنقضي، وكنت أزورهم في مونتريال على العمل الأسرع في

حياتي لجهاز الآي باد. كان لا ينظر طويلاً فيما بين يديه. كان يتنفّس فقط في وجه الشاشة فتعمل حالاً. يضع الأيقونة واحدة بعد الثانية على الشاشة كما لو كان يمسك الندى فيهبّ في وجهي النسيم. راقص باليه هو أمام هذه الآلات الشديدة الأناقة. صبور معي أكثر من والده فضمن لنفسه حبًّا، ربّما أكثر من حاجته إليه، لكنّه كان بالنسبة لي مكافأة وطمأنينة عمري الأكثر إثارة ومتعة.

إقامات ما بعد الحداثة

كنّا ننزّ عرقًا غزيرًا. مضخّة الشمّ لديّ تشتغل بصورة جيّدة فتصوّرت حالي وسط مخلوقات ثدييّة وبرمائيّة من فصائل الحيتان والدلافين. فالعرق كان في أعلى أزيزه، وأنا أُحشر في المترو الذي سيأخذني إلى محطّة باربز الشهيرة. اليوم كان التاسع من حزيران من العام ٢٠١٠. مشيت في صباح خانق جدًّا من الرطوبة والتلوّث وبدأت أعطس بصورة متلاحقة. كانت صديقتي تمازحني وهي تصغي لشكواي من مرض الحساسيّة فتطلق عليه صفات فكاهيّة مستمدّة من القاموس الاشتراكي وأحيانًا العسكري لكي تهوّن عليّ معاناتي مع الهرش.

كلّما انطلقت أبخرة وغازات ملوّثة كان جلدي لا يضلّل الحقيقة التي أعرفها، وسرعان ما أبدأ بالهرش المخيف فأبحث على الاتراكس، مثبط هرمون الهستامين، صديق الملمّات وباسط يد الرأفة لبنات آوى من أمثالي. هكذا كانت حالتي وأنا أقف أمام المبنى بزجاجه المعتم ومدخله الوخم الذي يحمل الرقم ٦ والكائن في شارع ـ دي توت ـ في باريس التاسعة. أوّل ما قابلني رجل

خمسيني يجلس وراء حاجز خشبي. من الجائز يطلقون عليه الكومسير. كلّ عضلة فيه كانت تتأفّف. أزعم، ليس بسببي، خلقته هكذا توازي بالنسبة لي قطعة أدبيّة. هكذا قلت لنفسي، فالأمر مثير دائمًا، فليس كلّ مرة تصادف أشخاصًا جاهزين للدخول إلى النصوص فنقوم بالتعرّف إليهم عن قرب في أثناء المعاينة المباشرة كما حاصل معي الآن. فهذا رجل يبدو دائمًا الحقّ معه. هكذا كان والدي معاون الشرطة الذي يترصّدنا أو هكذا يتراءى لنا، ويتجلّى دائمًا بخاصّيّة الرهبة، لكنّني لم أراع إلّا المتعة التي أحصل عليها وأنا أفكّك العقليّة البوليسيّة ونظريّة الترويع التي كان أستاذًا بارعًا فيها. الكومسير الفرنسي يجسّد هذه الجزئيّة في خصائص تتماثل مع أيّ بوليسي في الشرق والغرب معًا.

الرسالة التي وصلتني من هذه الإدارة عرضتها أمامه، فأشار بيده بضجر قاتل: هه هنا أدخلي. هذا السأم غير البودليري ينتشر ويتّسع كلّما توغّلت عميقًا في دهاليز المؤسّسات الفرنسيّة، نراه محفورًا عبر وجوه الموظّفين والموظّفات، هنا في هذه الدائرة بالذات التي بيدها تقرير المصائر، مصائر وجودنا وكياننا المادّي والمعنوي: أمّا البقاء في فرنسا أو. . هذه الـ. أو كانت إذا جاز القول هي التي تسبّب توقّف اللسان في البلعوم، وتشلّ ضربات القلب، وتعرقل سريان السكّر في الدم، وصعود درجة الحساسيّة لديّ إلى الحدّ المخجل جدًّا فأدخل إلى التواليت لكي آخذ قسطًا من الهرش وعلى راحتي، على الخصوص في وجهي، وشحمتي أذني وراحة يدي وجبيني، فيتحوّل وجهي إلى شوندرة مسلوقة. كنت أهتف لحالي وأمزح مردّدة:

ـ حسنًا يا فلانة، لن يستغنى عنك هؤلاء القوم لعشرة آلاف سبب، أوّلها وآخرها أنّني اصطفيت للولع بهذا البلد، فصار هذا شغلي الشاغل، وليس شغلي الإضافي، كما نحن مع بلداننا وحبّنا لها الآيل للتلف. ماذا سأفعل فيما لو ضاق الوقت وركنت جانبًا خارج هذا النعيم؟ كنت أضع جميع التفاصيل المجرّدة والاحتمالات والخيارات أمامي وأنا أرصد الأحداث والأمراض والدماء التي نتعرّض لها هنا بالطبع أيضًا. كنت أجمع وأطرح، أقسم وأنتظر الضرب أو الطرد، من واحد من هؤلاء القوم. لكن كلّ شيء مرّ بهدوء. الموظّفة تسأل وأنا ألبّي النداء: الصور، آه، هذه صوري وأنا أشبه اللحم المقدّد، قلت، لا، أنا أفضّل الفاكهة المجفّفة فهي تضخّ طاقة مضاعفة للدماغ. في الصور، صوري، أبدو بمفردي بالطبع، لكنّ هناك شخصًا يجاورني واقفًا بجانبي؛ نظام خوفي.

أقساط الخوف

حسنًا، أوراقي الثبوتيّة أصوليّة، فاتورة الغاز الذي تضاعف سعره في السنين الأخيرة بعدما بيع وتحوّل إلى مؤسّسة خاصّة. ضغط عيني يهدّدني في قادم الأيّام فغارت عيناي الصغيرتان الضيّقتان أصلاً إلى داخل تجوفيهما الصموت، فصرت أغضّ الطرف كثيرًا جدًّا عن أشياء وأمور، بشر وحوادث وبلدان وصداقات. كنت أعتقد أنّها تستحقّ الانتباه والعناية فخلدت للسكينة والراحة الموقّتة، فتصوّرت أنّ المخلوق البشري يشتغل في كثير من الأحيان على ما كان يبغضه لدى الآخرين، وهذا يصحّ في شؤون الثقافة، وعلى الخصوص في الكتابة، فنكتب في كثير من الأحيان ما نكره قراءته لدى غيرنا. هذا وغيره كان يتلاطم في الرأس وأنا أفتح ملفّي القانوني وأستخرج: ملفّ الضمان الصحّي، السكن، الضريبة، جواز السفر العراقي الساقط إجرائيًّا لأنّه يحمل الحرف ـ سين ـ لكن مدّة صلاحيّته جدّدت لعام واحد فقط. . . و، أعطتني السيّدة المسؤولة ورقة رقيقة وفي داخلها رقم وأشارت عليّ بالجلوس. في أوّل مقعد صادفني جلست ورفعت رأسي إلى فوق.

كانت أمامنا شاشة عريضة تعلن عن أرقامنا تباعًا، وتعرض بالتالي بعض أنشطة وزارة الشغل إلخ.

صفوف الجالسين ما يقارب العشرة كراسي من الخشب متلاصقة بحديد لكي لا تتحرّك إلى اليمين أو الشمال، فبدت غير مريحة للظهر. عال كلّ هؤلاء قبلي. كنت أدقّق فيما يجاورني وما حولي. بشراتنا تراوحت بين ألوان شديدة اللطافة؛ قهوة بالحليب، زبيب بالبسكويت، زعفران بالرز المطبوخ جيّدًا، بودرة تالك تفوح من بعض الجلود الريّانة. ألوان العاج والشمع الأصفر والكاكو. كلّنا نتجاور ولا نتخيّل ذلك. نستطيع التحرّك باتّجاه بعضنا البعض والجلوس معًا كما علّمنا آباء الكنيسة، أو العقيدة الإسلاميّة أو الدروس التوراتيّة. كنّا ننظر بعضنا في وجوه بعض في حالة ما بين النكوص الخفيف والطمأنينة المخاتلة. هذا العالم كلّه على حقّ، هذا هو الوجود الشاقّ والوعر ونحن الذين نلعب وهم يتفرّجون. لا نعرف هل نبدو في منافسة مع أحد أم مع أنفسنا أو أنّ هناك ربّما بعض الاستحقاقات الثأريّة؟ كلّ واحد منّا بسحنته كان يأخذني إلى «الأحياء المتجاورة من إغناء وإثراء للتجارب الإنسانيّة، فالمختلف يثير الفضول وحبّ الاطّلاع وفهم حقيقة اختلافه عن المثيل ويغري في كثير من الأحيان بالاقتباس والأخذ عنه ومحاكاته والاغتناء بتجاربه».

هنا ألاحظ التناسق وارتفاع درجة اللبسْ داخل هذه المكوّنات البشريّة فيما بعد الحداثة.

في الحوار الداخلي، والحديث العادي، إيماءات الرأس الخفيفة وحركة اليد المتردّدة، وارتفاع الصوت أحيانًا وانخفاض

الرقبة أكثر الأحيان. فصورنا غير ثابتة لكائنات عابرة لا تقدر على توطيد علاقة أو تأمل في عقد صداقة، لكنّنا نتساءل فيما بين ألسنتنا المعوجّة أو الفصيحة؛ أنّنا هنا في هذه المدينة لكن خوفنا هو اللاعب الأساسي فيما نحمل على ظهورنا من تكاليف باهظة الثمن تنتظر منّا دفعها ولو على أقساط كما لدى الكثيرين منّا، أنا واحدة من هؤلاء... جاء دوري بعد ثلاثة أرباع الساعة. بيدي الرقم وأنا أبحث عن الحرف المطلوب. كانت الموظّفة يافعة جدًّا. أشارت بالجلوس فجلست وبدأت بفتح الملفّ وسحب الوثائق واحدة بعد أخرى حتى أشارت برأسها بما يعني: آه، حسنًا. سلّمت إليّ وصلاً بالاستلام على أن أعود بعد شهرين لتسلّم كارت الإقامة وقد تجدّد عشرة أعوام.

ماء الكولونيا

لا ضمانة لي، أمسك كارت الإقامة بيدي وقد تمّ تجديده، فكيف ستنقضي الستّون يومًا عليّ؟ ربّما عليّ القيام بغسلها وتدليكها بماء الكولونيا، وبالتالي تجفيفها بمناشف تيلتها ناعمة جدًّا لكي تنزلق الساعات والأيّام هادئة. لم يمرّ الأسبوع الأوّل إلّا وعثرت في صندوق بريدي على رسالة مستعجلة من الإدارة نفسها. بالتأكيد هو خطاب موجّه لي وهذا هو اسمي واسم زوجي. كلماته تخفي أكثر ممّا تعلن. أفلّي كلّ كلمة وكلّ ما فيه يخيفني. هي رسالة كتبت بحسّ عال من البيروقراطيّة. آه فهمت سطورها لكنّها مائدة لا تسمن ولا تشبع وهي تناسب أصحاب النظام الغذائي القليل جدًّا مثلي:

ـ نودّ إعلامكم أنّكم مطلوبون للعودة ثانية إلى دائرتنا في...

لم يكتبوا أسباب الدعوة. لم أضع يومًا الخوف فوق الرفّ العالي لأقول له استقرّ هنا وحين أحتاجك ستنزل وتستقرّ في الحنايا، هو الآن وعلى الخصوص بين يدي وكامل الدسم. عراقي، شرعي وواقعي يكسوه الشعر الكثيف ولديه ثنيات في الخدّين وخصوبة في

المبايض. قلت لإقبال بصوت مبحوح:

- ولماذا يستدعونني ثانية دون ذكر الأسباب، فربّما لكي أجلبها معي، ورقة أو وثيقة أو مستند لكن بهذا الغموض وكلّ شيء مرّ بهدوء والوثائق سليمة.. لماذا؟

يا ربّ العالمين. السفارة العراقيّة رفضت منحي وثيقة سفر جديدة للأسباب إيّاها، وما لديّ ما زال ساري المفعول.. و.. إذًا ماذا حصل خلال أسبوع واحد فقط؟ بعض الأحداث تحصل، وبسبب درجة سخفها وعبطها لا يمكن أن توعزها إلى أيّ أحد، حتى إنّك تشكّ فيما تمتلكه هذه الرسالة من قدرة من سوء الفهم الذي يؤدّي إلى كلّ هذه الأذيّة النفسيّة. بقيت أطرح الأسئلة السلبيّة فقط. فهي الغالية على قلبي وهي التي أنتجت كلّ هذه الكسور في الروح وجميع الأسئلة كانت تؤدّي إلى: قد انتزع من هنا، ولكن إلى أين سأعود؟ كنت أتحقّق من كلّ شيء يجاورني إلّا من الخوف. فلم يكن حادثًا كونيًّا كالموت، ولا فعلاً جنائيًّا كالقتل. لكن فيما إذا انتزعت من هنا فهو مشروع قتل، لم أتوصّل إلى أنّه متعمّد أو لا. ولكن هذه الفكرة نخرت رأسي ولفترة ساعات في فيض الخوف ويغرق الضفاف البعيدة أيضًا. لم يسمح لي لا هنا في فرنسا ولا هناك في بلدي لكي أقوم بالتكهّن بأسباب الخوف وبرامجه لأعرف السلاح الذي بمقدوري استخدامه. فكلّما ردمت حادثة حقيقيّة وشديدة التعقيد، كإثبات عراقيّتي ومحاولة استحصال وثائقي العراقيّة الأصليّة فأقوم بذلك بصفتي الرسميّة العاديّة كمواطنة أجنبيّة، فأشعر كما جميع الخائفين، ليس العراقيّين فحسب وإنّما في العالم عمومًا، وكأنّ الجميع كانوا يضعون في ساعة واحدة

ويوم واحد وفي بؤبؤ عيني قطرات من غبار خوف ناعم أبدي ممّا جعل أيّامي بدون استثناء مجدية لكي أقوم باستخراجها ثانية، ومعاينتها ورفضها والعصيان عليها. كنت أردّد بصوت داخلي وأنا في طريقي إلى البناية نفسها ثانية:

ـ ينبغي لي فعل هذا. لا أريد أن أتلقّى المزيد من لكمات الخوف.

كنت في حالة من الهذيان وأنا أردّد جملاً حفظتها واستخرجتها من جميع الكتب التي سبق أن درستها في المعاهد التي مررت بها لكي يكون الحدث على قدر المكابدة. كانت الحبكة جدّ عاديّة لكنّ التشويق في أوجّه. من يدري وأنا أمشي في الطريق عينه وبعد نزولي من المترو، ربّما ستسحب الإقامة القديمة ولن تجدّد كما وعدت تلك التي لا تبتسم، وعلى كلّ هؤلاء أن يعثروا لي على مكان ما، لا أعرف أين ولا هو مسؤوليّتي. قمت بالإجراءات نفسها ولكن هذه المرّة أسرع. شاهدت اسمي ورقمي بعد أقلّ من ربع ساعة فقمت على عجلة فتعثّرت بصبي أسمر جميل فوقعنا معًا هو تضاحك وأنا كدت أعول. أمام ذات الشابّة كنت على استعداد أن أرشّحها ملكة جمال لجميع الإدارات في الجمهوريّة الفرنسيّة. نظرت في ملامحها. كلّ شيء عادي، متنكّر بهذه العاديّة هي كالعادة بعيدة ومؤدّبة وأنا عدت للجلوس أمامها. هذا الهدوء العادي يسبب الريبة فشعرت أنّني فضلة من أسلاب إمبراطوريّة تعدادها الملايين من الخائفين، أصحاب الأنفاس المقطوعة ونحن نتدرّب تدريبنا الخاصّ وقبل الوصول إلى هنا. هناك في بلداننا قفزنا إلى الممرّ الأزلي لهذا الخوف فألحقت بنا

المكروبات والدمامل ونحن ننتقل ما بين السطح العالي تحت أنظار النجوم البغداديّة التي أظنّ أنّها تعفّنت اليوم. كنت أتساءل وأنا أمام فتاة شابّة أكبر قليلاً من حفيدي: هل هناك ما يستحقّ كلّ هذا الوجيب الذي كاد يشقّ قميصي القطني ويضرب الزجاج خارجًا إلى هواء العالم. ظننت أنّ هذه الآنسة تجيد الإصغاء، فكنت أبدو بكامل لياقتي القديمة:

ـ خائفة من... وخائفة على...

ودون أن أتفوّه بكلمة وهي تشير عليّ برتابة قاتلة تؤدّي إلى الحمق:

ـ عليك بإعادة التوقيع بالقلم الأسود، فالأزرق ممنوع.

ـ فقط؟

أومأت برأسها وأضافت:

ـ نعم.

في طريقي للخروج دخلت الحمّام وتصوّرت أنّ الحبر الأسود هو السمّ الذي سمّمني. تقيّأت بصوت مخنوق إلى داخلي، غسلت وجهي طويلاً. كانت الدموع تختلط بالماء فأراها بكلّ عيني وأعاود الاغتسال. كنت أقترب من الانهيار ثانية وثالثة وأنا أكتسب مزايا جديدة في مراقبة وقراءة صفات جديدة للخوف والتأكيد على رفقته وعدم تبديد طاقته مهما حصل من انفراجات أو إيجابيّات. لم أمسح دموعي وأنا أضع عويناتي السوداء ثانية في طريقي للشارع. لا أدري لِمَ تصوّرت أنّ هذه الدموع وهذه المرّة ما هي إلّا نوع من توابل أصليّة يضعها الغير لكي يجعل طبقه شهيًّا ولذيذًا. في طريق

العودة وقفت جانبًا وتحدّثت مع أحمد الدليمي، ووفاء قاسم وبعدهما مع إقبال القزويني. تعالى انتحابي وأنا أروي الحكاية العبيطة وأنا أصل شقّتي، وأنا أخلطها بترياق لا يعرفه إلّا الخائف مثلي: كنت أغرف من نبع مقدّس لا يصله إلّا المطهّرون من أمثالي ولا يغادره إلّا المبتلون به تمامًا...

المحروس والمنصور بأمره

حمدًا لله على حصولي على الجواز العراقي الجديد. إنّي الآن عراقيّة بجميع شهود الإثبات المطلوب. هذا المحروس العتيد والجميل كعريس بزيّه الأنيق ولونه الزيتوني الكامد وخطّه الذهبي اللمّاع والمصاغ باللغتين المباركتين: العربيّة والكرديّة. عال، لم أعد مجهولة النسب والهويّة، السلف والدم ولو هو مختلط بدم أمّي المصابة بالسلّ العراقي والرئوي، وبغير هذا وذاك فأنا وحيدة في عراقيّتي. أظنّ كلّ عراقي بمعنى من المعاني وبعد التي واللتيا يستقلّ قطاره وحده فيكاد يصل إلى لا مكان بعينه، إلى لا شخص بذاته. ما علينا، جواز سفري العراقي الحديث الطازج والصادر للتوّ: تمّوز ٢٠١١ يشبه رغيف محلّة باب الآغا الشهيرة في بغداد: لذيذ ورخيص وابن أوادم. كاغده صاغ سليم، محبوك بطريقة لا يدخلها التزوير والفبركة والفساد لا من الأعلى ولا من الأسفل. هذا جواز عراقي صحيح مائة بالمائة ولا يتأهّب للانصراف على الأقلّ فترة عشر سنين. ياه، هل سأعيش حتى ذلك الوقت؟ لم أره عابس الوجه ولا يتظاهر باللطافة الشديدة إنّه فقط جواز بدا لي كمن

انتهى من عمله وسلّم إليّ وما عليّ إلّا أن أرفع شرشف المائدة والصحون. فالضيوف انصرفوا والحفل انتهى. والآن لا يبصرني أيّ أحد ممّن قام بتزويدي إيّاه، فلا أنا سأتبدّل ولا هذا الجواز سيمحى عن بصمة إبهامي، فهو وحيد مثلي ويعيش في عزلة وها نحن الاثنين نعيش معًا تحت ضغط التحاسد والضجر أحدنا من الآخر.

عندما اتّصلت سراب، المسؤولة اللطيفة في السفارة قائلة بجذل حقيقي:

ـ لديّ بشارة لك طولها من باريس لبغداد.

أطلقت ضحكة وأنا أجيب:

ـ أكيد وصل المحروس..

ـ نعم وصل...

حين وصلت مقرّ القنصليّة العراقيّة، لم أعثر على كرسي واحد خالٍ. كانت هناك عدّة عوائل كرديّة وأطفالهم يتشاجرون ويمزحون والآباء يتكوّمون على شبابيك القنصليّة، ففتحت أمامي أبواب القنصليّة الداخليّة وقدّمت لي أنواع الرعاية الحقيقيّة. فجاء وقت التوقيع العادي على سجلّ الاستلام بالطريقة التقليديّة: طبعة الإبهام على العلبة الحاضنة للون البنفسجي الغامق جدًّا. قالت سراب:

ـ مدام، وقّعي هنا.

وقعت.

ـ وصورتان ثانيةً.

بغتة، سمعت وشاهدت نشيد النصر أو نشيد الأنشاد. نظرت

إليه وأنا أمسكه بيدي كمن يرى الجزء المعتم من القمر. كدت أطلق الهلاهل العراقيّة التي لا أعرف عملها كما إنعام كجه جي مثلاً. صوتي وهن وكاد يغيب من الانتظار الطويل. أربع سنوات بقيت شبه سجينة في باريس وها أنا لا أتحدّث عن معذّبي الرنّان الصوت بلغة العشّاق المغرمين. أنظر إليه بعين باردة، وأظنّ أنّ بمقدور هذا الكائن الصغير جدًّا، أصغر من الجوازات العراقيّة السابقة، فربّما هم يدمجون الشكل الجديد لكي يتواصل مع المضمون الحديث. فبعد ما كان البلد يعرّف باسم: الجمهوريّة العراقيّة بمسحة من الغنج الأنثوي الزاخر بالتوريات السرّيّة. عدنا إلى جمهوريّة العراق ذات الطاقة الذكوريّة المكهربة بالعبوس والتزمّت والاكفهرار.

هنـاك وهنـا

لم تنته الحكاية. سمعت صوتًا من وراء الزجاج وأنا أهمّ بالتوديع والامتنان:

ـ أمر أخير مدام. البصمة الإلكترونيّة.

تعوّذت من الشيطان وقلت يا ربّ العالمين. حضّرت رحلتي إلى الولايات المتّحدة إلى رأسي وما حصل لي هناك. في سفارة بلدي كانت بصمتي أشدّ ميلاً للويل والثبور مع آلة صغيرة جدًّا ذات لون أزرق يميل إلى الرصاصي، وما إن أضع إبهامي حتى يضاء اللون الأحمر معلنًا انتهاء المهمّة. جرّبت أن تكون بصمتي كما لو كانت خفّة الكائن الذي لا يحتمل، ولكن عبثًا. حاولت أن تكون طبعتي بثقل فيل مولود حديثًا، فكبست بشدّة وأيضًا بلا نفع. جرّبنا وقلبنا الأصابع كلّها على سبيل المزاح والجميع يستغرب هذه القطيعة واللامبالاة من جانب رؤوس أصابعي داخل الآلة. كنت أتهكّم على نفسي مردّدة أمامهم: إنّ الأصابع تحمل أسرار النفس الحميمة كلّها وها هي ترفض البوح أمامكم. فظهر المؤشّر على الشاشة ثانيةً:

ـ صفر. الجودة واطئة ولا يجوز تسليم الوثيقة إلّا بكفاءة عالية.

بغضت اسمي واسم الذي خلّفني، أجدادي العراقيّين والسوريّين وجميع الكلمات التي تنتهي بالياء والنون. ساعة ونصف ونحن نحاول والمؤشّر صفر. يعقل أن أستقرّ في مرصد الصفر ما بين الولايات المتّحدة والعراق. الصفر حارس مرمى جيّد يصدّ الهجمات من هنا وهناك. سُئلت هل كنت مريضة بالسكّري فقلت:

ـ مؤشّر سكّر الدم في صعود وهبوط وعليّ ضبطه بالغذاء إلخ لكنّي لا أتناول أيّ نوع من الدواء له.

سألت السيّد الذي أُرهق بسببي وهو يخاطب بغداد لمرّات عدّة من أجل بعض الاستثناءات، فقلت له:

ـ إنّني أمامك بوجودي الفيزيائي التامّ وأنتم جميعًا شهود على ذلك. لست في حاجة لتحدّي هذه الآلة القادمة من وراء الأطلسي. تسليمي الجواز مهمّ وهو أمر يؤخذ على جانب من أحدكم وبكامل من المسؤوليّة.

كنت أنظر في وجوههم حين وصل القنصل شخصيًّا فقلت بمرح:

ـ سنكتب عن هذا المخلوق الأسطوري فما إن يحضر لا أستطيع تسلّمه وما إن أمدّ يدي للبصمة فلا تشير على وجودي، ما هذا الحظّ العاثر. تذكّرت مقولة لريجيس دوبريه يلخّص ما نحن فيه: «الاعتراف بأنّ هناك سلطة الأسطورة أو على الأصحّ، إذا كان

ثمّة أسطورة، الولايات المتّحدة، حيث ثمّة أب مع عدم منح لقب الأبوّة».

أجاب المهندس وصوته قادم من بغداد بعدما فتح من أجلي الخطّ أمامي لفترة طويلة، وكان هذا الأمر غاية في الأريحيّة العراقيّة وهو يجيب:

ـ حسنًا، فليكن هناك بعض الاستثناءات وعلى مسؤوليّتكم.

وهذا ما حدث فعلاً.

أمسكت الوثيقة أخيرًا ونظرت إليها نظرة واحدة كمن انتهى من المسّ والهستيريا فشفيت حالاً وللتوّ من تلك المباراة ما بين شهود الإثبات وشهود النفي. وأنا أطلع من باب القنصليّة صرخت وحدي وأنا على وشك أن أرزم عظامي وعظام بلدي وأحوّلها إلى مدّخرات لكي أقوى على احتمال حكم وصولجان تلك البلاد.

كلّفني هذا الجواز الميمون أربعة آلاف دولار أميركي. هذا الرقم لم تأخذه القنصليّة العراقيّة؛ فتكلفة الجديد لا تتجاوز ربّما، المائة يورو، والتجديد، أربعين يورو. دفعت المبلغ لإعادة تأهيلي كعراقيّة لا تعلم أين ومع من تدثّرت أوراقها الثبوتيّة ومن يقف وراء ذلك كنوع من الأذيّة أو ربّما من الحماقة.. هذا المبلغ دفع في عاصمة الفساد العالمي بغداد. فقد جاء ترتيبها بعد أدنى وأصغر دولة في أفريقيا، هو مبلغ دفع للمرتشين والفاسدين من أبناء آوى ومن ضلّوا السبيل. قطعتها من اللحم الحيّ لكي أعود عراقيّة في فتحتي عيني المغوليّتين ووجنتي الشاهقتين وقلبي العاصي. ياه، يا للرخص؛ بأربعة آلاف دولار أميركي فقط عدت عراقيّة من الرأس

إلى أخمص القدمين. وضعته في حرز أمين. هو ليس أمّي ولا والدي ولا أخي ولا أهلي. هو ليس الأغنية ولا المغنّي، وفي الغالب هو الذي سيضاعف من وحدتي وانفصالي وانشطاري وما عليّ إلّا تحمّل ذلك التمادي والتحدّي فيما بيننا: هو وأنا. حالما وصلت البيت وضعته جانبًا لكي أعود لعزلتي ووحدتي من جديد.

دلتا الخوف

إنّني من جيل عراقي لم يغادرنا الخوف ولم نغادره. اشتغلت في كثير من شؤونه ومن أيّة جهة حضر. لم يتسنَّ لي الخدمة العسكريّة بغصصها لكنّني شاهدت إخوتي وأبناء صديقاتي، وفي المراحل اللاحقة قرأت تجارب الروائيّين العراقيّين الذين روّعوا وهلكوا فكانت أعمال بعضهم آسرة. وعلى نحو ما وفي ذات التيّار يتعاظم منذ عامين الخوف العربي مهما اختلفت وتنوّعت وتناقضت النعوت لتلك البلدان والمرجعيّات فهي ذاتها عصور الانحطاط والاستبداد. حشود الطغاة الصغار العاديّين البهلوانيّين لا يتّسمون بخصوصيّات وخصال وقامات الطغاة الحقيقيّين. لا يتمتّعون بقوّة السحر اللغوي أو النطق الفصيح أو الكاريزما الماكرة ولا الجنون الحقيقي. طغاتنا أقلّ من الخزي وأدنى من العار ولا يجوز لنا أن نفقد أعصابنا ونحن ننوي التخلّص منهم.

سعيت أن يكون خوفي لي وحدي. لا يزور من أحبّهم ولا أراه على أساريرهم، وعلى الخصوص البنات اليافعات. اقتربت منه كثيرًا وعقدت معه صفقات كاسدة أو رابحة لا علم لي بذلك

تمامًا وتصوّرت أنّه مادّة قد تُدرس في المراحل الابتدائيّة وتتناقص في الثانويّة وتختفي في الجامعة، وبين هذا وذاك، كنت أكتب وأنشر هنا وهناك وأظنّ أنّ بعضًا من سيول الخوف ساحت على ذقني وثيابي ونصوصي. كنت أتمرّن مع العائلة الأدبيّة الأكبر، جمع من الكاتبات والكتّاب على نوع من الجَلد ونحن نحفر في لحمنا الحيّ فنرى العظام إلتوت من الخوف، ونحن نرتدي التنانير القصيرة على سبيل المثال أيّام الدراسة الجامعيّة في السبعينيّات حين دفع أحد الوزراء بموظّفيه بطلاء سيقاننا بالقار ما إن نصير في الشارع العامّ. كانوا يراقبون الزغب الناعم واللطيف الذي ينمو في منابت لحومنا حتى. ودائمًا كانت الرقابة منظورة علانيّة وشرسة. أظنّ أنّهم كانوا منهمكين بنا، لا ينفكّون عنّا وعن التسلية معنا. نحن حياتهم. غريب، كيف يكون بمقدورك أن تصير حياة الآخرين فتفقد حياتك أنت، تفقد عيشها والتلاطم والانغمار بها. دائمًا كنت ألاحظ أنّ هناك في مكان ما داخل الرأس والقلب ذعرًا سرِّيًا فادحًا لا ينفد. يسير معك وأنت تضعه تحت المخدّة، وأنت تقود العربة. دائمًا نكون في حالة انتظار لأمر ما، لوح يقع ويكسر لك الرقبة قبل زجاج الغرفة، أو حجر ثقيل يفجّ الرأس ويهرس الضلوع. كلّا، شخصيًّا لم أفكّر بالموت، كان الموت هيّنًا، فنحن كنّا نرى أمرًا آخر لا يُسمّى ولا يُرى في العين المجرّدة يجفّف اللعاب في الفم ويدع الريق يابسًا ونحن في المطارات على سبيل المثال نريد السفر، فتنتظم الكلمات في جوفنا وما إن تظهر حتى تنكسر ولا تعود هي التي كنّا نروم قولها. فهناك وهنا اليوم توجد لغة من الخشب اليابس لا تسمح لنا بالنوم لا على الجهة اليمنى ولا

اليسرى. آه، هي لغة، لغات طيّبة، ابنة ناس، لكنّها تقوم باحتقار عقلنا وذكائنا وهي تحرص على التدخّل فيما بيننا وبين ربّنا، تنازعنا على الإيمان وتودّ ردّنا إلى صوابنا بالكراهية التامّة. هنا لا يستمرّ البغض فترة أيّام أو أسابيع، إنّه موجود وينعم علينا بالكرم ويوميًّا يعملون علينا حملة تأديبيّة لكي يتمّ تنظيفنا من الشوائب. أمر مخيف أن نقول كلامًا واحدًا ونرتدي زيًّا واحدًا ونخلص إلى موديل واحد. هنا ينشأ ويتبرعم الاعتراض على الغير، فتبدأ عزلة ما ندخل في شراكتها وشرْكها. أظنّ هنا، وفي هذه الدقيقة بالذات والتي تليها وإلى ما لا نعرف إلى متى... وكيف انبثقت في قلبك، تصير أجنبيًّا وبصورة ناجزة تمامًا ولا شيء ينقذك إلّا أن تشبك ذراعيك حول اللقب وتتعلّق به وتعرف تمامًا ما تفعله بنفسك. وقتذاك كما في هذه الأيّام، ألاحظ أنّنا فقدنا ملكة الضحك، ليس الخفيض الصوت ولا العالي، الضحك العادي اليسير البسيط، فليكن بلا سبب أيضًا، ولمَ لا؟ أمّا القهقهة والفكاهة التي أحبّها، حتى لو أدّت إلى انفجار أحد شرايين قلبي، فقد علاها الصدأ وصارت خردة.

من هناك كنّا نرى ونراقب؛ أنّ الموظّفين الحزبيّين في البعث والحزب الشيوعي في حالة عبوس مستديم. أساريرهم مكفهرّة وملامحهم جلفة ولا ندري هل كانت أسنانهم صفراء جدًّا من تدخين السيجار، أو هي بين بين، أم لديهم أسنان اصطناعيّة. العبوس القاسي ظاهرة حزبيّة تطال جميع الأحزاب والتيّارات والجماعات وبكافّة مرجعيّاتها، والجميع يجتهد بها وحولها لكي يزداد بريقًا ولمعانًا، فهو يريد منّا جميعًا السير خلف عربة الموتى،

نزور المقابر ونتمنّى التخلّص من أنفسنا. إنّهم يحبّون تحويل أشعّة الشمس إلى جنازة. ذاك هوس الحاكم بذاته الشاهقة وباستطاعته أن يرانا نفيض عن حاجته، وموتنا هو الاحتمال الوحيد أمامه. كانت صور الحكّام هي التي تبصرنا من فوق أعمدة الكهرباء وحيطان المؤسّسات وواجهات العمارات، فهل كان الحاكم يرانا بالفعل كأجانب في بلداننا؟ ويعطينا دور المحتضر أو الميت. هنا تنتهي فصول الهزل ونحاول البدء من جديد وأنا أعني، أنّني أراهم أجانب هم في بلداننا أيضًا، وما إن أطفئت أنوار الصالة كما لو كنّا في مسرح تجريبي فنسمع الضربات الثلاث إيذانًا بفتح الستارة حتى نراه أمامنا. واقفًا أو جالسًا، في العربة وأمام الشاشة، في صالون القصر الجديد أو سرادق مفتوح على الجهات الأربع. أمامنا يتهيّأ الموديل الجديد للانطلاق كفوهات البنادق في وجوهنا فيقوم بتمريننا الإرغام على الخوف كما كانت الفاشيّة تقوم بالإرغام على الكلام وليس الامتناع عنه.

جدّة وأحفاد

أظنّ كنّا في العموم شخصيّات أعمالنا الروائيّة والقصصيّة بمعنى من المعاني، أصحاب القصائد المتحدّرة من عوائل وسلالات ما زالت تعاني أنواعًا من أمراض مزمنة، فنبدو على حوافّ الصمود ونحن في ذروة الترويع. لكنّنا نكتب ونعشق، نشتغل وننتج... إلخ.

اليوم أتذكّر أنّ إحدى شخصيّات قصّة قصيرة من قصصي قالت في حوار ما:

ـ لا تنفقي جميع المخاوف في هذه القصّة. دعي بعضها للأبناء والأحفاد.

حسنًا، خوفي القديم تورَّم كبدي، ومن جانب آخر وفّر لي تجميع قواي لكي يضلّ طريقه إليّ. ترى ماذا سنفعل بكلّ هذا الخوف الطازج الذي يلفّ الأرض والسماوات العربيّة؟ خوف جدّة على أحفاد أنا تابعة لهم، وأنتسب لهذه الحشود وعلينا القيام بواجب واحد: العصيان. هذا ليس خروجًا عن النصّ ثانية وثالثة فإنّ ما يطبقْ على الفمْ، في الليل والظهيرة، في النوع والنسب،

للأنثى والذكر، في لغة العائلة الواحدة أو العائلة الأكبر، هو صحيح مائة بالمائة وما علينا إلّا أن نكتبه. ما يحصل ويجري لا نقدر أن نحوّل أبصارنا عنه، فلنقل إنّه سيرة الخوف الجماعي، أعيشه في اليومي، منذ الصباح إلى اليوم التالي عن قرب وعن بعد وإلى...

كلّ واحد منّا وعلى نحو ما ولد لكي يخاف. لا يرفض منصب الخائف. أن تزدهر موهبته حين يفي بوعود الخوف. القوي الذي يدوم خوفه بالقتل، والضعيف الذي يفرَخ في اليأس ويجهر بالخوف. صحيح قمت بواجبات الخائف وعلى الوجه الأكمل، فالأمر كان يتعلّق بي أنا الفرد الهشّ المنخطف والمريض، لكنّني واصلت من أجلي وبالدرجة الأولى، من أجل ذاك الجمال الذي لم يلازمني، من أجل أن أعرف لكي أنتصر قليلاً وأشفى من الخسائر المتوالية. كنت أدري أنّني خائفة ولم أصعّب الأمر على نفسي، فأتحدّث عنه بصوت عال، أستدعيه في هذا الكتاب أو ذاك. صحيح هو أمر قاسٍ لكنّه لم يعقني عن العيش والشغف والكتابة. خوف تفرقع وأنا أصيح به: هيّا أغرب عن وجهي، لن تقدر على جرفي كالسابق... هه، لكنّني ها أنا أحمل سلطان خوف مزلزل يتحدّث بلغة لها تبعات مهولة. يدوّي كما دوّت صفعة بوعزيزي في أركان العالم ولم يشفَ منها أيّ واحد منّا.

بيت بوعزيزي

كلّ شيء موجود في ميتة بوعزيزي. غضب مكتوم فاق الحدّ ويجهل كيف يتمّ الاعتراض عليه. عند الإشارة، بعد بضع لحظات توقّفت الحركة. ورث الكبريت. لم يتصنّع اللهاث، وكان ثابت الجنان. لم يتظاهر أنّه مختلف. كانت رائحة البنزين وصلت قطن الفانيلة السوداء. انحنى على صدره ولم يعد جسمه مستقيمًا. ترى هل كان له شارب؟ هل لمسه؟ هل مسح خدّه؟

كيف اعترض على تلك القبضة التي انهالت عليه؟ أزعم أنّه لم يتدرّب عليها من قبل. يحكى أنّ كفّ الأنثى البوليسيّة كانت محلّاة بخاتم على شكل مخالب. جاهدت بشتّى الطرق لكي أحظى بصورة لتلك السيّدة لكنّني فشلت. كان صدر بوعزيزي رطبًا من ندى جلود الخضار وأزهار الجمهوريّة القاسية، وكانت تونس كلّها تردّد: «يا كنزي». ذكرٌ يلبس حذاءً رياضيًّا ويجثو على ركبتيه وتسيل بعض الدموع بفعل الدخان وليس لسبب آخر. ترك نفسه على سجيّة الموت منذ بعض الوقت. لم يخرج من ميدان المعركة ولا انتهت الحرب، حربه عندما التقط المصوّر

الفوتوغرافي ومن أقرب مسافة، وقد انفطر قلبه فأوقف تلك الصورة في جبهة واحدة ما بين الأطفال والنساء والشيوخ. وكان الهتاف يصل الأحياء والموتى، يصل المدافن ويتتابع من شارع عربي إلى شارع، ومن قبر إلى شاهدة.

البطل المتأخّر

ميتة علانيّة لا لبسْ فيها: انتحار بائع متجوّل ريفي وأعزل احتجاجًا وبلا كلمات مؤثّرة على الفقر والبطالة على طعم الموت في فمه قبل الموت. لم يندمج طويلاً في التمثيليّة أمام صفعة أنثى شابّة أعجبت بنفسها جدًّا. يحدث أن تكون الحركة الأنثويّة أشدّ عنفًا من أيّ أذى اقتصادي أو حبس انفرادي. مشهد مسرحي دُبّر بلا أثاث أو ديكور إلّا سبت الخضار ومولّد جديد ينبثق من أقصى زقاق في أيّ حيّ عربي.

بوعزيزي أظهر رؤيا. وضع النيران، شعلة فوق شعلة ولم يطلع صوته، لكن عدد الذين يتألّمون من نقص في الرجولة قد ازداد. في الغالب كان هذا هو التعريف: قهر سياسي، فساد أمني، انحطاط اجتماعي. لكنّ المكان، الساحة، الحيّز العمومي، المقهى، الشارع العائلة، ثم سرير الزوجيّة،... بصم تعريفًا آخر لبوعزيزي الشابّ الفحل الرجل أقلّ مرتبة، غير المعرّف بذكورته ولا هو يرى نفسه في موضع الرضا عن النفس، أو يرى رضا الآخرين في وقت واحد.

لم تبد تلك البوليسيّة أيّ نوع من الرضا أو القبول بمنتجاته الطبيعيّة والذكوريّة. رمت الخضار على الأرض وداست عليها وعليه، وبقيت تتابع عملها البالغ الأهمّيّة بدون ضجيج. هي ذات هويّة أنثويّة تامّة ومضاعفة وذات ابتسامة خبيثة وقبضة وحشيّة. هو الالتحام في المؤسّسة الأمنيّة التي أنارت مصابيح جديدة على لغة ستحضر فتأخذنا على نقّالات إلى حيث لا نعلم. كانت ثروة المرأة وعلى ذلك النحو قد تضاعفت في الأرض التي وقفت فوقها منذ عقود، فانكمشت الأشبار أمام بوعزيزي ولم يُترك له إلّا حيّز واحد أن يكون محترقًا. كان الاثنان قد تشبّعا بثقافة الإقصاء. بوعزيزي يشاهد يوميًّا وفاته بعدما بتر وتهشّم مولده وصيرورته كذكر. الرجل لا يقدر على اجتياز خطوتين دون أن تنشقّ الأرض وتُمنح الأنثى من دون تردّد: الحجرة والمكتب، المسرح وأرفف المكتبات وقاعات الاجتماعات وصفحات الفكر وصالات السينما وديكورات المسارح.

عدّة حبكات ظهرت وقامت بتأليف ميتة بوعزيزي ولا ندري أيّهما نختار: حكواتي شابّ خجول جريح في فحولته، فكان محظورًا عليه إلّا الحكي عن طريق البنزين والنار فتمّ له ما أراد. مؤلّف قصص أثار انتحاره بهذه الطريقة التراجيديّة تعدّد الأصوات وشناعة الختام وترك لنا بعض الكلمات للنطق بها.

رجل يعيش تهديدًا يطالعه صباح مساء بكلّ ما يخصّه؛ بالقامة والصوت، بالمشية وبسوء الفهم، وبالطرد وفي لحظة واحدة إلى الجريمة: الصفعة التي نزَعت ملابسه كلّها أمام العالم فلم يتحمّل الفضيحة. ميتة اختارت أن تكتبنا بهذه الفظاعة والارتجاج،

وتقصدنا وتتوجّه إلينا جميعًا لكي يتمّ ترتيب وظهور وتحريك الموديل حتى يصير في الواجهة تمامًا، نموذج وكأنّه خُصّص لنا، نحن النساء أكثر، ليس لهم إلّا نحن، ليس سوانا من يوقظ الموديل ويقذف به إلينا فيستردّنا لحسابه وغطرسته. نموذج لم يحضر من الخيال أو العدم، فالأرض كانت مهيّأة لظهوره، فنحن جميعًا بكلّ أطيافنا المختلفة نشمّ هواء هذه اللقطة المقرّبة من وجوهنا وبشراتنا. بالتأكيد نحن لسنا جماعات متخيّلة ولا هم حضروا من كتاب روائي أو رأس مخرج الخيال العلمي. لا أحد اشتغل علينا ثم استدار ومضى بعيدًا. في الغالب وجوهنا الصبوحة تغري المنظّرين وأصحاب الشأن العالي للتمرّغ فينا؛ فأصبح لنا الحقّ باستخدام تلك الجمل ولا نبنيها للمجهول:

الما بعد الكولونياليّة، الما بعد الحياة والموت، الما بعد العراق وليبيا، تونس وسوريا، الما بعد مصر واليمن، الما بعد الخرائط والحدود والدول. الما بعد العمر الذي اكتوى وخسر بجميع ما مرّ من الحقب الدمويّة فلا يصلح عمل دوبلاج لعمرنا الحالي عندما نردّد، ما بعد انحناء الظهر وارتخاء العضلات وتأتأة اللسان.

الطرد من الجنّة

هو موديل غير سعيد. مقسّم قسمين: الذي سيغمى عليه من الخوف من الله، والموهوب بشطب الآخرين وبسبب الله. النفور، الكاره، الغاضب المكفهر الشتّام المرتاب الذي قرّر التخلّص منّا لكي يخلص لله. المتطيّر من صيرورته وحركيّة أرجله، فلغة جسمه تتلعثم هي أيضًا. بدنه مقذوف للخارج. ويحيا هوسًا بين الاستيهامات السرّيّة والقرف الذي ينتشر في ملامحه وهو يحاول إفناء جسمه وقتله. أبدان جافلة تنبعث منها سيول المخاوف وكأنّ كلّ عضو يناصب العداء للعضو الذي يجاوره، على الخصوص عندما يتخاطبون معنا، أو يتردّدون في المصافحة، وأستطيع تمييز آليّات خطواتهم المعروضة أمامنا في الوجه والقفا ودون الإصغاء لمن حولهم، فهم لا يشاهدون الآخر. هو موديل غير حرّ. الحرّيّة ليست الصوت العالي الفاقع الطنّان المتظاهر بالعظمة والغرور، المريض بالنساء بالإناث، بالقاصرات اليافعات، الآنسات الضعيفات الهشّات، البتولات المستحمّات بماء العذاب. إنّهم أجانب وأجنبيّتهم غير خدّاعة. ترى كيف يدعونا هذا الموديل إلى

الجنان والنعيم؟ وكيف سنهتدي إليها وهو يتعقّبنا بالويل والثبور؟ ترى بماذا كان سيخاطبنا وهو ينهانا عن الفواحش والجحيم؟ كلّما رأيته تعثّرتُ بخوفي العتيق وأضيف إليه الحديث الطالع من الكاغد للتوّ، وأتسمّر بين خطرين: جحيمهم وجنّاتنا. هو اليوم يدير جميع مدّخراتنا من الخوف المسموم المتطوّر والمبرمج وبضمير مرتاح. يؤدّي الدور على أتمّ ما يرام. ثروته خليط من الماركتنيغ المتوحّش في رأسماليّته، وأبجديّة عجيبة من: التأثيم، الوعيد، التخوين التكفير، العصابيّة، والهستيريا الناهضة من أجساد خرّبها شقاء الطهريّة الزائفة أو الحقيقيّة، فحان الوقت لاستردادها وبأيّة طريقة حضرت.

افرح فإنّ الله يحبّ الفرحان

جدّتي كانت شغوفة بستّنا مريم. هكذا تسمّيها. تصفها بصفات لا أقدر على استعادتها اليوم من شحنتها وتلقائيّتها الراقية:

ـ إنّها تزورها في الحلم ويتخاطبان طويلاً.

ثم تضيف هذا الوصف الذي لن أنساه:

ـ أي ستّنا مريم لا تعرف النوم. عبالك، لم تنعس ولم يغمض لها جفن وهي تحرس ابنها النبيّ.

جدّتي لا تقطع الحديث عنهما وعن سِيَر الأنبياء. تنشغل بيوسف النبي ظالم الحسنْ. ثم تتوقّف أمام يونس الذي ابتلعه الحوت:

ـ أي هو نبيّ لم يعرف قلبه الخوف.

كانت تعرف عنهم، الأنبياء أكثر ممّا تعرف عنّا جميعًا، الأبناء والأحفاد. موجودة في الدنيا ولا تصعب علينا الطريق إلى الآخرة، هذه السيّدة كانت تكافح الخوف، خوفنا كصغار حيارى بصوت يحضر من الفردوس وبنكهة الرحمٰن الآتي من هناك. تأخذنا معها

إلى ما تقوله من قصص، وتضعنا أمام التلسكوب فتعرض علينا ما تعرض لكي يتسنّى لنا العيش في الرحابة والاتّساع والتسامح. لم تقل ذلك علانيّة، لا تعرف قوله لأنّه نوع من البديهيّة لها، فكان إيمانها يهزم بأقصى سرعة التزمّت والتأثيم. صوتها عذب وسحنتها رضيّة وجميلة، ورائحتها نظيفة، فتركت لنا ما نهجس ونحلم به؛ الحرّيّة والعدل، الحرير والعسل الذي سنحصل عليه في أحد الأيّام، فيما إذا شاء الله وسرنا في الطريق إلى هناك. فكنّا نشاهد الستارة ترفع والباب يفتح. فلا شيء يشبه الهناء الذي يصيح علينا وهي تتلمّظه أمامنا. فلا شيء له طعم العذاب الذي سيكون بانتظارنا فيما إذا وإذا. . . النعيم والجحيم لديها شديدا الواقعيّة والموضوعيّة وتروي عنهما ما تشاء وبدون أيّ نوع من أنواع الرقابة، أو الوعيد والتهديد، صحيح، لديها أبطال وأشرار ونحن ننتظر بفارغ الصبر الوصول إلى تلك النقطة التي لا نعرف ما هي، وهل هي موجودة أصلاً لكي نصل إليها. فكنّا أنا وأخي علي نتّخذ الهيئات اللطيفة والعاقلة ونريد أن لا نخشى شيئًا ما دمنا كيت، ولا نمتنع عن شيء ما دام كذا وكذا. . . إلخ هي لا تفضّل العتمة ففي الليالي كانت تمسّد رؤوسنا وتعدنا بالذهاب إلى الحكاية، ومن هناك كنّا نصغي، أو هكذا شبّه لنا؛ إن هناك من يقول لنا:

ـ على الرحب والسعة. ادخلوها آمنين.

بيت الثمالة

هو هو الذي أريد أن تكون له الثمالة فلا مجال للشكّ في ذلك. هو أصل العراق ولا نائب ينوب عنه. يصعب اقتياده خارج عدّته وعتاده؛ الطاولة، الأقداح، العرك، سأقولها هكذا وبالعراقي فهي أوقع، ليس المستكي. لا، هو عرقْ عراقي يتدفّق من عذوق النخل، من جلود وحلاوة التمور العراقيّة التي لا نظير لها، والتي كانت تجد دائمًا الكلمة المضبوطة المتألّفة معها: هو الاختلاء بالكأس والخمرة. هو الأمل بالسكرْ. هو بلوغ تلك البلبلة التي تتجاوز لون السنجاب أو موضوعة الخلود. ما شأن العراقي بجميع الطوائف والمذاهب؟ تلك أبديّة لا علاقة له بها. تلك تنقش الموت وهو لا يريد إلّا هذه الدنيا. خطوة واحدة جميلة عارمة طبيعيّة تصدق القول يقولها العراقي ولا يكذب عليها: الخمرة. هي نشيد الأناشيد وأصل الملاحم والسير وهي مرارة تعاقب الحضارات يقيس بها العراقي المثل الأعلى وتعدّد السلالات بعدد الأقداح. هي معجزة العراقي الذي لو هشّم هيكله العظمي لسال منه شراب الجنّة. لم يقهر العراقي اليأس، الفظاعات والمظالم إلّا لأنّه لا

يفضّل الصحو. لا يقترب من تلك المسافة ولا يريد إضاعتها. هو الوثني الأبدي، الطيّع، المؤمن، الجنرال وضابط الصفّ. هو أبي معاون الشرطة وهو هوبي قصّاب حيّ السفينة في الأعظميّة، هو زوجي ومحبوبي، هو صديقيَ الكاتب والشاعر فلان ابن علّان وارث القدح والخمرة. هو دومًا صيحة الأرض للسماء التي ما إن يبدأ بالكأس الأولى حتى لا يغادر إلى... ولا يخلفْ إلّا ماء الشجن المقيم. هو الذي يكذب رغم أنفه ويصدّق في رسم السكرْ ولا يريد أن يموت إلّا ثملاً. وإذا ما صدق القول فهو الذي يحبّ العرقْ كما لو كان هو بيان رقم واحد ومكرّر وعلى الأغلب يحبّ أن يكون سكران أمام الملأ، وليس بصورة سرّيّة. لا يقلقه إلّا هذا الخفاء في إعلان سكره، فهذا هو مقدار ثروته أو جفاف حياته. يستطيع العراقي الثمل أن يعطي دروسًا في الحنان الآسر والتوادّ الشفيف، في الغرام الفريد والشهوة التي لا تعرف الحشمة. ليس ثمّة من حقيقة في نبض هذا العراقي، فهو فريد في هذا الإيمان. يستطيع العيش بدون ما يسمّى الأمل ولا يتقبّل العزاء بالقنّينة الفارغة، والطاولة الخالية، والقدح اللامبالي. في منتهى التجرّد أموت على العراقي الثمل، أتابع مسيرته في أثناء الفاقة والحرب، في أوقات السبي والسفاهة، في أثناء اليوم والبارحة والغد. هو هو الطافح بالشمس العراقيّة وبالبرحي المستوي الولهان الذي يذوب تحت اللسان قبل أن تبلعه فيعطي عطره للمركب الذي يحمل الكائنات الغرقى من العراقيّين إلى أرض الشمس.

كيف يسكر هذا العراقي لبعض الوقت وفي جميع الأوقات بعيدًا عن البلد وفي داخل كلّ بيت. تحت الظلّ والحرارة خمسين

درجة أو أمام الشاطئ يكشّ الذباب ويكرع الجرعة الأولى فيغمسها بدمع أسود نيلي ينتزعه من الدم، دمه، ومن الصمت والنداءات التي لا تُسمع ولا يقوى على ترديدها وإطلاقها إلّا وهو ينتحب بصوت جنوني: «حسافة سكيتك بروحي، وحسافة العمر ما ورد». . ينود برأسه ويكفر. لا أحد يكفر قدر العراقي، ولا أحد يفهم الكفر على أصوله مثل العراقي، ولا أحد يتداخل لديه الكفر بالورع كالعراقي، وقتها تنقشع سماواته وغيومه، يومها يتفنّن بقاموس لا أحد يعرفه ويرتّبه ويتلاعب به مثله. الكفر حسب ما أظنّ هو سرّ بقائه الفريد. يضحك ويرقص، ينوح ويخطف وينخطف فيرمي برأسه إلى الوراء أو يرمي رأس غيره إلى المزبلة لكنّه يسكر ويغنّي. هذا المزيج من الدم والخمرة، من الفلّ والخلّ، من الرقص والقتل، من الهجع والوجع، من العنف والشهوة. أميل بإسراف إلى هذا النوع العراقي الذي لا أدري هل جاء قبل الأوان أم غادر بعد الأوان.

الخمرة تمهّد للسعادات الضروريّة، وتجيب عن الأسئلة التي لا يجوز تجاهلها، فيصفو وجهه، يحنو، يتبدّد برمه وسأمه. ينهل من الأهواء ويعرف السخاء. هو يقول في كثير من الأحيان الإسراف في السكر والإسراف في البغض وفي قضايا المزاح. في أكداس الأعياد والكآبات، في النذور والقبور الروتينيّة وفي الموت. آهِ، موت بثمن بخس. هو أيضًا يمتّ بصلة إلى تلك الثمالة. موت لا يعيش إلّا وحيدًا وعلى شكل مدوخ، بلا شاهدة أو زهور، بلا وثائق ولا كلام، ولا فخامة ولا ملائكة، وبلا يأس. موت لا يخلو من سكر. لا يخلو من شعر. موت خلّاق صبياني أرعن حقيقي وبدون أساطير. دائمًا، في قلب هذا العراقي مكان لا

يردم، لا يكفي، لا يكفيه ذلك الموت، ولا ذلك السكر. أجل، لم يخرج من هاتين الحقيقتين. لا هو سهل ولا هو صعب. هو مستمرّ ممتدّ. . . هو، هو لا أحد يعادله ولا يتعادل مع أيّ أحد. أترنّح به ولا أعثر على ما يستر موته وسكره. قلت فليستر الله عليه وعليّ. تلك عبقريّة أن لا يكون لي أيّة خيارات قطّ ما بين السكر والموت. لا أنقذ نفسي ولا أحد ينقذه منّي، ودائمًا لديّ الدليل لكي أقول عليك اللعنة ولا أعتذر أيضًا. فأقسم اليمين تلو اليمين؛ إنّني صناعته المحلّيّة، أنا لم أُصنع في الخارج ولا أجنبيّتي عديمة الجدوى. فقال إلى هنا يكفي يا فلانة، إلى هنا وكفى. كان أحدهم يقول: «أنت لا تستطيع أن تختبئ خلف بلادك ثم تزدريها في الوقت نفسه كما لا تستطيع أن تتفادى التاريخ».

عال، صدّقي أنّك عراقيّة. انتظري أن تكوني عراقيّة. اضطري أن تكوني عراقيّة. تخوّفي من أن تكوني عراقيّة أصلاً. كالمنوّمة عراقيًّا، وليس بالإمكان الصحو من تلك الغيبوبة والوقوف على قدمين سليمتين إلّا بارتكاب المزيد من الأخطاء العراقيّة الفادحة. عليّ أن أقوم بتهجينه أكثر ممّا هو يحمل من هجنة في بذوره الوراثيّة والجيولوجيّة. عليّ أن أخونه قدر ما أقدر وأستطيع وأوقّع ذلك باسمي الصريح. أخون طهوه ومواعين طبخه باستمرار فأضرب بأطباقه عرض الحائط فأضيف إليها ما أشاء وأشطب منها ما أريد فتتّسع الطاولات وتتضاعف الكراسي. أخون لونه الواحد وزيّه الواحد ودينه الواحد وعمامته الواحدة وجبّته الواحدة ورئيسه القيصر وبزّته المكويّة. أخون قدحه الفارغ وقنّينته الخاوية من الخمرة بفعل أكثر من واحد وعشرة وأخون عرقه الأصلي وأغشّه

بشرابات يقال عنها ـ ستوك. ما بين السكوتش والكونياك. الجنّ والفودكا، النبيذ واليانسون. آه، العراقي زبون إيروسي لائحته لا تبدأ ولا تنتهي. يحبّ منذ البدء وفي العموم، وتقريبًا يشغف ويشرب وليس عند اللزوم أو المرض أو العزاء أو الحزن، هو يشرب في الفراغ والقوّة، في العبث والإغواء، ويفقد الوعي لشكّه باللاجدوى من اللاشربْ، فلا يتوقّف مهما حصل، ليتساءل متى يحالفني الحظّ فأصل إلى الثمالة.

بيت أبي

مسجّى على هيئة مخمور أبي. عاد إلى خفره الأوّل: الملامة. قسماته ساحرة، لون بشرته صافٍ ورجولته ما زالت تتخبّط. لكنّه كان يتألّم. مسجّى، جميل ويتألّم. ليس دميمًا ويتألّم. ليس وحيدًا جدًّا ويتألّم. المرض، مريضًا كان منذ الثامنة صباحًا حتى نهاية الدوام الرسمي. كنّا نزوره في البيت الثاني لكي نقوم بإدارة الألم. لم نقطع الأمل. وفيقة على الأرجح أكثرنا اضطرابًا حين تجلس بجواره وتبدأ بتلاوة آيات من القرآن الكريم بإيقاع يعصر القلب وبصوت خفيض وحركة رقيقة من الرأس. كانت آلامه صحيحة كنشاط الطبيعة وهو يؤدّيها كالواجب الوطني. يتألّم، هكذا دفاعًا عنَّا نحن الأبناء العشرة، عن الأصدقاء، عن المحافظات العراقيّة التي اشتغل فيها، ومراكز الشرطة التي خدم وانتحب فيها، عن خمار امرأة عابرة تمرّ من أوّل الزقاق فيلتهب، أو عباءة هفهافة مفتوحة عن جسد فوّار فيتعالى صوته من ألم الشهوة التي جعلته ينفق ثروته الجنسيّة على الأصل والخيال. جدّتي تقول، كلّا، بذّر ثروته وعلى مرأى منّا جميعًا ولم نقدر أن نفعل شيئًا.

الذواق

وحيدًا ومفلسًا ويتألّم. فيقترض بطريقة بعيدة عن الشبهات والاحتراف. يستدين من الجهات الأربع. يفعل ذلك ردًّا عن الظلم الواقع على الجميع؛ هو في المقدّمة، الزوجات الأمّهات الأبناء الدولة الحكومة والإنكليز الآلهة. فيعود ويدفع في أوّل رأس كلّ شهر وللجميع. دائمًا، ودائمًا لا يماطل. كان البعض ينسى الدَيْن لكنّهم يشاهدون ويسكتون حين يمرّ بالثياب المكويّة، القميص الناصع البياض والبسطال المصبوغ للتوّ، اللمّاع.

كانت الخمرة تجعله لطيفًا وحنونًا. فهو وفي للعرق العراقي وحده. تتوهّج قسمات وجهه فتغدو نضرة وإنسانيّة. لم أحبّه إلّا مخمورًا، وقتذاك كان يتندّر على الجميع، أوّلهم نفسه. وحدها أمّه تنجو من لسانه وهو يقهقه ساحبًا خيارة ريّانة إلى فمه. فالمائدة نُصبت وفوقها اصطفّت المواعين الأثيرة على قلبه: اللبلبي المسلوق الذي تتصاعد منه الأبخرة الحارّة ورائحة الكاري. «الجاجيك» المتكوّن من اللبن الرائب المخلوط بالخيار المقطّع ناعم جدًّا والمرشوش فوقه النعنع اليابس أو البطنج ذي الرائحة الحرّيفة. في

الأغلب يشرب وحيدًا ولكن في بعض الأوقات كان يقف بقامته الطويلة الرشيقة والمستقيمة وهو يتمايل رافعًا القدح إلى أعلى:

ـ يالله كعب أبيض.

يخاطب أحدًا ما لكي لا يبقى وحيدًا. يخرس الجميع، يعود للجلوس وبيده القدح فارغًا.

ماء عراقي

مسجّى والرجال العموميّون حوله. ممدّد ويدعك بالماء العراقي وصابون أبو الهيل، فتنفر الفقّاعات إلى أعلى نازلة بين الكتفين والبطن. يقلبون الجسم المخمور المشعّ الكسول وهو تحت أنظارنا. يرتخي ولا يجفل والماء يصل يديه وهو كفّ عن الشكوى. ماء، ماء المنازل الأولى والظهيرة الجنائزيّة والجمال المعذّب. ماء للخمرة التي كانت المراد وحدها.

أيادي أولئك الرجال تتجمّع وتخفي البدن عن عيني، عنّا كلّنا. تقلب الميت بلا كلفة وتشتغل بحماسة. لم يكن ذاك أبي تمامًا. يريد منّا أن نمدّ له أيادي الغوث. من يدي، أنا التي أقوم بتفكيكه كما يفكّ ديكور المسارح، فأعيده ثانية وثالثة. هكذا كنت أشتغل على إعادة تمديدات دمه ما بين الكتابة والخمرة فهما يقتربان ويلتقيان في قلب والد نادر، وأمّ ميتة، وعمّة ما إن تغيب حتى أدعها على وشك الظهور ثانية. تركني والدي لكي أعثر عليه ما بين القدح الأوّل والقدح الأخير فهو رجل عراقي حامٍ تدركه الشهوة وهو في بطن أمّه.

جفّفي الدمع كي تبصري جيّدًا. فليس كلّ يوم يموت لك مثل هذا الرجل المستوحش، ولن يكون كافيًا أن يكون والدك حتى. حلّ التراضي بينكما والرجال يجفّفون الجسد النظيف. هيّا اسكرْ وناصبني العداء. خذني بين ذراعيك واعتنِ بتلك الصبيّة وهي تلملم القطرات الأخيرة من ماء الميت، والموتى جميعًا. هذا المسعى هو الذي دام معي طوال الأعوام بتأثير ممّا بقي من ذلك البيت وعناوينه: ماء أبي وجماله الطويل الأمد. ماء جدّتي وفيقة بلونه الذهبي، وماء عمّتي الذي لم يجفّف بعد.

اليوم وأنا أقلّب الوالد بين الكلمات والجمل أعرف أنّه لم يكن عراقيًّا مستعارًا. كان ثملاً ويصعب اقتياده بدون الخمرة التي جعلته ينحاز إلينا ويقف في صفّنا ولو بتكاليف مرتفعة، فيكون موجودًا من أجلنا. دائمًا تصوّرت أنّه خبير بأمر واحد لا غير: العرق العراقي وحسب الأصول مضافًا إليه ترف ثيابه. فيما بعد عرفت أنّ العراقيّين جميعًا خبراء في فضائل وفنون الخمرة عندما نادوا أن تكون صناعة محلِّيّة. أزور والدي في أيّام الأرق وأسمع حفيف خطواته على الورق، فجأة، أناديه ولا أخبّئ وجهي عنه. شعره كما كان دائمًا رصاصيًّا ومسوّى إلى الوراء. نعم، ليس ثمّة سوى أب واحد ما زلت أراه ثملاً ويتألّم. أبي لم يغش يومًا في حميته للخمرة والعراق.

بيت المرضى

الدكتور شاكر الخفاجي كان طبيب العائلة. مهيب أنيق فارع الطول. دائمًا يرتدي بذلة كاملة لونها أزرق غامق ورباطًا بلون سماوي فاتح. ياقة قميصه منشّاة وشاربه الأسود أيضًا. الصلع بدأ بالتدريج في منتصف رأسه، وكانت أسنانه بيضاء جدًّا عندما أدعه يبتسم لكي أراها. أميرة البيت وفيقة ممدّدة على سريرها الحديدي في الصالون. الناظر إليها كان يدرك أنّها ذات كبرياء تنتشر في جميع الجهات وعلى من حولها. لديها قدرة عجيبة على التحمّل ورفض أيّ نوع من أنواع الشكوى، حتى ونحن نراها تتجوّل ليلاً حين يجافيها النوم بسبب ضيق تنفّسها المزمن، فأمسكنا بنصيحة الدكتور بقضاء فصل الصيف في بلدة عاليه ذات الرطوبة العالية فنذهب بصحبتها إلى هناك ونحن ما زلنا يافعين أنا وأخي وعمّتي.

تقدّر وفيقة إدارة عدّة بيوتات، زوجات الوالد وبيتنا، وبالتالي عدم الفرار من وخز الألم الذي تتقبّله بدون تذمّر. تبقى العمّة بجوارها فقط. أخي يتقبّل هذا وأكثر بهدوء عجيب. أظنّ أنّ جدّتي كانت تستحي من المرض وترغب في البقاء وحدها، ولكن من

سيصغي لها؟ وبفعل الغموض الذي نحاط به كان الخطر يتضاعف علينا، نحن أصحاب البيت بالدرجة الأولى ثم الأقرباء. . .

تصوّرت جدّتي هي الألم ووحدها. هي الشخص الذي كان ينتصر بالألم وبالإخلاص له، وإذا ما سعينا لرواية ذلك للغير فكان يتملّكها الغضب من جرّاء ذلك. أدركنا ذلك بعد فوات الأوان ودون أن نتفوّه بكلمة، فهذه المرّة كان علينا أن نصدّق المرض ونحن نراه على شكل لون صعب تفاديه؛ كركم هندي أصلي ولا يصلح للطهو أيضًا. هو داء سيخبرنا عنه الدكتور الخفاجي حين يحضر بعد قليل. ولكن لماذا تأخّر هذا اليوم؟ أخي في الطارمة منكّس الرأس، أينما يوضع يبقى ثابتًا في مكانه. دموعه تتجمّع ولا تطلع. كان اسم المرض هو القراءة لكتاب لم أنته من قراءته لليوم، ولا يمكنني الوصول إلى صفحته الأخيرة وهو متّصل بوفيقة وبالألم وبالتالي بالكتابة.

لم يحدث أن تركتنا وفيقة، وهي عادة لم تفعل ذلك من قبل. وأنا ألوب ما بين الطارمة وباب البيت. صوت عمّتي المبحوح وهي تتلو آيات من القرآن الكريم. تأخذني القشعريرة فالصوت ليس على أتمّ ما يرام. أفتح الباب وأغلقه ولمرّات عدّة فأرى أمامي الدكتور شاكر وبيده الحقيبة الجلديّة. لم يقل أيّ شيء كأنّه حضر ليلقى القبض على واحد منّا. اليوم لم أحبّه كما في السابق. مشى بطريقة عسكريّة ورأسًا دخل وأغلق الباب وراءه. تحاشى النظر نهائيًّا وأنا أنظر إليه بكلّ فتحة عينيّ الصغيرتين ولكن بلا نفع. أخي علي أمامي لكنّه غير موجود. على هذه الوتيرة كان الخوف يشتغل معنا ونحن نتفاوض معه. نضعه أمامنا ونواصل حياتنا. المرض ينقح

الموت. هو متّصل بوحدة المصير، لكن وفيقة تغيّرت ألوان أعضائها كلّها حتى أهداب عينيها صارت صفراء. كلّما حضر الدكتور الخفاجي إلينا ازداد وحدة وعنفًا، وأخي ينظر في الفراغ ولا ينبس بكلمة. مطرودان ولا أحد يكذب علينا حتى. كنت أريد أن أرى شرَكَ المرض الصامت. أن أعرف اسمه وأسترجعه وأحفظه على الغائب كما القصيدة أريد أن أعرف أمرًا واحدًا لا غير: متى ستنهض وفيقة ثانية؟ فليبق لونها أصفر أو أسود... لا أهمِّيّة لأيّ لون... أو.

الأصفر الصافي

لم يبق في رأسي إلّا الأصفر. ظهور هذا اللون لا يكذب وهو قد مرّ على جميع الأجزاء من بدنها. الأصفر هو الحقيقة التي امتدّت إلى طلاء الجدران وستائر البيت، إلى ثياب عمّتي وصدريّة المدرسة، إلى سراويل أخي وقبّعات المارّة، إلى البيوت والجسور والرجال والنساء. صار الأصفر جميع الفصول والأصدقاء. لم أعد أرى إلّا لون بشرتها ولحمها. فالأصفر يمتدّ طويلاً حتى تصوّرته هو كتاب الطفولة وحده. وبالمعنى الأدقّ هو نوع من الكتابة الصفراء التالفة، بلد أصفر، وقلوب صفراء. صار اللون هذا هو اللون الطبيعي، والموت اليومي. الأصفر لا يتبدّد، يستقرّ هو فقط.

فليبق لونها ومنامتها المنزليّة، الشراشف القطنيّة التي كانت تفيض بالأصفر وتسيح إلى البلاط قطرة قطرة. الأصفر في خصلات شعرها وغطاء رأسها. ربّما هو لون لا يفضي إلى شيء يخَوّف ويرمز إلى الصبر وقد يختفي فيما لو أخذناها إلى حمّام السوق في حيّ السفينة فهو أوسع من حمّام البيت. هناك كلّ واحد من العائلة يبدأ من ذراع وكتف وساق. عمّتي تقول إنّها هزلت كثيرًا، نقصت.

طولها الفارغ صار أقلّ ونقدر أن نلمّها بين الأذرع كالعجينة ونحمّمها. أنا لا أثق بكلام عمّتي فهي تحبّ المبالغات. سنبدأ من الأظفار والأصابع ونفرك بالماء والصابون، ويبدأ الأصفر يسيل وهي مغمورة بالماء الوفير. ماء... ماء عائلي نقي ودافئ يجري منذ قرون ولا يتوقّف. ماء قديم لا يجفّ ولا يفسد. ونحن ندعكها ونجفّفها فتعود بيضاء كالحليب. كان المرض أمرًا عسيرًا على الفهم وهو يقع خارج البيوت لا نراه، وإذا اقتضى الحال كنّا لا نتفوّه بسيرته، ولا نعلن أيّ أثر له. تأخّر الدكتور شاكر في الداخل طويلاً.

يمه

تفتح الباب ويقبل علينا أنا وأخي ولا يتسنّى لنا الوقت لمحادثته فهو زائغ العينين، لا يرانا معًا. مشى ببطء إلى الباب وأنا وراءه. نزل الدكّات الحجريّة وأنا فعلت ذلك أيضًا. وقف أمام عربته الأميركيّة البيضاء وأنا وقفت وراءه. هو، هو الطبيب الذي يعرف القصّة كاملة، جميع القصص. هو المؤلّف الحقيقي الذي يحافظ على نوع الحكاية وقرار البدء من هنا أو التوقّف هناك. هو الباهر الذي يدوّن كلّ وصفة دواء كأنّها نوع جديد من السرد. لا يخاف من التدوين ومن المحو مثلي. فجميع وصفاته دقيقة لكنّها غالية جدًّا ويقدر أن يؤلّف منها نصوصًا ولا يصل إلى الجملة الأخيرة. كدت أمسكه من سرواله، من ذراعيه، هو طويل جدًّا، وحين لم أقدر حاولت ضرب زجاج نافذته وأنا ألحق به، وهو يحرّك العربة مسرعًا. أجري وراءه حافية بعدما خلعت صندلي. هذا الرجل تخلّى عن وفيقة وعنّي. أنا لم أسأله، خفت. وهو لم يقل شيئًا. أركض وأصيح يمه بالأصفر، باللون البنفسجي الذي كانت تفضّله. يمه من الرأس إلى أخمص القدمين...

لتلك السيّدة النائمة وداعًا

سألت أختي أزهار: كم كانت الساعة حين أسلمت الروح، تلك السيّدة، عمّتي؟ سألتُ أسئلة حرفيّة بحتة كأنّني محقّق جنائي يكتب تقريره الخاصّ لقسم البوليس المحلّي. سألت، ولم يردعني الموت وأنا أقصّ على نفسي كيف أنّني أنتمي للموتى أكثر من الأحياء، وكيف أنّ ديونهم ما زالت في الرقبة وأنا أتفاوض معهم على تسديدها في الكتابة، في أثناء الكتابة، فجميع الذين أحببتهم تركوني وغادروا! كنت أسأل كلّ من بقي بجوارها وكان يسقيها القطرات الأخيرة من ماء دجلة الملوّث. أسأل من أجلي أنا واسمها مستمرّ في حلقي أدوّن فيه تعدّديّة الأصوات والشخصيّات، كنت أسأل عن الزمن لكي أقيسه وأحسبه بالدقائق ونحن لم نعد نتلاقى وجهًا لوجه، ولا عينًا بعين، ونحن أمام ذاك الجدار: الموت. كم مضى علينا ونحن لم نتلاق؟ ثلاثون عامًا هي بالإجمال سنوات اللغو والتلعثم، الصياح والهلاك اليومي، وكنت أتوفّر على أفضلها وأقواها وأغزرها ونحن بعيدات بعضنا عن بعض بهذا المستوى من الحنق والعبوس والتشاؤم، فذاك وهذا الزمن هو

ذاته الذي نقوم نحن، أو غيرنا بدلاً عنّا، بتدجين الحبّ، فلا أستطيع أن أحمل معي وأنا أدور في الشقّة الكشتبان إلّا تكرار عزلتي وأنا رهينة لتلك البلاد، خاضعة لها، ولا أحصل إلّا على هذه الحميميّة القاتلة للموت، لمدارس الموت، العزلة هي التي تحيط بي في كلّ خطوة أخطوها بين الأشياء القليلة هنا، وخارج الشقّة حيث أتسوّل اتّساع المسافات فلا تتّسع. كان الصمت يحادثني ويسمح لي بالتحدّث معها وبصوت خفيض، إذًا، عليّ التحديق فيها من دون الخوض في المرارة والشجن، في اليأس والخواء، فرغت عيني نفسها من الدموع فقلت حسنًا، فلأدشّن عيونًا جديدة ما كانت لي ولا لعمّتي. أبدًا لن تزجرني وتنكّد عليّ، تمازحني وأخي، فالموت يشجّع أن تعطيه جميع الخطوات وحين تقرّر الوقوف فجأة لن تبقى بمفردك فهو بجوارك وبجنبك، يروح ويجيء، يغلّف ويؤلّف كتبي، هو في الغالب عموم مقوّمات حياتي.

عظام الرقبة

حاولت عشرات المرّات الكتابة عن هذا الموت بموضوعيّة باردة، أنزع عنه فجائعيّته ودراميّته، فبقدر ما هو مشكلة فلسفيّة ووجوديّة كبرى بقدر ما هو حلّ بذات الصفات نفسها، فضلاً عن أنّه حلّ إبداعي لا مثيل له. يحضر من دون وصفات تجريبيّة شريطة أن لا تعطي دروسًا أو تتشاوف. أدري أن لا جواب على سؤال الموت إلّا المراوحة في سؤال الوجود ذاته. فلا أحد يعرف تلك السيّدة النائمة عمّتي. كانت هي السيّدة فلانة بنت الفلاني، المولودة عام كذا والمتوفّاة عام كذا في. . . لكنّها، وأنا أدوّن عنها هذه السطور حضرت رواية أوسكار وايلد دوريان غراي الذي بقي فاتنًا في اللوحة الشهيرة والخالدة، وفي الدنيا كان التفسّخ والانحلال وبالتدريج يفتك بها. شخصيًّا أخذت هذه العمّة من بلاط ذلك الحوش العتيق الخرب اليوم الكائن في حيّ الأعظميّة، ووضعت لها اسمًا حركيًّا كما لو كانت ستدخل خليّة حزبيّة سرّيّة فكانت إحدى شخصيّات «النفتالين» الأثيرة على نفسي. كانت تتحرّك باسم فريدة النفورة المغويّة المتسلّطة ذات العنفوان والكبرياء

والحشمة، التي علينا البحث عنها ودائمًا، فريدة تلك، وباقي الشخصيّات كانوا من عظام الرقبة لكنّهم كانوا من لحم التخييل الذي لا يندرج في قواعد إلّا قاعدة الكتابة، وبعيدًا عمّا يسمّى: لا بالسيرة ولا بالتخييل الذاتي، وإنّما بين بين، دائمًا علينا ابتكار قواعد جديدة، ليس من الضروري أن تكون صائبة تمامًا أو خاطئة جدًّا، لكن، أن تكشف عمّا كان مجهولاً لنا فنمرّر عبره ما يمكن تمريره بما يتعلّق بالأفكار المضادّة ومن شتّى الجهات، بعض الشخصيّات لا تبرحنا قطّ، نحن الذين نتهافت عليها لكي توافق أن تأخذنا إلى صفّها في السلوك والقيم والأريحيّة، حتى مكرها يتبلور رقراقًا في أثناء الكتابة.

شخصيّة العمّة فريدة أثارت، حين تمّت ترجمة هذه الرواية إلى لغات أوروبيّة، الكثير من اللغط والاستجوابات، أنا التي كنت أرافقها فترقبني وأنا ألهث، أريد أن أضعها في إحدى الخانات حتى أستريح، وضمن السياق الروائي، لكي أعود على جناح السرعة إلى إغوائها، هي التي صنعت ما كان نوعًا من الإيمان بجميع ما فعلت، وكانت فاتنة في عينيّ وفي عيون الجميع. ربّما، اليوم أدرك أنّ تلك الفتنة كانت بمعنى من المعاني سلطة الشباب ذاته، أو سلطة الهجوم غير التقليدي من شابّة قالت لا لمن حولها، فتمدّد شبابها وسلطتها إليّ وعليّ، وأصابتني بالعدوى المبكرة ومن دون علمي، فالضدّ يعدي حتى لو كانت الحياة هشّة، مرتبكة، لكنّها كانت حافلة بالوعود التي تحقّقت بعد كذا من السنين.

ذاكرة الأبواب

في جميع ما كتب عن هذه الرواية وبلغات مختلفة، كان أحد الأسئلة المركزيّة التي تواجهني: هل هي موجودة حقًّا؟ هل وجدت في يوم من الأيّام؟ حتى اللحظة لا أستطيع الإجابة بنعم أو لا، هي الكتابة بالضبط هكذا، التأليف الذي في رأيي هو الفصل التامّ بين الشخصَ الذي نخترعه نحن، الذي وضعنا في عروقه الدم ودبغنا جلده بدمغتنا الخاصّة، وبين عزلة الكائن الحقيقي، الفعلي، الأصلي، الذي شخصيًّا وفي أثناء التأليف، لا يعنيني وجوده الفيزيائي قطّ، آه، معظم شخصيّات رواياتي كانوا ذخيرتي الوحيدة، هم لم يتركوني يومًا كغيرهم، آخذهم معي أينما أحلّ أو أرحل، ويحادثونني أكثر من صديقاتي وأصدقائي المنتشرين في أرجاء العالم، إنّهم عشّاق فصول الكتب وعناوينها، فيستغرب البعض وهو يشاهدني مسرورة بوحدتي وعزلتي فأنا في صحبة أولئك وهؤلاء.

ثمّة تجانس لا نظير له بين شكل البيت وساكنيه، هما يعودان ويلتحمان معًا في تناغم عجيب، تساقطت أوراق الأشجار في الحديقة الصغيرة كما تساقط شعر تلك السيّدة النائمة، أصباغ

الجدران تقشّرت فظهرت عروق وشرايين إسمنت شُيّد قبل ما يقارب الخمسين عامًا، زجاج الشبابيك مفطّر في أكثر من زاوية، والأقفال لا تغلق الدرفات بصورة محكمة، الأثاث عتيق يشي برائحة الدموع والطهو السخي، والأبخرة التي تتصاعد من حمّامات البيوت البغداديّة العريقة، الأبواب لا تغلق بصورة جيّدة فتطلق أصواتًا تشبه النحيب على من فرّ وهاجر، غادر وقضى. للأبواب ذاكرة لا تصدّق، مقابضها تلين بين كفّ وأصابع البعض، وتحرد لدى البعض الآخر فلا تفتح ولا تغلق، تبقى هكذا مثلنا بين بين. . . مثل التدوين والتأليف، مثل تلك السيّدة النائمة، أطلقت على بيتنا الخاوي اليوم منّا جميعًا والكائن في الأعظميّة اسم بيت النمل فبدأت بالتحضير للجزء الثاني من رواية «النفتالين» لكنّي ضجرت من العودة إلى هناك وحدي هكذا قلت لحالي ولمَ لا. فما زال بعض الأشخاص في حوزتي أنا وابني، فنحن كثرة وأنا أثق بهذا جدًّا. هو بيت يقضي نحبه احتضارًا وتفكيكًا وخرابًا ما بين فعل الزمن والبشر، ما بين الارتياب والأطماع، فالبيت هو عراقي الوحيد الذي دوّنت وشيّدت حجارته وطوابقه وأرضيّته وأصباغ حيطانه، والضنى الذي يتآكلني ثانية بعد ثانية وهو على بعد آلاف الأميال لكنّه أقرب إليّ من حبل الوريد.

بحبوحة الضنى

في الروايات لا أحد يشيخ أو نحن لن ندعهم يشيخون كثيرًا، ربّما من أجلنا نحن، وإذا ما ارتكبوا هذه المعصية فنأخذهم حالاً إلى خارج الأعمار، نفكّك الأعوام وندعهم في بحبوبة من عيش العمر الافتراضي، نخشى عليهم الخرف والوهم والأسى لأنّنا نخشى على معايير عمرنا نحن من بعدهم.

عمّتي الجميلة، السيّدة الفلانيّة، الفريدة، المنفردة لم تفقد الوعي ولا أصيبت بالخرف. كانت تتذكّر أبعد صورة من الطفولة والصبا، وأقرب ما كنت أبعث به لها من هدايا، تضحك وتراوغ وأشعر أنّ خدّيها يتورّدان وهي تستعيد رائحة العطور، حين تضع الشالات، ولا تنسى النقود والثياب التي كنت أرسلها أنا وأخي علي، فترفعها بيرقًا وتردّد بمرح:

ـ أيّ الملابس حلوة لكن لم تعد تدخل في جسمي بعد، لا، أنا ضعفت كثيرًا بس الثياب انكمشت.

لكن دائمًا العكس هو الصحيح. في العموم يكون العكس هو

الصواب، لكنّنا لا نلاحظ هذا إلّا حينماً نكون في الطرف الآخر من الخطأ والصواب ولا نعثر على أحد ينبّهنا على ما اقترفناه في حقّ أنفسنا وفي حقّ بعضنا إلّا الموت، سلامًا لتلك السيّدة التي ما زالت نائمة.

بيت النمل

لا أراه من الأعلى ولم أدركه من الأسفل. هو بيت يقع في موقع آخر. في فئة الطفولة التي لم تكن فائضة إلّا بالشجن، ولا كان الطريق إليها يسيرًا. بيتي لم يأمرني بعد بالكفّ عن اختراعه أو تصنيعه كما تصنع القنابل في المصانع الحربيّة. وكنت أتلقّف أيّة فرصة لإظهار خصوصيّته أو طلب الصفح منه. آه، اليوم أراه ليس أجمل بيت في العالم ولا كان من واجبي أن أحبّه كلّ هذا وذاك الحبّ. هو في الأصل لم يكن صالحًا للسكنى أو المبيت فيه لفترة أعوام طويلة أو الإطلالة عليه من حقبة لحقبة لكي نتحقّق من وجوده. لماذا كنت أكذب وألفّق بكلّ تلك الطرق المتاحة للكاتب والمخلوق البشري لكي أعلن أنّه بيت يخصّني قليلاً. لقد عرفته نوعًا ما، أنا من أسرته ومعاصريه. صحيح لم أخترعه لكن بمقدوري اختراع غيره، لمَ لا؟ بيت يحبّني حقًّا وليس بيتًا لا يحتملني، ضحك عليّ وعلى مولدي ولم يوافق على صحبتي. لم يحمني، ولم أطعه أنا أيضًا. تمامًا، هو ملكيّة مشاعة للآخرين الذين لا أعرفهم وشاركوا في صناعته، ربّما، تمّت ولادتي فيه

لكنّي أشكّ في هذا، في معاني طفوليّته وأهمِّيّتها وعفّتها. بيت لا أعرف حدوده لكنّني أدرك فراقه. فارقته مبكرًا، ذلك لم يكن إيجابيًّا ولا سلبيًّا أيضًا. كان البيت نوعًا من العبء. العقبة الأولى التي عليّ أن أجتازها فكنت أذرع الأمكنة والدول والقارّات وأنا لا أمسك بيدي لا بيتًا ولا الوعد به وبوجوده. أحدنا تطفّل على ما يسمّى البيت حين أوقف مصروفه عنّي وأجاز لي الخروج من بين ذراعيه. ذاك بيت ندامة وانفلات من الموتى الذين ربّما، أتطفّل عليهم وأرفض تراخيهم في أصول تربيتنا أنا وأخي معًا فقد هاجرنا بعيدًا عنه قبل أن نصل العشرين. صحيح كان هو مجرّد ٤٠٠ متر مربّع من سنين الطفح الجلدي والعصبي، من الحمّى القرمزيّة وداء الصفراء، فقد أخذنا عنه وإلى مدى الحياة الشرور التي كانت تحضر دون البحث عنها، أو أنّها لم تحصل في الوقت المناسب ولا على بشر يستحقّونها. بيت جلس على كتفي ولم أقدر يومًا على حلّ طلاسم أهله ولا كانت لي الخبرة أن أقوم بترجمة خيره على البالغين سنّ الرشد لكي أسدّ أفواههم. لم أكن أشدّ إخلاصًا له ولا كان وفاؤه على حقّ، ولم أستيقظ يومًا وأنا مذهولة منه.

بيت العمر

كلابه أخذت أمكنتها في سياق الرواة ولم أربطها بالتخييل أبدًا. صحيح كان هناك كلب على مقربة منّا، أعرج ومريض فتمّ قتله بدم بارد ورمي في المزبلة. بكيناه أنا وأخي طويلاً ولم يهتمّ بالأمر أحد. ثم لاحظنا أنّ كلاب الأحياء المجاورة استأذبت حين أسمعها ليلاً. وقتذاك، بدأتُ أعتاش على الخوف وهو الذي بدأ يسبقني إلى المقاعد الدراسيّة وسرير النوم وثياب المنزل. في مقبرة الأعظميّة خلف جامع الإمام أبي حنيفة النعمان، كنّا نذهب في الأعياد. هكذا كانت مكافآت نجاحنا من الصفّ الثالث إلى الرابع مثلاً. هي مراسم قراءة الآيات القرآنيّة على شواهد القبور. كنّا نتواجه مع الموتى وأتصوّر أنّهم يحكون لنا الحكاية المختلفة، وأنّها كانت موجّهة لي شخصيًا من درجة التواطؤ الذي أراه في لغة الزوّار. كانت الجُمل تدعني أجفل والحروف تظهر بكامل أصواتها والميت يتكلّم معي وحدي. جدّي لأبي أسمعه يتنهّد تحت الشاهدة وجدّتي تتمخّط وأنا أسير بين الشواهد أخزّن الروايات وأتساءل:

إلى أين يذهب الموتى. ومن يتسلّم حوالات ثرواتهم المخبوءة في الذاكرة؟

صحيح أنّ الموتى يواظبون على تدريبي على التأليف واستخدام أسماء العلم الصحيحة والتركيز على المغامرة العظيمة: أن لا تكون أنت بدلاً من ذلك الميت. دعه يموت واعمل أنت ما تقدر على الإتيان به. يبدأ طيشك ومشاكستك، تبدأ أنت الذي لا يشبه أيّ أحد، لا من أولئك الموتى ولا من هؤلاء، كذاك العجوز جدّي لأبي الوسيم المهيب، والذي لم يحلّ أيّ أحد مكانه في وجدان وفيقة. كلّهم بطشوا بي، كلّهم ماتوا وتركوني، كلّهم غادروا ولم يتركوا لي إلّا الموت في كلّ حجرة وذرّة غبار، في كلّ قطرة ماء أو ثمرة رارنج يبست وتعفّنت، ففررتُ قبل العفونة. لم يكفِ أن تكون عاصيًا بين الغرف والجادّات، المدارس والجامعات، عليك أن تطلع من جميع الموجودات والأشياء، من الحكايات والقصص، من البيوت والغرف ولا تتحاشى الآتي الذي لا تعرف. صحيح أنّني عبثت بما قدرت عليه من أوراق ذلك البيت، في مكانه في الخريطة، جنازات أهله ومقابره التي فاضت عن رقعة المكتوب. لم يكن في حوزتي جهاز لقياس نبض الخوف إلّا بتأكيد وجود وفعل الكتابة، إلّا بحضور رقعة أرض البيت وعمّة وحيدة بقيت إلى العام الماضي تردّ على الهاتف:

ـ أي نعم أنتم تركتموني هنا حارسًا. أنت وأخوك. كلّ شيء شاخ، أي أنت عالية خاتون، أنت ما شخت، لو نسيت العمر. أي شلون دادة تنسين، الله وأكبر.

تعدّد الرواة

على يدَيْ عمّتي حصلت على اللامتوقّع دائمًا، فقد تداولنا بعض المعارف عن القرفة والكمّون والزعفران، أمّا ذاك النشيج الطويل الذي كان في الوقت نفسه يحضر ضدّها وضدّ البيت وضدّ الموتى كلّهم، فقد كنّا نمرغه بالتمر اليابس (الأشرسي) ونضع فصوص الجوز في منتصفه. لا نشعل النور بعد فصول ذلك الفيلم الذي استمرّ يواصل العرض إلى هذه الساعة. دائمًا أتساءل ما العمل بالبيت، بذاك البيت، وهذا البيت هنا في باريس؟ لم أعرف كيف أعيش في البيت فقد كنت ربّما، لا أساويه في مرتبة الجنون. وكان البكاء يأتي نيئًا، يمرّ ويتقدّم ولا يسعني أن أعرف علامَ كنت أبكي، ولماذا أنتحب. إنّ البيوت تدوم باليأس منها، وما عليّ إلّا أن أكتبها مرّة واحدة لكي أنتهي منها ولكنّه ما لا يتحقّق كما أشتهي والآن ما العمل بالوطن؟ صحيح الوطن يجدّد الأفول ويجعل الشيخوخة تبحث عن مؤلّف غيري، وهنا في هذه المدينة يفلت منّي العمر ويغفر لي أعوامي الطويلة جدًّا. فتحيّرني القصّة، كنت كالحطام وأنا شديدة اليفاعة في ذلك البيت ففررت عسى ولعلّ

أعود فتيّة ولطيفة. وعلى الأرجح، الحرّيّة تعلي سموّ الجمال والشباب أيضًا وأنا هنا في باريس.

سجّلت صوت عمّتي المبحوح لكي أدعه يحاصرني من كلّ ركن. نتحادث هاتفيًا فتتعجّلني لكي أنهي المكالمة. تدفعني دفعًا لكي أضعها خارج البيت والحكاية، فهي أيضًا ضاقت ذرعًا به وبنا كلّنا بدون استثناء. أظنّ، قال عبد اللطيف، ابني:

ـ هي لا تريد أن تكلّفك.

ربّما، لكن هذا غير صحيح أيضًا. لم تعد تسمع جيّدًا ولا تبصر بصورة سليمة فعمرها من عمر الاستقلال الكذوب. أسئلتها أسئلة حرفيّة عن كلّ شيء وأدري أنّها مصدري الوحيد في ما أنوي قوله قبل أن تفلت من بين يدي وتتركني:

ـ ومن يزورك يا عمّة هذه الأيّام؟ ترى من بقي من الخالات والعمّات؟ هل ما زالت تلك الخالة خارقة الجمال تحضر...؟

هنا يبدأ الانتحاب الكتوم. يتقطّع صوتها بين التنهّد والتأفّف:

ـ والله بنتي لا أرى أحد ولا ماحود إلّا النمل وهو يمشي قدّامي ويحضر بيوته الموجودة بجوار رأسي حين أنام. مرّات أشوفهم كبروا وصاروا ديدانًا ومرّات يختفون ويدخلون في جسمي وكأنّهم يلعبون معي أو يواسونني فأنا لا أقدر على المشي كالسابق. أي بنتي كلّ شيء تمرض. لو تدرين شكد آخذ أدوية ولكن ولا واحد يشفي.

فجأة تقفل الخط.

الوالدة والولد

لا يفلت لسانها، هي تترك فقط. تتركني دون الإصغاء لصوتها العراقي فكنت ألحّ على مخاطبتها. أطلب رقمًا عراقيًّا خصوصيًّا في العراق، في بغداد، في الأعظميّة، في شارع عمر بن عبد العزيز، في ذلك البيت الحطام، بيتي، فيبقى الهاتف يرنّ ولا أحد يجيب، وأنا ملحاحة فالخطّ يشتغل حسب الأصول، فلا بدّ أن يجيب أحد ما بعد قليل. هذه منطقة دفاعي الهشّة: العمّة والصوت وثمار الرارنج التي تعفّنت في الجنينة الصغيرة اليابسة المهجورة. لن أعود، حتى عمّتي تغافلني وتنتقم ممّا بقي من خساراتي العراقيّة المتوالية فتغادر وتتركني. أتدخّل في شؤونها وشؤون كلّ هذا العذاب المرير وراءها ووراءه.

ففي أحد الأيّام قلت، يقتضي الحال أن يكون لـ «النفتالين» جزء ثانٍ، وربّما أجزاء من يدري. بعض الشخصيّات ثبتت كأولئك الموتى، والبعض أفضّل أن أراهم اليوم ولم يعودوا في خانة المجهولين: ابني وحفيدي، لكنّني بعد قليل ضجرت من كلّ هذا وكأنّني أقرض عائلة ابني جميع مدّخراتي وأنا أخشى أنّهم قد

يتأخّرون في تسديد الدين فيتعيّن عليّ أن لا أشكو من ذلك. ففي بعض الأحيان تحضر السيّدة هاجر زوجة سيّدنا إبراهيم وأنا أراها وهي تقوم بالبحث عن قطرة ماء في فيافي مكّة لابنها الضمآن. وابني لن يعود إلى تلك البقعة العمياء ممّا يسمّى البيت. . . أو. إنّني أخشى عليه اللاعودة، فالأمومة لم تكن يومًا ملكي فقد عشت أمًّا تحتها بفراسخ، وأمًّا بقيت في حماها وتحت طائلة التهديد الدائم والنهائي بالانفصال عن ذلك الوليد ولعشرة آلاف سبب أفدحها الحرب.

إنّ الحروب وخبرة الألم والتهديد بالفقد جعلت كلّ والدة تتقبّل عوائد هذا التهديد. وما نراه يحصل وحاصل في بلادنا العربيّة يدفع أمّا للمغادرة وأمّا للمغادرة والترحّل. الحروب تضيّع آثار الأبناء وإلى الأبد ولا يبقي بين الأصابع إلّا بعض كلام يحضر عبر المجال الافتراضي فلا أحد يغيّرها من حال إلى حال إلّا الولد.

صدر للمؤلّفة

١ ـ افتتاحيّة للضحك. قصص قصيرة، دار العودة، بيروت. ١٩٧٣.

٢ ـ هوامش إلى السيّدة ب، قصص قصيرة، دار الآداب، بيروت، ١٩٧٧.

٣ ـ ليلى والذئب، رواية، دار الحرّيّة، بغداد، ١٩٨٠.

٤ ـ حبّات النفتالين، رواية، الهيئة المصريّة للكتاب، دار فصول، القاهرة ١٩٨٦.

٥ ـ حبّات النفتالين، الطبعة الثانية، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٠.

٦ ـ مصاحبات، قراءة في الهامش الإبداعي، مقالات، نصوص، عن دار عكاظ، المغرب ١٩٩٣.

٧ ـ الولع، رواية، دار الآداب ١٩٩٥، بيروت.

٨ ـ الغلامة، رواية، دار الساقي ٢٠٠٠.

٩ ـ المحبوبات، رواية، دار الساقي. (الفائزة بجائزة نجيب محفوظ للآداب ٢٠٠٤).

١٠ ـ التشهي، رواية، دار الآداب ٢٠٠٧، بيروت.

١١ ـ غرام براغماتي، رواية، دار الساقي، ٢٠١٠ بيروت.

ترجمت معظم رواياتها إلى لغات عالميّة وطُبع بعضها غير مرّة.

سيرة روائيّة للكاتبة العراقيّة عالية ممدوح، زمنَ باريس والمعاناة للحصول على إقامة وعلى تجديد جواز السفر العراقي. وهي معاناة تعكس مسألة الهويّة والانتماء.
نقرأ باريس وبغداد في الجملة الواحدة، في الموقف الواحد.
فتصبح الكتابة باللغة العربيّة هي ما يمنح الأنثى الخائفة حرّيّة وأمانًا مطلقين.

عالية ممدوح روائيّة عراقيّة. صدر لها عن دار الآداب «هوامش إلى السيّدة ب» و«حبّات النفتالين» و«الولع» و«التشهّي». فازت روايتها «المحبوبات» بجائزة نجيب محفوظ للرواية.
تُرجمتْ أعمالُها إلى لغات عالميّة عدّة.

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-261-0

9 789953 892610